محمود شاهين

رسائل حب إلى ميلينا

وقصص أخرى





طبع بدعم من وزارة الثقافة
2014

رسائل حب إلى ميلينا

وقصص أخرى

محمود شاهين

رسائل حب
إلى ميلينا

وقصص أخرى

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/٥/١٥٠٥)

رسائل حب إلى ميلينا وروايات وقصص حب أخرى مختارات - محمود أحمد شاهين.

دار البيروني للنشر والتوزيع

الطبعة العربية الأولى - ٢٠١٤

ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٥٦٨-٤٨-١ (ردمك)





شركة دار البيروني للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - وسط البلد - شارع السلط - بناية رقم (٢٣)

ص.ب: ١٨٣٣١٢ عمان ١١١١٨ - تليفاكس: +٩٦٢٦٤٦٥١٠٠١

Email beyrouni publisher@gmail com

موتي وقط لوسيان

في الوقت الذي كنت فيه أفكر في الموت، في محاولة يائسة لإبعاد شبحه عني، جاءني هاتف من لوسيان ،تخبرني أن محمود مات، وتطلب مساعدتي لدفنه في مقبرة.

أطرقت قليلاً إلى أن أدركت من هو محمود، ولحظتئذ لم أعرف ماذا أفعل، هل أضحك أم أبكي أم أغضب؟! قلت للوسيان دون اكتراث أن تلقي بهذا المحمود في القمامة وتحاول أن تنساه وتفكر في ما هو أهم.

راحت تصرخ على الطرف الآخر من الخط بعربية تخالجها اللكنة الفرنسية :

(في القمامة أيها المجرم الشرير، في القمامة؟ إنه روح يا من تدعي أنك تكتب عن الروح والحياة، على أية حال لا أريد مساعدتك، ولن أحضر إليك هذا المساء، لا أريد دعوتك)

وأقفلت الخط ليظل صدى كلماتها يتردد في مخيلتي، يضغط على صدري، يعتصر قلبي ويثقل نفسي، ومع ذلك لم أحاول الإتصال بها على أمل أن تأتي في المساء- رغم ما قالته- وأوضح لها الأمر.

كنت قد استيقظت هذا الصباح والرعب يجتاح جسدي من رأسي حتى قدمي. فقد رأيت في نومي لحاما يحمل على كتفيه رجلين مذبوحين

و مسلوخين! ويدخل بهما إلى الملحمة. كان رأسا الرجلين يتدليان على ظهر اللحام وقد بدا تماماً أنهما ذبحا من الوريد إلى الوريد، أظن انني صرخت حينئذ واستيقظت على أثر ذلك. ألقيت نظرة خاطفة على ما حولي لأتأكد من أنني في غرفتي، وأنني كنت في كابوس لا أكثر. كابوس ككل الكوابيس التي أراها دائما. زفرت عدة أنفاس عميقة متلاحقة في محاولة لتهدئة أعصابي وطرد الذبيحتين من مخيلتي. ألقيت نظرة على الساعة، كانت حوالي السادسة، إنه الوقت الذي أنهض فيه عادة لأكتب. أخرجت السدادات من أذني لأبدأ اتصالي المباشر بالعالم الخارجي المحيط من حولي، طرقت أذني مجموعة أصوات متناثرة من هنا وهناك، لم أكترث للمسألة، ونهضت لإعداد الشاي. وضعت الماء على النار وعدت لأفتح المذياع متفقدا أخبار الموت الفلسطيني، أو لأقل أخبار القتل. فالقتل ثاني شيء يعيد ربطي بالعالم الخارجي، بعد الضوضاء والصخب والضجيج، إذ يتوجب علي معرفة كم قتل منا هذا اليوم ؟

أخذت أخبار القتل تتوالى عبر المذياع. رباه كم كان هناك من القتلى: قتلى في جامعة بير زيت، قتلى في غزة، جرحى في أماكن اخرى من الأرض المحتلة، عشرات القتلى في مخيمات: عين الحلوة، الرشيدية، برج البراجنة، شاتيلا، ولم تتطرق الأنباء إلى مخيم صبرا، فقد سحق مخيمها بالمدافع الأخوية منذ زمن قريب، وردمت كل أبنيته، لينسى تماما إلا من الذاكرة الفلسطينية وحدها. تأففت قهراً وغضباً وقذفت(في نفسي) مجموعة من الشتائم على الكون والعالم ! وقد غابت من مخيلتي كل مؤشرات البقاء، ليحل القتل بكل فظاعته .حضرت الشاي ورحت أحتسيه. أغلقت المذياع وشرعت في قراءة آخر مشهد في الرواية. الرواية التي بدأت كتابتها أواخر عام ٨٠،

ولم أفرغ منها حتى الآن، وبت أشعر وكأنني بدأتها منذ سبعين عاما وليس سبعة أعوام، لكثرة ما قتلتني واعتصرت دمائي قطرة قطرة، أرهقت أعصابي وسلبت مخيلتي. كتبت فيها حتى الآن قرابة ألف و مائتي صفحة، ولا أعرف كم سأكتب بعد، ولا أعرف متى سأنتهي، ولو كنت أعرف أنني سأكرهها إلى هذا الحد، لما شرعت في كتابتها، أو لأجلت ذلك، لا أظن أن هناك ما هو مرهق في الحياة أكثر من كتابة الرواية .

لم يرق المشهد لي، أحسست أنه مكتوب بلغة جافة ميتة ليس فيها أي أثر لحياة، رغم أنني كتبته ثلاث مرات. ثم إن ما يحيرني هو مصير أبطالي، الذين لا أجد مفراً من جعلهم يواجهون قدرهم، وهو هنا قدر كل الأبطال الفلسطينيين عبر التاريخ. بدءاً بجليّات الذي تقول الأسطورة التوراتية أن داود قتله بحجر من مقلاعه، مرورا بيسوع المسيح، وانتهاء بعبد القادر الحسيني، وأبو علي إياد، وغسان كنفاني، وماجد أبو شرار. كم أحاول أن أجد لهؤلاء الأبطال منفذا. فأعود إلى جليات في محاولة يائسة للبحث عن أمل ما! فأجد ما لا يصدق، أجد أن داود الصغير قد صرعه رغم العملقة التي تصوره فيها التوراة (فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات من جت، طوله ستة أذرع وشبر، وعلى رأسه خوذة من نحاس، وكان لابسا درعا حرشفيا، ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس، وجرموقا نحاس على رجليه، ومزراق نحاس بين كتفيه، وقناة رمحه كنول النساجين، وسنان رمحه ستمائة شاقل حديد)

رباه (أقول لنفسي) ورغم كل هذا صرعه داود بالمقلاع؟! اللعنة! هل يكمن قدرنا في انه كتب علينا القتال مدى الحياة دون تحقيق النصر؟! وبالتالي لا يمكن لحياتنا أن تتجدد إلا بالموت، طالما أن اليهود لم يفنونا

رغم طول هذا الصراع عبر التاريخ؟!

هذا ممكن (أقول لنفسي) وأنهض لقضاء حاجتي الصباحية، وقد داخلني شيء من الطمأنينة لما أظنه صواب أفكاري!

قضيت حاجتي وأنا اتصفح كتابا عن المجازر االإسرائيلية ضد الفلسطينيين، تناولته من مكتبة المرحاض!! عثرت على مجازر لا يكاد يسمع بها أحد، ارتكبت في قطاع غزة عام ١٩٥٦. وفظاعتها تفوق كثيراً العديد من المجازر النازية، حتى تلك التي استخدمت فيها الأفران لحرق الأسرى. فمن يصدق مثلا أن الجيش الإسرائيلي دفن في الصحراء ١٨٠٠ شاب في يوم واحد، وقد دفن معظمهم وهم أحياء.؟!

تنبهت إلى أن الكتاب أخذني بحيث جعلني أمضي في الحمام أضعاف الوقت المطلوب! لقد أضعت الوقت! ينبغي ان أغسل وجهي وأحتسي القهوة. سأحتسيها وأنا أكتب.

سارعت إلى التنفيذ .. جلست على طاولة الكتابة لأقود بطلي إلى نهايته! أنا في العادة اكتب في السرير، لكن وجود طاولة في هذا البيت الصغير الذي استأجرته منذ فترة، شجعني على استخدام الطاولة.

كيف سأميت هذا البطل؟ أبطال كثيرون في روايتي وينبغي علي أن أبحث عن ميته تليق بكل واحد. هذا في مواجهة مع المحتلين. وذاك في السجن، وذاك وذاك.. رباه كم أحتاج إلى أشكال من الموت؟ ثم إنني نسيت أن أغلق أذني قبل أن تضج الحارة بابواق باعة النفط، فأنا لا استطيع الكتابة وحتى النوم والقراءة، دون أن أغلق أذني، لتلافي هذا الصخب المدمر للأعصاب، وخاصة ذاك المنبعث من أبواق باعة النفط، أو المازوت كما يسمونه في دمشق. فظيعون باعة المازوت هؤلاء، فهم يقتلونني بطريقة عجيبة، لا يشرعون سيوفا لجز الرؤوس، ولا ينصبون

مشانق، أو يرمون بالرصاص، لا لا، إنهم لا يفعلون هذا أوذاك، إنما يجننونني بأبواقهم الفظيعة، فما أن يقبل أحدهم على الحي من بعيد وفي الصباح الباكر، ممتطيا عربة حصانه المشرشب، المزين بالشرافات والظبابيح والضفائر الملونه، التي غالباً ما تكون حمراء، حتى يسبقه صوت البوق المخيف، مخترقا النوافذ والشرفات، الحوائط والجدران، الرؤوس والجماجم، موقظا الناس من عز النوم، فأبادر حينئذ إلى وضع السدادات في أذني لأستانف النوم، أمّا إذا كنت أكتب فإن الأمر يتطلب ان أسارع إلى دفع السدادات عميقا داخل أذني في أتعس محاولة للتخفيف من حدة الصوت الذي يخترق تلافيف دماغي، يشل تفكيري، يجمده تماما، فتغدو الكتابة أمرا محالاً، بل مستحيلا، لذا أتوقف في أحيان كثيرة، فهذه السدادات تفيد قليلاً لكنها لا تحل المشكلة، أنتم قطعا لم تسمعوا أبواق باعة المازوت هؤلاء طالما لم تسكنوا الأحياء الشعبية في دمشق، كيف أصفها لكم؟ فهي ليست كأبواق سيارات النجدة أو الإسعاف، وليست كأبواق إنذارات الخطر كلها، حتى تلك الأبواق المرعبة التي تسبق عادة مواكب الزعماء. بل إن هذه تبدو جميلة إذا ما قورنت بها . أما بوق بائع المازوت فهو عجيب، صوته حاد جدا، وهو بوق عجيب حقا، ينتهي بكرة مطاطية ممتلئة بالهواء، يضغط البائع عليها فتخرج صوتا يأخذ طريقه على الفور إلى تلافيف الأدمغة، فيشل حركة الأعصاب!! وكل بائع مازوت يضغط على الكرة بطريقة تميزه عن الآخرين، فقد تسمع واحدا يضغط ضغطة طويلة جدا في البداية، يتبعها بضغطة أقصر قليلا، ثم أخرى قصيرة تماما، وآخر يضغط ضغطتين طويلتين ثم واحدة قصيرة فواحدة طويلة جدا!! فالجميع يحاولون تأليف ألحان موسيقية فظيعة بضغطاتهم. ويكررون هذه الألحان مرة كل دقيقة، مع أنّ الحارة تكون

قد استيقظت أبشع استيقاظ يمكن أن يستيقظه بشر.

كم مرة أطلقت النار على باعة الزفت هؤلاء. أطلقتها في خيالي طبعا، إذ لا أتصور أن أقتل أحدا من هؤلاء التعسين حقيقة. بالتأكيد لن أفعلها. صحيح أنّه لدي مسدس في درج طاولتي، أحتفظ به كأي فلسطيني، حتى أدافع به عن نفسي إذا ما حان قدري، لكني لن أستخدمه ضد باعة المازوت، رغم أن كل واحد من هؤلاء يغشنا في السعر والمكيال والمازوت المخلوط بالماء، فقد أخذ أحدهم ٨٥ ليرة بينما أخذ آخر ٧٥، وآخر ٦٥، مع أن الكمية التي ابتاعها ثابتة لا تتغير. وإذا ما حاولت إقناع البائع بأنّ أوعيتي لا تتمدد ولا تنتفخ، ولا تتسع لأكثر مما تتسع، وأن سعر ملئها لا يتجاوز ٥٤ ليرة حسب تسعيرة الدولة، فإنه يحرمني من المازوت في عز الشتاء. لذا بت أسلم بالغش وأتعامل معه كأمر واقع. حتى أنني أخذت أشكر جاري عندما يبيعني كيلو السكر بعشرين ليرة مع أنه يبتاعه بليرة ونصف!

ما يزعجني أن نسبة الغش غير ثابتة، وتختلف من بائع لآخر. وفيما يتعلق بالمازوت، لا أذكر أن بائعا اخذ مني نفس المبلغ، وإذا ما أخذنا بالإعتبار نسبة الماء غير الثابتة أيضا التي تضاف إلى النفط ، فإن الغش يكون فظيعا جدا .

وأعجب ما في بائع المازوت هذا أنه يظن نفسه أهم من ملك او رئيس جمهورية، وفي أسوأ الأحوال يظن نفسه أهم من رئيس حزب أو زعيم منظمة فلسطينية، وقد يكون محقا في ذلك، وخاصة حين يقترب من الحارة أو يعلن حضوره فيها، مطلقا الف صرخة من بوقه الفظيع، فتطل الرؤوس منفوشة الشعر من النوافذ والشرفات وشقوق الأبواب، وتجحظ العيون المعمصة التي أرهقها السهاد أو أكسلها طول الرقاد، وهي تحدج البائع بنظرات بلهاء. ويهرع الباحثون عن المازوت لتشغيل مدافئهم وحماماتهم، فيزهو بائع المازوت

بنفسه ويدور حول الحصان المشرشب متبخترا، والناس يحدقون إليه وهو يحدق إليهم، راميا نظراته هنا وهناك، نحو الطوابق العلوية والسفلية، ويده لا تكل ولا تمل من الضغط على هذا البوق العجيب، وهنا بالذات يشعر أنه يؤكد حضوره أمام كل الناس، وأن الجميع في حاجة إليه، وأنه بالتالي أهم من ملك أو رئيس جمهورية! وهؤلاء حسب زعم جارتي الشامية يستوطنون التلفزيون، ويمكن للمرء أن يغلق التلفزيون إذا لا يريد أن يراهم، أما باعة المازوت هؤلاء فمن يستطيع أن يمنع نفسه من رؤيتهم.؟ من يستطيع أن يغلق اذنيه دائما حتى لا يسمع صخب أبواقهم.؟ لقد تآلفت مع كل الأصوات الأخرى في الحارة منذ أن سكنتها، تآلفت مع أبواق السيارات ومفرقعات الأطفال، تآلفت مع أصوات الدراجات النارية التي يركبها المراهقون وغير المراهقين، مع نداءات باعة الخضار والفواكه، ونداءات تجار الأحذية المهترئة والملابس المستعملة، ونداءات تجار الخبز الجاف والألمنيوم والقناني الفارغة، تآلفت مع نداءات هؤلاء التي لم أكن أطيقها ولم أكن أفهم منها شيئا، وإذا فهمت ماذا ينادي البائع وتريد أن تشتري، ستجد أن البائع يبيع شيئا مختلفا عما ينادي عليه، فإذا سمعته ينادي قائلا (حلاوة يا حلقوم) وأطليت برأسك من النافذة لتنده عليه رغبة منك بالحلقوم، ستجد أنه يبيع بطيخاً!

المهم، وكي أتلافى طرق باب بيتي من قبل المشترين، علقت عليه لافتة تقول أنه ليس لدي ما يمكن شراؤه، وأنني ألقي بفضلات الخبز في القمامة، فأدركوا أو ظنوا أنني ملحد، إذ كيف أرمي فضل الله في القمامة؟ فلم يعودوا يطرقون باب بيتي في الصباح الباكر، إلا إذا كانوا أميين. ولم يبق غير هؤلاء التعسين، أي باعة النفط العظام، الذين يؤكدون حضورهم في مخيلتي أكثر من الأعجف (وهذا زعيم فلسطيني مهول، كسر الدنيا، في روايتي!) وأكثر من عامر الليثي (وهذا الفدائي

الفلسطيني الذي يصارع قدره في الرواية ذاتها) وأكثر من الموت المحدق بالفلسطينيين، وأكثر من النساء اللواتي قتلنني وما زلن، حتى أنني كتبت إلى وزيرة الثقافة أناشدها المساعدة في الخلاص من أبواق باعة النفط هذه، بعد أن أخفقت كل محاولاتي في جعل الباعة يبيعون نفطهم دون استخدامها، كما أخبرت صديقي الروائي بما أقدمت عليه، لعله يساعد في الأمر، أعرف أن هذا ليس من شأن الوزيرة والروائي، لكن ماذا أفعل بالله عليكم ؟!

لقد مر شهر على كتابي ذاك ولم يحدث شيء، ولن يحدث شيء كما يبدو، وهذا البوق يصرخ في رأسي، والرواية تنتظر بين يدي، والزمن يطوي سني عمري، والأعجف يطل من بين السطور، يحدجني بنظراته، يقهقه، يسخر مني! ،أما أم عامر (وهذه الأم الفلسطينية في روايتي) تحدجني بنظرات الوجد وتقول لي (متى ستنتهي من مأساتي، ألا يكفي أنك جعلت اليهود ينسفون بيتي مرتين؟ وقد تجعلهم ينسفونه مرة ثالثة، ألا يكفي أنك جعلتهم يقتلون عمر وفداء وعمرو، وجعلتهم يأسرون محارب وعمران وأبو عامر، ألا يكفي كل هذا؟ فإلى أين تقودني؟ كفاك مآس!)

آه كم أنا متعب يا أم عامر، وكم تؤرقني هذه المآسي التي وضعتك فيها، كم تقتلني؟

سمعت مجموعة أبواق لباعة المازوت تنطلق دفعة واحدة، قادمة إلى الحي، سارعت إلى فتح علبة السدادات لأغلق أذني، غير أنني شعرت بانقباض شديد في صدري، انقباض شل حركتي، وجعلني غير قادر على وضع السدادات في أذني، رحت أتنفس بعمق وأنا أضع يدي على صدري في محاولة لمقاومة هذا الإنقباض المفاجيء . تخيلت نفسي ميتاً على الأريكة وليس خلف طاولة الكتابة، لا أعرف لماذا؟!

رن جرس الهاتف. حاولت القيام غير أنني لم أتمكن. وظل الجرس يرن ويرن إلى أن يئس طالب المكالمة وأقفل الخط من طرفه. بعد قرابة ربع ساعة، أحسست أنني استعدت شيئاً من قواي، حاولت النهوض لأتأكد من أنني قادر على الوقوف والسير. تمكنت من الوقوف وسرت ببطء إلى الأريكة لأجلس عليها، أتكيء بظهري على مسندها وأمدُّ رجلي إلى الأمام، شعرت بشيء من الراحة وأنا أمد رجلي إلى الأمام وأسترخي دون أن يفارق شبح الموت مخيلتي، آه (هتفت لنفسي) (سميرة الزوجة الأولى) هجرتها وبيرجت (الزوجة الثانية) في ألمانيا. إيريس في أمريكا، وليليا في المكسيك، جينيا في موسكو، ونجوى في القاهرة، كلير في لندن، وحياة في القدس، بسمة تزوجت ولم تعد تتحملها! غادة ربما لم تعد تطيقك، ولوسيان. حتى لوسيان التي في دمشق، منشغلة بعالمها العجيب، ولا تزورك إلا نادراً، وأولادك وبناتك الذين تظن أنهم كثيرون ليسوا من حولك، كل هذا الكم من النساء (الزوجات والحبيبات والصديقات) والأولاد، عدا الأخوة والأخوات، وتموت وحيداً، وحيداً، يا محمود أبو الجدايل! وحيدا بائسا متعبا مرهقا ،مدمرا، لا أحد يقدم لك حتى كأس ماء. آه يا امي لو أنك إلى جانبي لتواسيني بكلمة منك، لتغدقي علي حنانك، لتضمي رأسي إلى صدرك المترع بالأمومة والحنان، وتملسي بيدك البلسمية على صلعتي، أنا حزين ووحيد ومتعب يا أمي.

رن جرس الهاتف ثانية. مددت يدي هذه المرة، إذ كان الهاتف قريباً مني.

كانت لوسيان. لوسيان التي مات أحد قطيها (محمود) وتطلب إلي المساعدة في دفنه! جرى بيننا على الهاتف ما جرى، وانتهت المكالمة بنعتي بالمجرم الشرير القاسي. وإلغاء دعوة العشاء التي كان مقرراً أن تحضر

إليها عندي .

لوسيان سيدة فرنسية، وهي أرق امرأة عرفتها في حياتي، وأكرم امرأة بعد (عائشة العلان) وهذه الأخيرة كانت أرملة فلسطينية معدمة، جاءت أبي تستدين منه ذبيحة حين طرق بيتها عابرو سبيل بحثاً عن طعام !!!

ولوسيان امرأة ناعمة كحرير الشام، وشفافة كماء زمزم، يمكن أن تخدشها نسمة هواء في غير أوانها.. ولا أعرف أية حماقة دفعتني لأن أتعامل معها بهذه القسوة، وأطلب إليها أن تلقي القط في القمامة !

تعرفت إليها بعد حضور عرض مسرحية (كاليجولا) في دمشق، وأصبحنا صديقين حميمين بعد قرابة اسبوعين. حدثتني عن مسيرة آلامها، وحدثتها عن مسيرة آلامي، لولا احتلال بلدي لكانت آلامها لا تقل فظاعة عن آلامي، فقد عاشت حياة قاسية، لم يرد مثلها حتى في الأساطير، ربما في أسطورة لوط فقط! ومع ذلك فهي تحاول نسيان كل المآسي التي مرت في حياتها (كما أحاول نسيان مقتل أخي بيد أبي) فتبدو وكأنها لا تعاني منها، وربما لاتعاني ..

ولوسيان كمعظم الأوروبيين تحب الحيوانات، وتفضل القطط على الكلاب. عندما تعرفت إليها كان لديها قط بحجم كلب صغير اسمه فرانسيس، (وهذا اسم صديق فرنسي لها) وحين تعمقت صداقتنا، اقتنت قطا آخر وأسمته (محمود) على اسمي.

كان قطاً صغيراً وقميئاً، وكم كنت أكرهه، فهو بليد وخامل وغير مرح وبشع، عكس معظم القطط التي أراها جميلة، وكثيراً ما كانت تداعبه أمامي، وتسألني وهي تضمه إلى عنقها وتقبله <ألا تحبه> فأقول لها لا بل أكرهه، أبعديه عن وجهي وكنت أميل إلى القط الآخر فرنسيس، رغم أنه كان شرساً، فلم أداعبه يوماً عن قرب إلا وترك آثار جراح على يدي،

غير أننا اكتشفنا أسلوباً مشتركاً للتفاهم والمداعبة دون اللمس المباشر، فقد اعتاد أن يتسلق دالية في حديقة البيت، ويتوغل بين أغصانها إلى أن يضل طريقه، فلا يعرف كيف يعود، ولا يستطيع القفز لعلو الشجرة، فيشرع في المواء، وحينئذ كنت أبادر إلى إحضار سلة كبيرة من القصب، وأرفعها نحوه، فيقفز فيها، وبهذا اكتشفت لعبة مسلية معه، وهو بدوره اكتشف لعبة راقت له. فأخذ يكررها معي كثيرا، حتى بعد أن تدرب على الصعود إلى الدالية والنزول عنها بسهولة. أرفع له السلة فيقفز فيها ومن ثم أدور به من حولي إلى أن أشعر ان الأرض تدور معي، فأتوقف قليلا لأتخلص من الدوخة، أمرجحه في الهواء إلى أن يمل. ذات مرة حدث أمر طريف، فقد هاجمه كلب، وفي غمرة رعبه تسلق شجرة عالية جدا، لم يتوقف إلا أعلاها، كان من المستحيل مساعدته. حاول النزول عدة مرات فلم يتمكن، لم تكن مخالبة قادرة على أن تقوم بفعلها كما في التسلق، حاولنا بالسلة، تعذر عليه القفز فيها من هذا العلو الشاهق. أخذت لوسيان تفكر في الإتصال برجال الإطفاء، فيما راح صديق يبحث عن سلم من الجيران. كان الصديق طويلا صعد إلى أعلى السلم ورفع السلة بيدية. تردد فرنسيس في القفز، فالسلة تبعد عنه قرابة ثلاثة أمتار. رحنا نحمسه كي يقفز <هيا فرنسيس هيا اقفز> كور جسمه وتحفز، وحقا قفز. كانت القفزة موفقة بحيث جاء في السلة تماما، غير أنه كاد أن يوقع صديقنا عن السلم.

حاولت لوسيان ذات يوم التخلص منه بعد أن خيرها صديق أن تختار بين القط وبينه، فاختارت الصديق. ووضعت فرنسيس في كيس وأقفلت عليه، ثم أخذت سيارة إلى بلدة تبعد حوالي ١٥ كيلو متراً عن دمشق وأطلقته هناك وعادت. فوجئت بعد حوالي أسبوع وهو يدخل عليها من

النافذة، فقررت التخلي عن الصديق والإحتفاظ بالقط .

ذاك الخمول البشع محمود لم تقم بيني وبينه أية علاقة، وذات يوم اتصلت بي لوسيان في الصباح الباكر لتقول لي أنها حزينة جدا، لأنها فتحت الباب في الصباح لتجد محمود ملقى خلفه والدماء تنزف من فمه وفكيه ورأسه، لقد ضربته سيارة أمام الباب كما يبدو، وكم كانت حزينة لأنها لم تترك الباب مفتوحا خلال الليل ليدخل محمود عندما يعود من تسكعه في الأحياء، ثم إنها تجاهلت خرمشاته على الباب أثناء الليل معتقدة أنها خرمشات قطط متحرشة، فلم تفتح له. ثم كيف تسمح لنفسها أن تنام وهو خارج البيت، كان يجب أن تنتظره إلى أن يعود، وكان في مقدورها أن تسعفه فورا، أما الآن؟ فأنا حزينة ومتأسفة ومسؤولة عما جعل حاله تسوء أكثر، لقد نزف كثيرا من الدم، وظل يتألم طوال الليل . هكذا قالت لي على الهاتف، ولم يبق إلا أن تقول عن نفسها أنها مجرمة لإهمالها القط إلى هذا الحد. سألتني عن طبيب بيطري فأجبتها بأنني لا أعرف . تأسفت لإزعاجي معتقدة أنه كان بإمكاني أن أساعدها وإلا لما اتصلت.

عثرت على طبيب بيطري وراح يعالج محمود ويعايده باستمرار بأجر باهظ! لم يتماثل للشفاء، وساءت صحته، وغدا بشعا إلى حد يثير القرف، كان فكاه مائلين وبوزه معوجا من جراء الصدمة. وعندما تأملته بدالي وكأنه مصاب بالجعام، أخبرت لوسيان أنه قد يموت قريبا، وها هو يموت بعد بضعة أيام .

أمر مؤسف جدا أن أكون قاسياً ولا مبالياً على الإطلاق إزاء مشاعر امرأة رقيقة وعاطفية، ثم إنها صديقة وكانت تأمل مساعدتي، لماذا لم أعتذر لها وأقول أنني متعب ومرهق وحزين ومشغول أيضاً، وكان في

مقدوري إغصاب نفسي على إبداء أسفي لموت القط الذي يحمل اسمي والذي اقتنته من أجلي. كانت ستتقبل مني أي عذر مهما كان، أنا واثق من ذلك، اللعنة علي وعلى أبي الذي يدعي أنه أنجبني، لماذا لا أستطيع أن أكذب على نفسي ولو مرة واحدة ؟ لماذا أكره المجاملة، حتى وأنا أعيش وحدة قاتلة وأصارع قدري، وأرى حتفي أمام عيني، وفي أمس الحاجة إلى انسان ما، أي انسان يكون إلى جانبي، يعطف علي بكلمة، يواسيني بابتسامة، يقدم لي كأس ماء. آه آه! هل أتصل بلوسيان لأعتذر لها، لأقول لها لو أنه في مقدوري القدوم إليها لقدمت ودفنت محمود معها، لعلها تقتنع أنني لست شريراً، ولست مجرماً، ولست قاسياً أيضاً! رباه! لعلني أصبحت شريراً دون أن أدري، لكن هل يكفي اتخاذ موقف كهذا الذي اتخذته إزاء قط لأصنف في عداد الشريرين؟! غير ممكن! رباه! لكنني كنت وأنا فدائي أطلق النار على الأرانب والثعالب والغزلان والوعول والطيور، بل لقد حدث وأن أطلق فدائي النار على القط الوحيد الذي كان لدينا في القاعدة، القط الذي كنت أحبه كثيرا وأدعه ينام بين أحضاني، ولا أذكر أنني فعلت شيئا للفدائي، مع أنه لم يطلق النار على القط لفعلة شنيعة ارتكبها، بل لأنه لم يجد هدفا يطلق النار عليه إلا هو، فأطلقها. وكل ما هنالك أنني أبديت انزعاجي الشديد من سلوك الفدائي وطالبت بمعاقبته، دون أن يذعن أحد لكلامي.

وعندما أطلق فدائي آخر النار على البغلة التي كانت لدينا في القاعدة، لم نفعل له شيئا، صحيح أننا لم نتمكن من القاء القبض على البغلة حين قطعت قيدها وراحت تعدو في الهضاب جامحة، غير أن هذا لا يعني أن نتهاون مع من أطلق النار عليها بعد نفاد صبره. وكان في مقدورنا أن نترك البغلة إلى أن تتعب من العدو وتجوع، لتعود وحدها، وكان يجب معاقبة

الفاعل، ليس لعدم إنسانية ما فعله فحسب، بل لأهمية البغلة لنا في رحيلنا وترحالنا ونقل سلاحنا وذخيرتنا وسفدها من قبل بعضنا أحياناً!!

حقا نحن أشرار! أنا بالذات شرير! ولا ينبغي أن أتذرع بالموت المحيط بي والمحدق بي لأبرر شرانيتي، وإلا لبررنا لليهود كل ما فعلوه بنا، وبالتالي سنبرر لأنفسنا كل ما قد نفعله بهم في المستقبل.

اللعنة ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أدعي انني كنت أحب هذا المحمود وأنه ينبغي علي أن أشارك في جنازته ودفنه! (طيب يا أخي لا تحبه بل إكرهه كما كنت تكرهه ولا تشارك في دفنه، لكن لا تطلب إلى صاحبته أن تلقيه في الزبالة. احترم مشاعرها إزاء قطها يا أخي!)

صحيح كان يجب ألا أفعل هذا، وليس من حقي أن أشير به عليها، إذن يجب أن أعتذر لها وأبدي أسفي لموت هذا القط التعس.

أحسست أنه بإمكاني أن أتصل بها.. مددت يدي. أدرت القرص ضارباً أرقام هاتفها. ظل الهاتف يرن دون أن يرد أحد. لا شك أنها ذهبت لدفن القط.

عاد هذا الإختناق يضغط على صدري ثانية، واليوم ما يزال طويلاً طويلاً، وإذا لم تأت لوسيان في المساء سأكون حزينا أكثر من أي يوم آخر في حياتي، وإذا لم أعتذر إليها سيزداد حزني.

لم أكن قادراً على فعل شيء، وكلما حاولت الهروب من لوسيان وقط لوسيان وشرانيتي وموتي رحت أغرق أكثر. أغلقت أذني بسدادتي أذن لأهرب من الضجيج والأبواق الصاخبة في الخارج، واسترخيت في الأريكة جاهداً قدر الإمكان لأن أريح نفسي ولا أفكر في شيء، لكن عبثاً...

ذات يوم قبل احتلال عام ٦٧، كان لدينا كلب جميل أسود، وبعدما هربت من البيت ومن رعي الأغنام، على أثر ضربة سددها لي أبي

بهراوة فأس كسرت كتفي، أخذت أحضر من القدس بين الفينة والفينة لزيارة أمي، ورغم أنني كنت أغيب عن البيت بضعة أشهر بعد كل زيارة، إلا أن الكلب كان يعرفني بمجرد مشاهدتي أطل من قمم الجبال، فيهرع لاستقبالي، كان ينبح في البداية وكأنّه لم يكن جازماً بأن القادم أنا، لكن ما أن أقترب حتى يتأكد تماماً من هويتي، فيهرع إلي عدواً. أجلس لأستقبله بأحضاني وكأنني أستقبل طفلاً عزيزاً، أضمه أعانقه أداعبه، أملس على رأسه، أطعمه مما أحضرته له. أسأله عن أحواله وعما إذا كان أبي ما يزال يضربه لأي سبب. فقد كان أبي يضرب كل شيء: نحن وأمي يوميا لأتفه سبب .البغل إذا أحرن أو سطا على أكياس الشعير، الكلب إذا غفل عن القطيع أو نام في غير المكان الذي حدده له، الدجاج إذا دخل حقول الحنطة أو الشعير أو التبغ، القط إذا اختلس قطعة جبن أو لم يفلح في اصطياد الفئران التي كانت تعج في عزبة أبي. الأغنام إذا لم تدر الحليب المطلوب، الكبش إذا لم يكن فحلا كما يريده، والزرع إذا لم يحمل جيدا، وأخيراً الأرض إذا لم تخصب !!

وكنت أشعر بالكلب يشكو لي همومه ويلومني لأنني هربت وتركتهم يقاسون الحياة في كنف أبي، وحين كنت أنهض لنكمل الطريق إلى العزبة، كان يملأ الوادي فرحاً ومرحاً وصخباً، يعدو هنا وهناك ويعود إلي، يسبقني إلى البيت ليخبر أمي ويعود .

وذات مرة قدمت لزيارة أمي، لم يفعل كما في كل مرة، بل لم أشاهده على الإطلاق، قلت لعله نائم. رحت أنادي سمور سمور دون جدوى. وعندما أصبحت على مسافة أمتار من العزبة ولم أره، أدركت أن أمراً ما قد جرى له. وحين دخلت من باب الجدار الخارجي المحيط بالعزبة، شاهدته مطروحاً على مقربة من مربط البغل. هرعت نحوه، كان يحتضر

وفي الرمق الأخير. جلست إلى جانبه ورحت أملس بيدي على رأسه برفق إلى أن لفظ أنفاسه بين يدي.. فرحت أبكي . عرفت أنّ أبي ضربه في اليوم السابق .

لم يخطر ببالي أن أدفنه يا لوسي مع أنني كنت أحبه وأحب الحيوانات كلها وربما أكثر منك، ولا أعرف ما الذي غيرني، كلنا نتغير يا لوسي، أنت أيضا قد تتغيرين! ذات مرة أرغمنا أبي أنا وأخي أن نجهز على كلب بعد أن أطلق عليه النار. كم كان بشعاً أن نجهز على كلب اخترقت عنقه رصاصة ولم يمت. لقد اتهم ذاك الكلب بأنه ابن ذئب، فقد ادعى أحد الرعاة أنه سطا على قطيعه ليلاً واختطف شاة. غير أن أبي لم يصدق، ونحن أيضاً لم نصدق ولا سيما أنه ليس في الإمكان تمييز الذئب من الكلب خلال الليل، وذات يوم شاهدنا الكلب يهاجم قطيعنا في عز الظهيرة، غير أنه لم يكن يعض الأغنام، كان ينقض عليها ويحاول طرحها أو سوقها أمامه كما يفعل الذئب، وهي تهرب منه دون أن يؤذيها. لم يكن الأمر في رأيي أكثر من مداعبة لم نعتدها من الكلاب وخاصة مع الأغنام التي لا تحتمل مداعبات كهذه.

شك أبي في أمره وصمم على قتله. أطلق النار عليه مساء اليوم ذاته. أصابه في عنقه. كبا الكلب على وجهه وأطلق عواءً مفجعاً جعل كل كلاب المنطقة تنبح عواءً له. وحين حاول أبي الإقتراب لإسكات نواحه والإجهاز عليه، فز ولاذ بالفرار وهو يطلق نواحه وعواصه المفجع. وحينئذ طلب أبي إلينا أن نلحق به ونجهز عليه. لم نقدر على مخالفته، رغم أن الدنيا ظلام وليس بإمكان المرء مشاهدة اصبعه، وقد أطلق أبي النار على الكلب في مكان مضاء.

أخذ أخي مصباح البيت وعدونا خلف الكلب متتبعين نواحه فيما أبي

يعدو خلفنا، ابتعد قرابة نصف كيلو متر وانقطع صوته. تبعنا على ضوء المصباح آثار دمه .

وجدناه مختبئا في كهف. صرخ أبي من خلفنا (بالحجار عليه بالحجار) ورحنا نلتقط الحجارة ونرجم الكلب من باب الكهف دون أن نصيبه بحجارتنا، فقد راح يثب مذعورا من حائط إلى حائط مما دفع أبي إلى توجيه سيل من الشتائم البذيئة لنا (يا اولاد ... اضربوا يكسر ايديكم، يا خسارة الخبز فيكم)! وحين انطلق الكلب بشكل وحشي في اتجاهنا واندفع من بيننا كلمح البرق إلى خارج الكهف. جن أبي ولم يترك شتيمة في جعبته إلا وكالها لنا .

راح الكلب يعدو عبر واد سحيق ونحن نتبع أثره إلى أن نزف دمه وسقط أرضا. لحقنا به. كان يحتضر. ومع ذلك أصر أبي أن نجهز عليه بالحجارة. لم أذعن له. انها لا عليه هو وأخي إلى أن عملا فوقه رجما!!

آه يا لوسي حزنت على ذاك الكلب، فهو أقوى كلب شاهدته في حياتي. كان بحجم جحش، ويصرع عشرة كلاب إذا ما تشاجر معها، ولم تنجح الذئاب في اختطاف شاة من قطيعنا خلال وجوده، ومداعبته للقطيع لم تكن كافية لإثبات التهمة التي أطلقها الراعي، ثم ألم تكن هناك طريقة لإعدامه غير هذه الطريقة التي أعدم بها؟

لوسي !ستأتين في المساء أليس كذلك؟ ستاتين حتى لو اقتنعت انني شرير ومجرم وسأقص عليك عشرات القصص عن الحيوانات! يا إلهي كم لدي منها !

سأحدثك عن الأغنام وعلاقتي بالأغنام وكم كنت أحبها. أصحو من نومي عليها وأسرح طوال اليوم معها، ولا أغفو إلا إذا نامت الحملان بين أحضاني وأحاطت الأغنام بفراشي. وسأحدثك عن كلب حيدر حيدر وكيف طبقتة وسأحدثك عن قطة البناء التي عشقتني وسأحدثك عن

قطيع خالد الذي مات بالسم، وقطيع حسن الذي فتكت به الذئاب، وقطنا الذي عبر النهر وعاد إلى الضفة الغربية، أما أهم القصص التي سأرويها لك فهي قصة الكبش مرداس الذي ربيته على يدي ليكون فحل الفحول ويسفد عشرات النعاج في اليوم!

رغم أنني كنت طفلاً إلا أنني كنت راعياً ماهراً يا لوسي. تعلمت العزف على الآلات الشعبية بسرعة قياسية حتى أروق في عيني الأغنام! فرحت أعزف لها في المرعى إما على الناي أو على الأرغول والمجوز، أشنف آذانها فتمرح وتنتشر على السفوح وبين الأخاديد لترعى، وكلما ابتعدت عن صوت الموسيقى راحت تعود إليه ثانية، كنت أطوعها على أنغام الموسيقى، فتمنحني حليبا لذيذا من ضروعها مباشرة، كنت أرضع الحليب رضعاً مع طعام غدائي، أستلقي تحت الشاة وأمسك ضرعها ثم أتلقمه بفمي وأرضع جرعة تبلل لقمة الخبز التي في فمي، وتظل الشاة واقفة دون حراك إلى أن انهي غدائي وأنهض شبعاً! كانت الأغنام بمثابة أمهاتي بالرضاعة، ولا أظن أنني أصبحت عازفاً على الآلات الشعبية إلا من أجلها، ربما لأفيها شيئاً من حق أمومتها عَليّ! أنا ابن الأغنام يا لوسي، ابن الجبال والبوادي والشقاء، ولست الآن إلا ابن النكبات، ابن الثورات المهزومة، الثورات المجوفة، ثورات الخيبة .

لا تغضبي مني يا لوسي وإذا ما أتيت مساء سأقص عليك قصصي لعلك ترضين علي! ذات يوم ولدت نعجة يا لوسي. صحيح أنني كنت طفلا دون الخامسة عشرة، إلا أنني تعلمت ذلك من نعومة أظفاري، كنت أتولى توليد اكثر من مائة نعجة وماعز في العام. ولم يكن لدي غرفة عمليات بيطرية أو أي مكان للتوليد، فالمخاض يدهم الشاة وهي في المرعى، أو وهي في المهجع، تحت المطر أو في الصحو، في الليل أو في النهار، وينبغي

علي أن أظل يقظا دائما. أسوأ أيامي يا لوسي هي التي يلد فيها الكثير من الأغنام بعيدا عن البيت، ويكون الطقس فيها عاصفاً، إذ علي أن أنتقل من شاة إلى أخرى، وما أن تلد واحدة حتى أنقلها إلى مكان يقيها المطر والبرد. وإذا ما تعسرت ولادة شاة، فإن يومي سيتحول إلى جحيم لا يطاق . ينبغي علي أن أجزم أن الولادة الطبيعية مستحيلة، والعملية لن تكون سهلة، فأي خطأ قد يؤدي إلى نزيف يتسبب في موت الشاة، ولا بد من استعدادات مهمة لإجراء العملية، كأن استنجد بأحد الرعاة ليرعى قطيعي خلال العملية، وأن أبحث عن صابون وزيت لغسل يدي ودهنهما، إذ يتوجب علي أن اولج اليمنى في رحم الشاة لإخراج الحمل، والمهمة الأعسر عندما تكون يدي داخل الرحم، فإذا ما أخطات في تحسس جسم الحمل وتلمس جدران الرحم فإنني لن اتمكن من إخراج المولود بسهولة. وحالات تعسر الولادة هذه تحدث كثيراً إذا ما كانت الشاة حاملا بتوأم أو أكثر، أو إذا كان وضع الحمل مقلوباً أو معكوساً .

ذات مرة ولدت نعجة أنجبت أربعة توائم يا لوسي، مات واحد وعاش ثلاثة، وهذه حالة نادرة بين الأغنام، وفي المساء علي أن أحمل المواليد جميعها، على ظهري، تحت إبطي، على عنقي، وعلى كتفي، وبيدي، وأمهاتها تعدو خلفي وثغاؤها ورغاؤها يصم الآذان .

المهم يا لوسي أنني ذات مرة ولدت نعجة تدعى الغراء. أنجبت توأماً. كانت النعجة ضعيفة وهزيلة لكبر سنها، نفقت بعد الولادة بعدة أيام ، فاضطررت إلى تربية التوأم الذي كان عبورة (أنثى) وخروفاً (ذكر).

أطلقت على العبورة اسم ندى وعلى الخروف اسم مرداس . كنت دائماً أطلق أسماء بنات البلدة على الأغنام يا لوسي، وكنت أحب هذه الأسماء بقدر ما أحب الأغنام والفتيات، الفتيات اللواتي كانت مشاهدة سيقانهن

تطير عقلي، عكس الفتيات شبه العاريات اللواتي أشاهدهن اليوم على المسابح.

أطلقت على الاغنام أسماء كثيرة يا لوسي، مثل: وردة، طرفه، سارة، حنة، ثريا، ذوابا، تخلة، عيدة، فضة، مريم، نوارة، ندرة، والعديد من الأسماء التي يعتبر اليهود معظمها عبرية يا لوسي، أجل عبرية يا لوسي، تصوري؟!

المهم يا لوسي. أحببت ندى ومرداس وربيتهما على يدي. كنت أجعلهما يرضعان حليب أربع نعاج يومياً (خلسة عن أبي طبعا) وعندما فطمنا الحملان والسخال لم افطمهما، وظللت أرضعهما الحليب إلى ان باتا عملاقين، كنت بالنسبة إليهما بمثابة الأم، فكانا يتبعانني دوماً، وكنت دائماً أداعبهما وأقبلهما، وعندما رأى أبي مرداس عملاقا، قال هذا الخروف يصلح مرياعا للقطيع، ويجب أن نخصيه، فنحن لسنا في حاجة إلى كبش طالما لدينا كبش جبار، جننت يا لوسي. سيخصي أبي العجيب هذا مرداس الذي غدا جزءا مني، ليحوله إلى كبش ذليل ويرغمني على ترويضه ليغدو تابعا لي ونائبا في قيادة القطيع، <لا> صرخت في وجه أبي (ليس في وجهه تماما وليس بصوت عال) ومع ذلك زجرني قائلاً (انت بتصرخ في يا ولد؟!) فقلت بعد أن خفضت صوتي أكثر (مرداس سيكون كبش القطيع، وسيحل محل أبيه دهمان، ألا ترى بوادر الفحولة تلوح بين عينيه ؟!) وأمعن أبي النظر وراح يتأمل مرداس ويتفحصه، فوافقني الرأي للمرة الأولى والأخيرة !وبهذا أعفيت مرداس من الخصي! غير أن أبي أصر على بيع دهمان لأننا لن نعود في حاجة إليه. ودهمان كبش عظيم يا لوسي ومن سلالة عريقة، ولي معه ذكريات كثيرة، بعضها مؤلم وبعضها جميل، ولا أحبذ بيعه، رغم أنه كبر وشاخ. أحسست أنه من العار أن نبيعه بعد أن أمضى مع القطيع هذا العمر. لم أفلح يا لوسي، فما أن تأكد أبي

من فحولة مرداس بعد بضعة أشهر، حتى باع دهمان.

باعه لينضم إلى قطيع لا يعرفه، وأهل لم يألفهم. لن أنسى حزنه وغضبه حين كتفه الرعاة واقتادوه عنوة، فرحين بفحولته الفذة، فيما أبي يغتبط بالمبلغ الكبير الذي قبضه ثمناً له.

في الإخصاب المقبل كان مرداس قد بلغ، وغدا حجمه هائلاً. في بعض الأحيان كنت أخاله قطعة من جبل تنتصب على أربعة قوائم رخامية. وكان له قرنان حلزونيان غليظان يفلقان الصخر. وحين أقبل موعد الإخصاب راح يدور بين النعاج ويتشمم رائحتها لتقبل عليه وتمتثل له، غير أن وقت الإخصاب لم يكن قد حل تماماً بعد، مما أثّر على طباعه وسلوكه، فراح يطارد النعاج لسفدها عنوة، وإذا لم تمتثل نعجة له. كان يهاجمها بضراوة، فأهرع لإنقاذها وأنا أصرخ به :(مرداس مرداس ارتدع يا مرداس) كان يهابني فيتوقف عن لكز النعجة بقرنية، وحين أصل أمسك النعجة من رأسها وأداعبها. أقول لها (ولك ارضخي له، إذا لم ترضخي سيقتلك يا مجنونه، ثم أين تجدين فحلا مثله ؟ كفاك حماقة) وكان يستغل اللحظة التي أمسك فيها رأس النعجة فيشب عليها شامراً إليتها بذراعه مطبقاً على حقويها. ولم تكن ثمة قوة في الأرض قادرة على إفلاتها من بين قائمتيه، ثم يندفع إلى الخلف ويطعنها بشدة مطلقاً سبيلها وهو ينتشي بكامل الذروة، تترنح بضع خطوات وقد تقوس ظهرها وراح يتكور مستشعرة متعة طاغية، وهي تفقد توازنها وتكبو على وجهها. وحين كان يفعلها في مكان منحدر كانت النعجة تتدحرج لبضعة أمتار !

حل الإخصاب في قطيعنا قبل أي قطيع آخر يا لوسي وحين اشتمت كباش الرعاة رائحة الخصوبة تعبق من قطيعنا تركت قطعانها وتمردت

على رعاتها وجاءت تسعى إليه أملا في تحقيق رغباتها وغرائزها، وهنا كانت المذبحة المروعة يا لوسي، المذبحة التي تكهنت بها منذ أن شاهدت بعض الكباش تترك قطعانها وتتسلل إلى قطيعنا. أنذرت الرعاة غير أنهم لم يذعنوا لي، ثم إنهم لم يتمكنوا من ردع كباشهم.

كان مرداس محاطا بعشرات النعاج التي راحت تتحرش به وتتملس منه وتتمرغ عند أظلافه أو تدور من حوله، أو تصطف أمامه مديرة إلياتها له، منتظرة دورها ليسفدها. وكان ما أن ينزل عن نعجة حتى يشب على أخرى، فلم يتنبه لثلاثة كباش تسللت إلى القطيع وأخذت تطارد النعاج. تنبه للأمر بعد لحظات، فقد كانت النعاج المخصبة تهرب من الكباش الأخرى إلى ناحيته آملة أن يفسدها، فلم يتنبه إلا وكبش يتودد على نعجة على مسافة أقدام منه، توقف للحظة يستطلع ما يجري وكأنه غير مصدق ما تراه عيناه. سمع جلبة في ناحية أخرى من القطيع، فأشاح نظراته ليشاهد كبشين آخرين، وقبل أن يقرر ماذا سيفعل شاهد كباشاً أخرى تهرع من نواح مختلفة، وهنا أدرك أن قطيعه أصبح عرضة للإنتهاك من الكباش الغريبة . صرخت به مستحثاً نخوة الشرف العشائري يا لوسي (عرضك يا مرداس ينتهك أمام عينيك، حريمك وطأ مخادعها الغرباء! باطل عليك باطل !) انتفض مرتين أو ثلاث مرات...

شاهدت جسده يهتز، وحين كان أقرب الكباش إليه يعتلي ظهر نعجة تراجع بضعة أقدام إلى الوراء وانطلق نحوه، نطحه ليقذف به بضعة أقدام من فوق ظهر النعجة . لم يثن عليه، تركه مطروحاً على الأرض وانطلق نحو كبش آخر، جندله بنطحة واحدة وراح يعدو نحو كبش ثالث، غير أن الآخر شاهده يهرع نحوه فتحفز لمواجهته، كان ثمة شبه كبير بينه وبين مرداس، فأيقنت أنه جاء من ظهر دهمان . صرخت بمرداس (هذا

أخوك ابن أبيك دهمان ، لا تؤذه لكن احذر منه) . غير أن مرداس لم يذعن لي وانقض على أخيه. أحدث التقاء قرونهما واصطفاقها انفجاراً أجفل الأغنام، فراحت تخلي الساحة لهما لتشكل ما يشبه الحلقة من حولهما. لم يتأثر أي من الكبشين من جراء النطحة الأولى، تعاركا في مكانهما. كل واحد يحاول أن يدور حول الآخر ليسدد له نطحات جانبية. أفلح مرداس في تسديد بعض النطحات الجانبية لأخيه، غير أنها لم تكن فعالة، فقد واظب الأخ على الدوران من حول مرداس محاولا أن يفرض عليه المواجهة من الأمام لتمرسه على النطاح وجها لوجه. فهو أكبر من مرداس بعامين على الأقل، كما بدا من حجم قرنيه الهائلين. ولا شك أنه تمرس كثيرا على النطاح بعكس مرداس الذي لم يتمرس عليه إلا قليلا لصغر سنه. وكنت قد دربته بضرب قرنيه من الأمام بحجر كبير، وبمصارعته دائماً، وكان دائماً يتغلب علي، فلم أتمكن يوما من لوي عنقه، رغم أنني كنت أتمسك بقرنيه بكل قوتي. وحين جربنا أنا وأخي أخفقنا، وكذلك أخفقنا حين حاولت وثلاثة رعاة، أمسك كل اثنين بقرن، إذ لم نزحزحه من مكانه قيد أنملة. ولم يمل عنقه ولو بقدر شعره .

كان يثبت في الأرض وكأننا نصارع صخرة هائلة. أو كان مرداس يفرح ويزهو بنشوة النصر علينا نحن معشر البشر، فلا أجد إلا أن أحضن رأسه وأقبله . ولم يكن أبوه دهمان أقل قوة منه .

هرع الرعاة وراحوا يتفرجون على الصراع بين الأخوين، فيما كانت كباشهم تتسلل إلى القطيع وتتعارك بدورها أو تشب على النعاج مستغلة انهماك مرداس في المعركة .

صرخت بالرعاة (إن حدث سوء لمرداس سألعن آباءكم، وإن حدث شيء لكباشكم ستتحملون المسؤولية وحدكم) والحق أنه لم يكن في مقدور

أحد أن يفض النزاع بسهولة، ثم إنهم لم يكونوا متخوفين مثلي أنا، الذي أعرف ماذا فعل جد مرداس ذات يوم، فقد شق رأس كبش من منتصفه كما تشق البطيخة !

ورغم كل ثقتي بمرداس وقوته إلا أنني كنت خائفاً عليه أيضا بقدر ما أنا متخوف منه يا لوسي .

ظل مرداس يراوغ محاولا الإبتعاد عن مواجهة أخيه، غير أن أخاه وبخبرته الطويلة فرض عليه المواجهة، حين ابتعد بضعة أمتار وأقبل عليه كالسهم . صرخت به (مرداس سيقتلك أخوك إن لم تتحفز للنطاح) ولم يجد مرداس مفراً من الصدام، شاهدته يثبت قوائمه في الأرض ويتحفز، وحين وثب أخوه في الفضاء لينقض عليه، وثب بدوره ليلتقيا على ارتفاع يقارب المتر عن الأرض. صرخت(الله معك يا مرداس ، أفديك بدمي يا مرداس) رغم أنني أعرف أن الكبش الآخر أخوه.

فرقعت قرونهما عند اصطدامها وأحدثت صوتاً مرعباً، وحين سقطا على الأرض ترنح مرداس وكبا على وجهه في حين ظل أخوه منتصباً .أحسست أن أمعائي تتمزق. صرخت بالرعاة (ابعدوا كباشكم قبل أن تقتل الكبش) وحاولوا قدر استطاعتهم، غير أنهم لم يفلحوا في الفصل بين الكبشين، وأنا حاولت بدوري حين رفعت عصاي وهرعت نحو أخ مرداس لطرده، غير أن مرداس الذي نهض من كبوته، مر من جانبي كالريح وهجم على أخيه بضراوة. صرخت (مرداس كفى) فلم يذعن لي. شاهدته يثب في الفضاء ويندفع، ولم يكن أخوه قد تحفز ثانية للمواجهة، نتيجة لتدخل الرعاة وتدخلي، فطرحه أرضا. وحين شاهدنا أنه لا مناص من حسم المعركة بينهما تركناهما ونحن نراوح بين الرفض والقبول، والعجز عن الفعل .

نهض أخو مرداس من كبوته وتقهقر قرابة عشرة أمتار إلى الوراء، في حين تقهقر مرداس قرابة ثلاثين متراً، وضعت يدي على قلبي، إنها النطحة الحاسمة، وإذا ما نجح فيها مرداس لن يهزمه كبش أبدا، توقف الكبشان وراحا يحدقان واحدهما إلى الآخر، وما لبثا أن انطلقا معا كجلمودين من الصخر. أحسست بقلبي يتوقف عن النبض يا لوسي، ظلا يعدوان إلى أن ضاقت المسافة بينهما بما لا يزيد عن أربعة أمتار، ووثبا كل في اتجاه الآخر، وقد ضما قوائمهما إلى بطنيهما، التقى رأساهما في الفضاء، محدثان دوياً هائلاً من جراء تصادم قرونهما. وحين سقطا على الأرض أخفيت وجهي بيدي كي أتلافى مشاهدة مرداس مطروحاً. ورحت أنظر من بين أصابعي خلسة. ولم أرفع يدي إلا حين شاهدته ينزل أرضا وهو ثابت كالطود، بينما كان أخوه مطروحا .

تراجع مرداس بضعة اقدام إلى الوراء وهم للإنقضاض على أخيه ليجهز عليه. صرخت به (مرداس كن شهما ولا تهاجم خصما طريح الأرض) وتلكأ قليلاً، لا أعرف فيما إذا أدرك ما قلته أم أنه تخوف مني. وحينئذ حدث ما لم يتوقعه أحد من الرعاة يا لوسي، فالكباش الأخرى التي كنا نظن أنها منشغلة بالنزو على النعاج والتعارك فيما بينها ولاهية عن المعركة، أقبلت من كل صوب لتصرع مرداس، فأطبقت عليه من كل جانب. لقد غدت هزيمته مطلبا لكل الكباش، ليخلو لها القطيع. يبدو أنها كانت تأمل من أخيه أن يهزمه، وحين أدركت أنه قد يخفق قررت مهاجمته بشكل جماعي. صرخت بالرعاة (لا غير معقول أن يهزم كبشي إثني عشر كبشاً، ابعدوا كباشكم، افعلوا شيئًا) ولم يحاول أحد جادا أن يردع كبشه. ثم إن الكباش بدت في ذروة هياجها وغضبها، وراحت تنقض على مرداس من كل ناحية، فيما هو يتلقى النطحات ويصدها،

وقد دبت فيه قوة خارقة، لم تكن الكباش تناطحه وجهاً لوجه لتخوفها من مواجهته. كانت تنقض عليه من الجانبين والخلف، وبنظرة خاطفة منه كان يعرف الكبش القوي المتمرس على العراك، من الكبش الهزيل الجبان، فيهمل هذا ويتصدى لذاك، أيقنت أكثر من أية مرة سابقة أنه يجيد العراك الأرضي إلى حد مدهش يذكرني بخبرة أبيه دهمان الفائقة. لم أدربه على هذا النوع من العراك، غير أنه كان يصارع خرافاً من عمره، وعندما شب، تعلم بعض الشيء من أبيه دهمان قبل أن يبيعه أبي. ولم أفكر يوماً أن هذا التمرس المحدود كاف لأن يخوض معارك طاحنة كهذه! ولم أجد نفسي إلا وأنا أزغرد مطلقا الزغرود تلو الزغرود لأشجع مرداس وأثير حماسه، راح يكيل النطحات بسرعة وخفة هائلتين، يسدد طعنة بإحدى قرنيه إلى خاصرة الكبش فيجندله، ومن ثم يميل على جنبه ليواجه الكباش التي تهاجمه من الطرف الآخر .

صرخت والكباش تطبق عليه (مرداس ستصرعك الكباش، أفديك بعيوني يا مرداس، شد الهمة يا مرداس) ولا أعرف كيف شاهدت الكباش تتجندل على جانبيه يمنة ويسرة، فيما بعضها يولي الأدبار، وصوت الرعاة يصرخ بي (كبشك هزم الكباش يا ابن أبو الجدايل وتخاف عليه؟!) لم أذعن لهم .

وكان للمعركة أن تنتهي عند هذا الحد يا لوسي لو لم ينهض أخوه من كبوته التي دامت لبضع دقائق، ويعود ثانية للصراع، وهنا لم أعد قادرا على البقاء متفرجا، فأشرعت عصاي وانقضضت على أخيه لإبعاده، غير أنني فوجئت بمرداس يهاجم بضراوة كما في السابق. صرخت به (مرداس كفى، ستهزم هذه المرة، لقد تعبت) فلم يذعن لي، وراح يكيل النطحات الجانبية لأخيه، فيما أخوه يراوغ ويبتعد ليفرض

عليه المواجهة. كم هو عنيد أخوه يا لوسي، يبدو أن ثقته بنفسه كبيرة، فقد أطاح به أرضا ورآه يهزم أحد عشر كبشاً ومع ذلك يصر على حسم المعركة حتى النهاية. وقبل مرداس التحدي وراح يبتعد إلى الوراء. كانت القطعان تنتشر على قمة هضبة فسيحة بعض الشيء. ابتعدا (أحدهما عن الآخر) قرابة مائة متر وانطلقا. أحسست أن هذه قد تكون النطحة الحاسمة فعلا. لم أعد قادراً على مشاهدة قوائم مرداس نظرا للسرعة التي انطلق بها، بينما كنت أشاهد قوائم أخيه تماما وهو ينطلق، وحين وثبا في اتجاه بعضهما والتقت قرونهما في الفضاء، وجدت نفسي والرعاة نخر أرضا من جراء الصوت الذي أحدثاه.

سقط الكبشان أرضا. عدونا نحوهما. سبقت كل الرعاة لأطمئن على مرداس، وحين اقتربت منه، بدا لي أنه في غيبوبة، لكني لم أر أي دماء أو جراح تنزف من رأسه، فأشحت نظري إلى أخيه لأرى الهول، فقد انفلق رأسه من النصف كما تنفلق البطيخة. صرخت(لقد قتلت أخاك يا مرداس، قتلت أخاك يا قابيل) !!

أطبق الوجوم على وجوه الرعاة، فيما كان مرداس ينهض ويتابع بحثه عن الكباش التي هرب بعضها، فيما ظلت الأخرى تشب على الأغنام مستغلة الفرصة.

وحين رأته مقبلا راحت تهرب من أمامه مخلية ساحة القطيع. كنت أظن أن مرداس سيتركها إلى حال سبيلها طالما أنها هربت، غير أنه لم يفعل، لقد دبت فيه شراسة مخيفة، وراح يلاحقها عبر السفوح والأخاديد، إلى أن أثخنها بالجراح، وألحق بها هزيمة منكرة !

كنت أرقبه من بعيد تخوفا من سطوته وخوفا عليه، فقد يقذفه راع بحجر، وقد يتدربأ عن سد صخري، أو مكان وعر فيقضي نحبه. سأموت

حزنا عليه، إذا لم يقتلني أبي .

كنت منزعجا وحزيناً بعض الشيء لمقتل أخيه. شاهدته يعود بعد أن شتت الكباش في الجبال والأودية. أدركت انه ظمىء، أخذت مطرة مائي وأسرعت للقائه. كان يلهث بسرعة والعرق يتصبب من كافة انحاء جسده، نزعت الكوفية ورحت أجفف بها عرقه، متفقدا جسده، كان مصابا بجراح خفيفة، وثمة كدمات بين قرنيه وفي وجهه، وما أن استراح قليلا حتى رحت أسقيه الماء من يدي .

كنت فرحا بنصره وآسفاً لمقتل أخيه. همست له (أخوك يا مرداس ، كيف تقتله يا كلب !!) لم يذعن لي، كان ما يزال يلهث من جراء التعب . انصرف الرعاة خلف قطعانهم حاملين الكبش القتيل على حمار. كانوا جميعا آسفين ونادمين لمقتل كبش من أفضل كباش البلدة، وليس في إمكان أي راع الإستغناء عنه. بل إن جميع القطعان في حاجة إليه. وكان في مقدورهم أن يفضوا النزاع بأي شكل، لو أنهم أدركوا عواقبه .

لم أنم تلك الليلة يا لوسي، فقد أمضيتها قلقا على مرداس تخوفا من إصابته بآلام داخلية، فنمت إلى جانبه، وكنت أستيقظ بين لحظة وأخرى لأطمئن عليه، ومما زاد من مخاوفي أنه لم يشب على النعاج منذ أن حدثت المعركة، وظل طوال الليل هاجعا مستكيناً منهكاً. وكنت قد سرقت في المساء قرابة رطل من الشعير– خلسة عن ابي– وقدمته له. لم اطمئن عليه إلا عند الفجر، فقد استيقظت ولم أجده إلى جانبي، درت بنظراتي بين القطيع. شاهدته يعتلي ظهر نعجة. وحينئذ فقط دبت الطمأنينة في قلبي. همست له (آه منك يا عكروت) ونمت بعمق، مع أنه الوقت الذي ينبغي علي أن استيقظ فيه. والحق أنني كنت أحسد مرداس يا لوسي، فهو لديه ما يسفده وينزو عليه، أما أنا فلم يكن لدي شيء. لا

شيء على الإطلاق. فأنا شبه خصي دون أن أخصى ! لقد خصونا ونحن في عز شبابنا، وليس ثمة أمل في استعادة فحولتنا! قولي لي يا لوسي (هل يخصى الرجال عندكم كما يخصون عندنا ؟!)

آه يا لوسي لم تنته قصة مرداس هنا، فقد جرى صراع فيما بعد لا يقل ضراوة عن هذا الصراع .

مرت عدة أيام وكباش الرعاة تتنشق عبق الخصوبة في قطيعنا دون أن تجرؤ على الإقتراب منه. إلى أن جاء يوم مهول خاض فيه مرداس صراعاً مريراً، فقد ظهر كبش جديد لا يهاب المنايا، واقتحم ساحة القطيع دون أن تهتز في جسدة خصلة صوف! كبش تمرس العراك وخبر الطحان وذاق مر الكر والفر، ترضخ له القطعان وتتحاشاه الكباش في الميدان .

كان الوقت صباحاً ولم ترتفع حرارة الشمس بعد، وقد انتشر الرعاة بقطعانهم على السفوح والجبال عازفين على آلاتهم الشعبية أو مرددين الأهازيج، وفيما كنت أجوب السفوح بعيني، ناظرا نحو مآذن القدس تارة ونحو هضاب جبل المنطار تارة أخرى، شاهدت كبشاً يرمح من بعيد، بالكاد حتى لمحته، فقد كان يعدو بسرعة هائلة، أيقنت أن وجهته ليست إلا قطيعي. أطرقت للحظات، وما لبثت أن عرفته من سرعته وحجمه. فليس هناك من هو بهذا الحجم ويعدو بهذه السرعة إلا هو. بدا كفارس يعدو على جواده لمواجهة خصمه. لقد هرب من قطيعه دون أن يتنبه له الراعي أو لم يتمكن من صده. (ماذا جاء به؟ الخصب؟ أم الحنين إلى القطيع والديار؟) وضعت يدي على صدري تخوفا وتحسباً لما سيحدث. ألقيت نظرة نحو مرداس، كان يشب على النعاج واحدة تلو الأخرى، صرخت به وأنا أهرع نحوه (مرداس توقف عن النكاح وتهيأ للنطاح، فقد غزاك فارس مهول له في العراك باع طويل، قرناه يهدمان الجدران،

وخلفه ثمانية أعوام من خوض المعارك، من صلبه أتيت، وبمعيته تدربت وشببت، إنه أبوك دهمان فارس الفرسان، فحل البوادي والبطاح وسيد القطعان والمراح) كان دهمان مقبلا من سفح هضبة، وغدا وقع قوائمه على الأرض مسموعا. ألقى مرداس نظرات خاطفة وهو يميل بأذنيه إلى الأمام ليحدد مصدر الوقع. رأى أباه يهرع من بعيد. يبدو أنه لم يعرفه. توسلت إلى الله أن يمنع نشوب معركة بينهما، ليس لأنني أحبهما وحسب ، بل لأنهما أب وابنه، ولي ذكريات مع دهمان لا يمكن أن أنساها ، فقد عشنا طفولتنا معا، وكنت أحبه كثيرا رغم أنه كسر أسناني ذات يوم، غير أن الحق كان علي يا لوسي، فقد تقنعت بكيس خيش وجئته من خلفه حبواً مقلدا الذئب حاملا بيدي قضيب حديد فيما كان هو يرعى الربيع، مددت القضيب من بين رجليه ووخزته في خصيتيه! آه يا لوسي، لا أراك الله ما أراني، فقد استدار دهمان وسدد إلى وجهي نطحة مرعبة، أطارت أربعا من أسناني وخلخلة البقية. ولولا هروع الراعي على صراخي لقتلني. نزفت الكثير من الدم، وظل وجهي متورما قرابة عشرة أيام. كنا صغيرين، لكنه كان أقوى مني بكثير. أحجمت عن اللعب معه بعد ذلك اليوم، إلى أن شب وبلغ قبلي. وراح ينط على الأغنام أمام عيني، بينما أنا لم أعرف طريقي إلى المرج بعد !!!

تحرك مرداس بلا مبالاة لمواجهته على مسافة من القطيع. تبعته. أمسكت قرنيه. قلت له (ولك يا جحش اسمعني! إنه أبوك وربما جاء مشتاقا إليك، ولا شك أنك تحتاج إلى مساعدته في هذا الزمن الغادر، فلا تضمه إلى أعدائك، لو كان معك في معركة الأمس القريب، لما كلفك النصر كل هذا الجهد. ولا تظن أن مواجهته ستكون سهلة، قد يقضي عليك، والله يعلم كم ميلا قطع كي يشفي غليله، رجائي ألا تعترض

طريقه، وأنا واثق أنه لن يتعرض لك بسوء.) الكلب! حدجني بنظرات لم أفهم معناها، غير أنني أحسست بأنانيته وغيرته القاتلة. صرخت به (ولك النعاج كثيرة وتكفي لك وله) لا أعرف فيما إذا فهم!

كان دهمان قد اقترب إلى مسافة قد لا تزيد عن المائة متر. أخذ مرداس يتفلت مني، وحين أدرك أنني لا أريد إفلاته تلافياً للمعركة، نتر نفسه من بين يدي واندفع كالسيل. كان قد طرحني أرضاً وكاد أن يدوس على بطني. صرخت (آه يا قابيل يا كلب، أتمنى أن تهزم شر هزيمة أيها العاق) ونهضت أعدو خلفه وأرقب ما سيجري.

أقبل كل منهما في اتجاه الآخر وكأنه صخرة قذفها بركان، وحين ضاقت بينهما المسافة جمحا وقد ضما قوائمهما إلى جسميهما ثم اندفعا كرمحين، وقبل أن تلتقي قرونهما في الفضاء، عرف واحدهما الآخر، فقد حاول كل بدوره تشتيت النطحة وإضاعتها، غير أن محاولة الأب كانت ناجحة أكثر من محاولة الإبن، الذي لم يتمرس الكر والفر كأبيه. فقد مال بكل جسمه إلى اليسار، ومن المفترض أن يميل هذا العاق بجسمه إلى اليمين، وهو ما أقدم عليه، غير أن زاوية انحرافه كانت ضيقة جدا، مما جعله يصطدم بإلية أبيه. ولو لم تكن زاوية انحراف الأب كبيرة بعض الشيء، لجاءت النطحة على بطنه أو حقوه، مما قد يعرضه لإصابة بالغة. وتبين لي بعد قليل، أن مرداس لم يكن جاداً في تشتيت نطحته، مما جعل فرحتي تذهب هباء.

وقع دهمان على جنبه (نتيجة لقوة النطحة والإجهاد الذي ألم به من جراء المسافة التي قطعها عدواً) فيما حط مرداس على الأرض منتصباً. صرخت (آه يا لئيم) وحين شاهد أباه مطروحاً دنا منه، غير أن الآخر نهض على الفور. قاربا رأسيهما وأخذا يتشممان واحدهما الآخر، وحينئذ

فقط أدركت ما جرى، فرحت أشكر الله .

دنوت منهما، هتفت لمرداس (ولك يا جحش، ألم أقل لك أنّه أبوك، ألم تفهم؟ أم أنك لم تسمع؟) وانصرفت عنه إلى دهمان الذي عرفني وراح يتمسح بي. عانقته ورحبت به بين أهله وفي دياره. كان متعباً ويلهث بشدة واستمرار وعيناه ترقبان القطيع بنهم، وقد تأججت في دخيلته فحولة طاغية، انتحيت من أمامه فاسحاً له الطريق، ممسكا بقرني مرداس. هجم على القطيع كذئب وراح يزأر كالأسد. شب على أول نعجة واجهها في طريقه. وحين أدركت الأغنام وجوده عرفته وهرعت نحوه. أخذت تتشمم رائحته وتدور من حوله .

كان مرداس يرقب ما يجري بعينين تقدحان غيرة. هتفت له (ولك إنه أبوك الذي أنجبك من صلبه، ولولاه لم تكن قد جئت إلى الوجود) العاق تأججت الغيرة في رأسه، خاصة وأن النعاج هرعت نحو دهمان وأحاطت به حين فاحت رائحة خصوبته لتعم المكان. ونظرا لأنه يمارس السفاد لأول مرة ذالك العام، فإنه كان ينزو على النعاج دون توقف، ويقذف بغزارة فائقة، على النقيض من مرداس الذي بدا موسمه منذ قرابة اسبوعين، وهدر الكثير من طاقته .

تأججت الغيرة في دخيلة مرداس إلى حد جنوني وهو يرى إناثه تستلب منه. لكزني لكزة خفيفة بقرنيه ليفلت نفسه ويندفع نحو دهمان. صرخت به (لئيم! سيحطم أنفك إذا تحرشت به ونغصت عليه يومه) وللأمانه أنه أبطأ من عدوه ليتيح لأبيه النزول عن النعجة التي ينزو عليها. وما ان نزل حتى باغته من الخلف بنطحة خفيفة في إليته، تنم عن تحرش متعمد أكثر مما تبيت نية الغدر.

(يا عيني عالفرسان يا لوسي) فقد التفت دهمان بطرف رأسه دون أن

يدير جسمه، وكأنه يقول لمرداس (عيب عليك) غير أن اللئيم راح يزيد من تحرشه واضعاً الشر نصب عينيه.

ابتعد إلى الوراء قرابة مترين وهجم مسدداً نطحة إلى حقو أبيه. لم يتحرك دهمان من وقفته وثبت قوائمة ليشتت تأثير النطحة. تراجع اللئيم قرابة ثلاثة امتار هذه المرة ليسدد نطحة أقوى، وحينئذ استدار دهمان وزجره بعينيه. أحسست به يقول له (كفى، إخجل من نفسك وابحث لك عن نعجة تعاشرها واتركني قبل أن تثير غضبي) صرخت به (دهمان خذ حذرك من هذا الإبن العاق إنه قابيل. لقد قتل أخاه وهزم اثني عشر كبشا منذ أيام، خذ حذرك منه ومرغ لي أنفه في التراب)!! واستعد دهمان للدفاع وكان بودي أن يبادر للهجوم. سمر أظلافه في الأرض وهيأ قرنيه لصد النطحة المرداسية. تلقاها وشتتها دون أن يتزحزح قيد أنملة من مكانه. (يا عيني عليك يا دهمان) وراح هذا العاق يبتعد أكثر فأكثر ويشن الكرة تلو الكرة، ودهمان يصد الهجمات دون أن يتحرك، ودون أن تؤثر فيه شيئا. انفضت الأغنام من حولهما مخلية لهما الساحة. صرخت بهذا العاق (كفى يا كلب لقد أرهقت نفسك يا جحش)! وأدركت أنني أنصحه دون أدري، بتغيير طريقته في الهجوم. وغيرها حقا. فقد أرهقه أبوه حين تركه يكر ويفر وهو ثابت في مكانه. يتصدى للهجمات بقرنين هائلين وخبرة فائقة ليبطل تأثيرها.

تخلى مرداس عن الكر من بعيد، بل وتخلى عن مواجهة قرني أبيه، وأخذ يسدد النطحات الجانبية، غير أن دهمان وبخبرته الطويلة كان يدور معه قدر الإمكان كي لا يتيح له أن يظفر به، واضعاً نفسه في مركز دائرة، تاركاً مرداسٍ يدور من حوله، وكلما انقض عليه وجد قرنيه في مواجهته. وبدا واضحاً حتى حينه، أن دهمان يكتفي بالدفاع ويتلافى الهجوم. صرخت

به (ألم يستفزك بعد هذا العاق يا دهمان، ألن تمرغ أنفه في التراب !؟)
ولم يستفز دهمان إلا نجاح مرداس في توجيه نطحة جانبية له، كادت أن تطيح به أرضا، غير أنه لم يعط المعركة الجدية الكافية. وكأنه ما زال يتعامل مع مرداس كإبن وفتى لم يتمرس العراك في الوقت نفسه. فقد تخلى عن التشبث بالأرض وتثبيت القوائم إلى الليونة والرشاقة، ومن الإكتفاء بالصد إلى المبادرة بالرد، فارضاً على مرداس النطاح المباشر، لكنه تجنب الدخول في مرحلة الردع التي لن يحسم الصراع غيرها كما بدا لي من هذا الإبن العاق.

راح دهمان يصد النطحات بقوة، وأجاز لنفسه أن يتقهقر بضعة أقدام إلى الوراء، في حين كان مرداس يتقهقر بضعة أمتار، وهذا يعني أن قوة النطحة المرداسية الناجمة عن بعد المسافة، أقوى من نطحته، غير أن ثقته بنفسه وبقوته، لم تجز له أن يتراجع أكثر من ذلك.

قلت لنفسي (سيبدأ الجد، هيا يا دهمان مرغ أنفه) مرت النطحة الأولى فالثانية فالثالثة، دون أن يبدو على أي منهما تفوق يذكر. أخذ دهمان يبتعد أكثر، غير أن مرداس كان يبتعد أكثر بدوره. هتفت لدهمان (هيا يا دهمان، واحدة دهمانية وينقضي الأمر، لكن إياك أن تقتله، سأزعل منك مدى حياتي)!

أللعنة! لقد عاد هذا العاق إلى الأرض ثابتاً. أعادا الكرة خمس نطحات متتالية، لم تحسم شيئاً. ولم يبد على أي منهما أي تراجع. وأحسست بدهمان يدرك أن ابنه ليس كما كان يتوقع، بل إنه أمام خصم عنيد وقوي، وإن كانت تنقصه الخبرة الكافية، فصمم على أن يناطح بجدية أكثر. تقهقر قرابة عشرة أمتار، فيما تقهقر مرداس قرابة عشرين متراً. انطلقا. وضعت يدي على قلبي. وثبا في الفضاء. التقيا. عادا إلى الأرض ثابتين.

ألّلعنة! تراجعا. أكثر من عشرين متراً تراجع دهمان هذه المرة. (رباه لقد دخل دهمان مرحلة الردع. لا بد من حسم المعركة مع هذا الإبن العاق! هيا يا دهمان !) ولم أستطع إلا أن أحذر قابيل الكلب، فصرخت به : (واحذر أنت يا لئيم فقد يشق رأسك نصفين هذا اليوم).

انطلقا ومن ثم طارا ليلتقيا (طاخ) ووضعت يدي على وجهي. وحين أدركت أنهما عادا إلى الأرض ثابتين، رفعت يدي ورحت أرقب تراجعهما. جن دهمان حقيقة وقد أدرك أنه أمام كبش شرس لم يصارع مثيلا له في حياته. تقهقر قرابة خمسين متراً، فيما تراجع مرداس قرابة ثمانين. صرخت (يا ألله كن معهما! ألّلعنة عليهما! سيقتلان بعضهما ! كرّا (واحدهما في اتجاه الآخر) الغبار يتطاير من خلفهما، والحصى يتناثر من تحت أظلافهما، خلتهما كصخرتين تتدحرجان من قمة جبل. قذفا نفسيهما في الفضاء. صرخت (ألطف يا لطيف) (ط....ا ...خ) وعادا إلى الأرض ثابتين كجبلين. رفعت عصاي وهرعت نحوهما (دهمان، مرداس، كفى) لم يدعنا لي. تراجعا وتراجعا.. لما يقارب المئتي متر تراجعا). اللعنة عليكما !يا رب السماوات الطف بهما، وكن معهما، ولا تدع أحدهما يقتل الآخر. وإذا كان لا بد من ذلك، فليقتل دهمان، فقد شاخ وكبر، وعاش حياته، ثم إنني لم أشق في تربيته، وهذا العاق ربيته على يدي، وإذا ما قتل، سأقتل نفسي قبل أن يقتلني أبي) !

انطلقا كرمحين، بل كسهمين، لم أكن قادراً على مشاهدتهما بوضوح لسرعة انطلاقهما، توسلت لكل الأنبياء والآلهة أن يحرسوهما. شاهدتهما يقذفان جسديهما في الفضاء ليصطدما كجبلين ويرتدا إلى الوراء ويسقطا.. يا ألله لقد وقع الإثنان أرضاً. هرعت نحوهما. وما أن اقتربت منهما حتى نهضا وراحا يتراجعان، هشت عليهما بعصاي وأنا أصرخ (كفاكما جنوناً،

ألّلعنة عليكما وعلى اليوم الذي ولدتما فيه!) لم يذعنا لي، ولم أتنبه لنفسي إلا وأنا اقف في نقطة التقائهما. رباه قد اقطع إلى نصفين إذا ما بقيت واقفا هنا. رحت أصرخ وانادي الرعاة في السفوح والجبال، غير انهم كانوا بعيدين يا لوسي. أخليت الساحة لهما، وأسلمت أمري إلى الله ربي.

لا أعرف كم ابتعدا هذه المرة، ابتعدا كثيراً كثيراً، بحيث لم يتح لهما المكان الإبتعاد أكثر، ليظل واحدهما في مواجهة الآخر. وحين انطلقا كانت أعصابي قد انهارت تماما، وتملكني الخوف، وجف اللعاب في فمي فانطرحت أرضاً.

شاهدتهما يصطدمان في الفضاء ويرتدان إلى الوراء من شدة الصدمة، ليقعا على ركبهما وينطرحا. وحين أدركت أنهما لن ينهضا كما في المرة السابقة، تحاملت على نفسي وهرعت نحوهما. لقد قذفتهما الصدمة بعيداً، بحيث فصل بينهما قرابة خمسة أمتار. هرعت إلى مرداس أولا. كانت الدماء تغطي وجهه وقائمتيه الأماميتين، والعرق يتصبب من جسده، واللهاث يندفع بتواصل من فمه ومنخريه، فيما جسده ينتفض بين لحظة وأخرى. رحت أصرخ وأبكي وأشتمه أيضاً وأنا أجفف دماءه (ولك يا حيوان يا كلب، يا لئيم يا حقير. قلت لك سيقتلك، رغم أنه عجوز!)

كنت أجفف دماءه وأنظر إلى أبيه كي لا يغار مني وينقض علي وعليه معاً. رشقت قليلا من الماء على رأسه وهرعت لأطمئن على أبيه. كان مطروحاً وقوائمه ممدة على الأرض، وحين شاهدني أقترب منه، انتفض ونهض، غير أنه ظل واقفا في مكانه، كانت الدماء تغطي وجهه هو الآخر، رحت أجففها له دون أن أدري ماذا أقول له. لم أكن غاضباً منه، ولم أعتبر ولو للحظة هروعه إلى قطيعه الأصلي غزواً، بل شوقاً وحنيناً. انتفض وتحفز وأنا أجفف

دماءه. وحين نظرت خلفي شاهدت<قابيل> ينهض ويحدجنا بنظرات ما زال الشر يقدح منها. سحبت خنجري من غمده وأشهرته وعصاي في وجهه (أقسم انني سأخوض المعركة مع أبيك ضدك هذه المرة، إذا ما تماديت في عدوانيتك أيها الوغد، ولتذهب إلى الجحيم) وكي أقنعه بصدق نواياي، أخذت حجراً وقذفته نحوه. تقصدت إصابته، غير أنه زاغ عنه! وحين أدرك مدى صدقي، جانبنا وانصرف على مهل نحو القطيع .

أحسست بدهمان يتحفز. طوقت عنقه بيدي اليسرى، ورحت أرش الماء على وجهه بيدي اليمنى، قلت له (يكفي، لقد ارتكبتما من الحماقة ما فيه الكفاية، يجب أن تترك قابيل اللئيم هذا، فهو قوي وملعون رغم صغره) بدا لي أنه فهم علي فتركته .

استدار وتوقف للحظات ينظر نحو مرداس دون أن يحرك بصره عنه، ومن ثم راح ينظر نحو القطيع بتمعن، ويتأمله نعجة نعجة، وتأمل المعز للحظات أيضاً .

بدا حزيناً وكئيباً، فهو مضطر وللمرة الثانية لأن يغادر القطيع الذي عاش معه سنين طويلة، وكان يتمنى أن يكمل حياته معه، لو لم يبعه أبي في المرة الأولى، ويتنكر له ابنه ويتصدى له في المرة الثانية .

إذن لا بد من العودة إلى القطيع الآخر. القطيع الغريب الذي لم يألف الحياة معه، ولم يألف راعيه، ولم يألفه الراعي بدوره. أحنى رأسه واستدار إلى الناحية التي جاء منها، وسار بخطوات بطيئة متعبة. رافقته لبضعة أمتار واضعاً يدي على ظهره. أوقفته لأعانقه. عانقته. همست له (لا تحزن يا دهمان وتحمل. تحمل أيها الفارس الشيخ، إنها الحياة هكذا، قاسية لعينة، ملعون أبوها، ملعون أبوها يا دهمان، حتى ابنك الذي أنجبته من صلبك، يقف ضدك فيها) ولحظتئذ سمعت صاحبه يناديني من قمة جبل

مواجه يسألني عنه، أجبته بأعلى صوتي (ها هو إنه عائد إليك) وأطلقت عنق دهمان ليتابع سيره. ظللت أرقبه إلى إلى أن مال خلف هضبة .

عدت إلى القطيع. نظرت إلى هذا الكلب مرداس، بل قابيل. قلت له: (لا تتكلم معي، ولا تنظر إلي، لن اطعمك شيئا بعد اليوم، لتذهب إلى الجحيم ! هكذا تفعل بأبيك أيها اللعين؟!) والحق إنني لم أخاصمه إلا لبضعة أيام !ظل مرداس يعاني من جراحه طوال اسبوع، وقد نجحت في إخفاء ما جرى عن أبي. وحين شفي عادت له قوته، ودب الإخصاب في جميع قطعان البلدة. راح الرعاة يقتربون بأغنامهم من قطيعي كي ينزو عليها مرداس، ولا سيما ذاك الراعي الذي قتل كبشه. قال لي: كبشك يا ابن أبو الجدايل قتل الكبش وعليه أن <يطرب> القطيع كله قلت له(حقك على راسي وعيني وعلى مرداس) راح مرداس يصول ويجول بين النعاج كالأسد الجسور، فتقبل الأغنام عليه وتلتف حوله، لتختلط القطعان وتشكل قطيعاً واحداً من آلاف النعاج. كان مرداس يشب في اليوم الواحد على عشرات النعاج، وفي كل مرة يشب على نعجة جديدة. وحدث أمر مهم يا لوسي. أمر لا يصدق أبدا، فلم يعد مرداس يغار كما في السابق، أو لنقل كما في بداية الإخصاب، فالنعاج غدت من حوله بالمئات، بل بالآلاف، وقد أطفا ظمأه، وخمدت الغيرة في دخيلته، غير أن الكباش لم تكن تجرؤ على الإقتراب منه، وتظل تمارس حقها في السفاد مبتعدة عنه قدر الإمكان. وكان هو ينظر إليها بين فترة وأخرى دون مبالاة، وكان يشاهد أباه بينها، غير أنهما كانا يتلافيان المواجهة .

أما ندى يا لوسي. شقيقة مرداس التوأم، فقد حيرتني، حيرتني تماماً، غدت نعجة بحجم نعجتين، وأخصب القطيع كله دونها، وكم حاول مرداس إرضاخها دون جدوى. صرخت بها ذات مرة (سيقتلك إن لم تذعني له، لن

يهمه أن تكوني أخته) لم ترد علي! وفيما كان يطاردها ذات يوم، هرعت وأمسكت بها، قلت له (هيا اغتصبها يا مرداس، اغتصبها هذه اللعينه، أولجه فيها، لعلها تذق طعم الحياة وتعرف قيمتها) اللعنة عليه ، لم أعرف انه سيفضها بهذه الوحشية، فما أن شب عليها رافعا إليتها حتى شدها إليه بكل قوة وراح يطعنها دون أي تمهيد، أطلقت رأسها حين تأكدت أنه تمكن منها. وما أن بلغ أوج الذروة حتى دفعها وأطلقها بالقوة التي شدها بها إليه، لتكبو على رأسها وقد تكور جسمها لشدة الذروة التي كانت تستشعرها، وما لبثت أن تدحرجت بضعة أقدام لشدة الدفعة المرداسية. صرخت (اللعنة قتلها) اطمأنيت حين شاهدتها تنهض وأنا أقترب منها. وحين تبعها مرداس ثانية، رضخت له راضية، بل متوسلة، حتى أنه لم يعد قادراً على اشباعها!

آه يا لوسي. إذا ما حضرت في المساء لن أحدثك عن النهاية التي آلت إليها (ندى) لأنني قتلتها! نعم قتلتها. غضبت ذات ليلة عندما سرحت الأغنام ليلا بحثا عن الكلأ على نور القمر، وهذا أمر ممنوع على الأغنام إذا ما كان الراعي نائما، فإذا ما هاجمها ذئب أو قطيع من الذئاب، سيفتك بها قبل أن يصحو الراعي ويبحث عنها، ليجد جثتها! وهذا ما حدث لقطيع (حسن) الذي كان يغط في نوم عميق، وحين استيقظ لم يجد ولا شاة حوله. كان الفجر لم يبزغ بعد، ولم يستطع العثور على القطيع إلا بعد طلوع النهار، ليجد جثثه متناثرة في واد على مسافة تقارب ثلاثة كيلو مترات. لن أنسى صبيحة ذلك اليوم حين هرعنا على صراخ النساء وهن يندبن القطيع في حين كان بعض الرجال يحملون الأغنام على الحمير ويعودون بها إلى العزبة لبيعها لحما، لاعتقادهم أن عضة الذئب حلال!! فالذئب يعض الشاة من حنجرتها يا لوسي، وهو لا يفتك ليشبع كمعظم الحيوانات، بل ليقضي على القطيع كله إذا ما أتيح له ذلك .

ثمة تخوف آخر على القطعان من الرعي دون يقظة الراعي، وهو وجود حقول وبساتين مرشوشة بمواد سامة حتى لا يقترب منها أحد! وهذا ما حدث لقطيع خالد وفي عز الظهيرة، فقد كان خالد يرعى قطيع معزه على مقربة من حقل ذرة. دهمه النعاس وغفا حين كان مستلقيا إلى جانب القطيع. وحين استيقظ من غفوته وجد الأغنام ترعى في حقل الذرة. هرع وأخرجها، لكن ما أن مرت بضع دقائق حتى بدأت الأغنام تتلوى وتثغو وتقع أرضاً وهي ترفس بقوائمها في لحظات احتضار.

راح خالد يصرخ، كنت أرعى قطيعي في سفح مواجه، رحت أصرخ بدوري وأنادي الرعاة و الناس ليمدونا بالحليب والمحاقين. كان يوماً رهيبا يا لوسي .

هرع أبي ورحنا نحلب من أغنامنا ونهرع نحو قطيع خالد. وكان رعاة كثر يحلبون أغنامهم ويهرعون. الحليب يقاوم التسمم. كنا نحقن الحليب حقناً في أفواه الماعز، وهناك من كانوا يدلقونه في فم المعز دون محقن. لم أتمالك دموعي وأنا أرى إلى صراخ النسوة وندبهن وهن يلجن الوادي الذي كانت تتناثر فيه الأغنام. كانت أم خالد تشق ثوبها عن صدرها وتطلق شعرها وتشرع في نتفه أو تلطم بيديها على صدرها ورأسها وهي تردد نادبة ذاكرة المعز، كل عنزة باسمها (ويلي عليك يا العطراء، يا حسرتي عليك يا الصبحاء، ألله يكون معك يا الدرعاء، وحنا بعدكن ما لنا حياة يا عيوني) أفلحنا في إنقاذ بعض الأغنام ، لكن أغلبها نفق .

في يوم مقتل ندى، كنت متعباً يا لوسي، وقد أحجمت الأغنام عن الرعي خلال النهار نتيجة للحر، وعندما برد الطقس ليلا ، نهضت من مهجعها وانتشرت تبحث عن الكلأ. كنت أغط في نوم عميق. استيقظت على صوت الأجراس المعلقة في رقابها عندما انقلبت على جنبي بعد فترة

من انتشارها. كانت قد ابتعدت عني. نهضت مذعوراً ورحت أعدو في اتجاه صوت الأجراس وأنا أنعق بأعلى صوتي طالباً إلى الأغنام العودة حالا! راحت الأغنام تهرع عائدة وهي متخوفة من غضبي الذي ليس له حدود أحيانا. وما آن أقبلت علي حتى واجهتها بوابل من الحجارة والصراخ، راحت تعدو أمامي عائدة إلى المهجع، وأنا أضربها بكل حجر تطاله يدي، ولم أعرف وأنا في ذروة غضبي أنني التقطت حجراً كبيراً وقذفته بكل قوتي نحو مجموعة من النعاج لأصيب نعجة في جمجمتها، شاهدتها تقع أرضا وتهمد في مكانها. هرعت إليها. لم تكن إلا ندى يا لوسي، وقد أصاب حجري اللعين مقتلاً منها. صرخت مستنجدا بالله دون جدوى. وحين رأيتها تحتضر أيقنت أنه لم يعد ثمة أمل في حياتها. سللت خنجري وذبحتها كي لا تنفق فطيساً .

آه يا لوسي. كانت قد أنجبت توأمين كأمها. وكانت أكبر نعجة في القطيع من حيث حجمها. وتحلب أكثر من ثلاث نعاج. رحت أندب حظي العاثر. ضربني أبي ضرباً مبرحاً. وطردني من البيت. مكثت عشرة أيام أتسكع في شوارع القدس، وأعمل في أعمال لم أعتدها يوما. عدت بعد أن أرسلت من يصالحني مع أبي. لقد قدر لي أن أربي التوأمين اللذين تركتهما، وكانا أنثيين، فأسميتهما (وردة) و(رسمية) . وهذه بداية قصة أخرى يا لوسي .

* * * * * * * * * * * *

لوسي؟ أين أنت؟ كم الساعة الآن. أنا لم آكل شيئا هذا اليوم يا لوسي، ولم أكتب شيئا. أكان على محمود التعس أن يموت هذا اليوم ؟

يجب أن أتصل بك ثانية يا لوسي. سأفتح اذني .آه ،أنت لست موجودة.

آه يا لوسي. ربما أصبحت شريراً، إذ ليس من المعقول أن لا تترك الأحداث التي مررت بها خلال أربعين عاما أية آثار سلبية على نفسيتي،

فهي أحداث مهولة يا لوسي، عشت فيها عشرات المجازر، وشاهدت مئات الجثث، ولا أظن أنني قادر على التأثر لموت قط حتى لو لم أكن أكرهه. مع أنني كنت أحب القطط أيضاً يا لوسي، أجل كنت أحبها كثيرا في صغري، لكن نحن لم نكن نقتني القطط والكلاب كي نلهو معها، وتؤانسنا في حياتنا، لا لا يا لوسي، فحياتنا مليئة بالشقاء وليس فيها هذا المتسع للهو والمؤانسة، كنا نقتني القطط لتصطاد الفئران، لا لتهرب منها مثل قططك! وكذلك لاصطياد الأفاعي، والكلاب لتحرس القطعان والبيوت من اللصوص والذئاب، ولم نكن نطعمها إلا الخبز الحاف، ولم تذق اللحم يوما، فما بالك بالفليه التي تطعمينها لقططك؟ وإذا ما قدمنا لها بعض العظام مرة أو مرتين في العام فإن ذلك اليوم يكون عيداً عندها. ربما لذلك كانت القطط تنشط في قتل الفئران والأفاعي كي تأكل اللحم الذي حرمت منه. أما الكلاب البائسة، فلم يكن أمامها غير فطائس الحمير والبغال والأغنام. أجل يا لوسي، ومع ذلك فإن قططنا كانت تؤدي واجباتها على أكمل وجه، أذكر أنه كان لدينا قط يصرع أكبر أفعى. ولا أظن أنني سأشاهد قطاً أشجع منه. وذات يوم أجدبت الدنيا يا لوسي فارتحلنا بالقطيع إلى شمال القدس. لم نجد القط عند رحيلنا فبقي في العزبة . عدنا بعد مضي ثلاثة أشهر . استقبلنا القط من فوق جدار العزبة وراح يموء مرحباً بعودتنا.

وفي مرة أخرى ارتحلنا بالأغنام إلى الضفة الشرقية، اصطحبنا القط معنا هذه المرة، غير أننا أضعناه عند عودتنا، فقدت الأمل في عودته لوجود نهر وبحر يفصلان بيننا وبينه . ورحت أسأل أبي عما إذا كان القط قادراً على اجتياز البحر أو النهر، فأكد لي أنه يجيد السباحة ويمكن له أن يجتاز النهر، واستبعد أن يجتاز البحر. ثم إنه قد يهتدي إلى جسر على النهر

ويعبره سيراً. وفي الوقت الذي كنت فيه فاقدا الأمل بعودته جاء يا لوسي. كنت أداعب حملا في مهجع الأغنام، حين سمعت مواءً خلفي، التفت فإذا به يقف على الجدار. هتفت فرحاً (بسبوس) وهرعت إليه. مددت يدي وأنزلته عن الجدار، ورحت أحتضنه وأملس على رأسه وظهره، كان فرحي بقدومه عظيماً يا لوسي.

ومنذ بضعة أعوام يا لوسي، عشقتني قطة دمشقية، كان يقتنيها بواب البناء الذي أسكنه. شاهدتها صدفة فيما كنت جالساً على مدخل البناء مع اللجنة المكلفة بشؤون البناء. كانت قطة جميلة جداً، سوداء وموشاة بالبياض عند صدرها.

جاءت إلي ما أن ناديتها. رحت أداعبها بكل نعومة وحنان، استرخت في حضني وهي تستسلم للمسات أصابعي التي كانت تحك تحت أذنيها وأسفل فكيها وعنقها. وحين فرغت من اجتماع اللجنة أصرت القطة على أن تتبعني. تبعتني حتى الطابق الثالث حيث أقيم، لم أكن راغباً في أن أدخلها البيت. اضطررت إلى مداعبتها أمام الباب. ألقيتها على ظهرها ورحت أداعب وأحك معظم أنحاء جسدها. استسلمت وارتخت حتى شعرت أنها داخت من المتعة. نهضت ودخلت بسرعة طالباً إليها أن تبقى في الخارج، وأقفلت الباب. وظلت تموء قرابة ساعة، ثم انصرفت.

في الصباح وجدتها تنتظر نزولي من البناء. تبعتني. هتفت لها (ولك يا كلبه وين بدك لاحقتيني)؟ لم تذعن لي، راحت تعدو من تحت السيارات الواقفة على جانبي الشارع لتلحق بي. وحين رأتني أستقل سيارة توقفت، وظلت ترقب ابتعاد السيارة. طال عشقنا يا لوسي لأشهر، لم يعد في استطاعتي دخول بيتي إلا بعد مداعبة القطة، لا أعرف كيف كانت تترصد قدومي، كانت تظهر لي فجأة. وراح الأطفال يتندرون بالصداقة القائمة

بيننا، بل وهناك من اعتبرها عشقاً، والحق أنني كنت حين أزجر القطة بعد فروغي من مداعبتها وإصرارها على الدخول معي إلى المنزل، أخاطبها قائلا: (بدك تفوتي معي جوّا؟ ولك يا كلبه بدك تفظحينا، ما بكفي إنهم بيقولو إني عشقانك؟) وكانت تموء متوسلة، غير أني كنت أغلق الباب في وجهها.

وجاء يوم لم أر فيه القطة. تجاهلت الأمر. ومر يوم ثان، ثم ثالث، كانت حاملاً، ربما ولدت. سألت البواب عنها، فقال أن سيارة دهستها !اللعنة يا لوسي. حزنت عليها كثيراً.

أرأيت يا لوسي؟ كنت أحب الحيوانات أنا الآخر، لكني، ربما تغيرت، لا لا أظن انني تغيرت، لا تغيرت، لماذا عاملتك بهذه القسوة إذن إذا لم أتغير؟ لا أعرف يا لوسي، صدقي أن الحيوانات ما أن تراني حتى تحبني، منذ بضعة أشهر، تحديت صديقي الروائي (حيدر حيدر)، وقلت له أنني سأذهب إلى بيته وأصطحب كلبه معي! قال لي سيأكلك! قلت سترى! وإذا ما جئت يا لوسي سأ روي لك كيف أكلت الكلب بدلا من أن يأكلني! مع أنه كلب من النوع الذئبي المرعب.

* * * * * * * * * * * *

كنت وزوجتي نتنزه على شاطىء طرطوس، وكان حيدر يقيم في كوخ بالقرب من الشاطىء. قلت لبيرجت، لنذهب لزيارة حيدر ونعلمه أننا هنا.

سرنا إلى جانب الشاطىء لعلنا نرى حيدر في البحر يصطاد سمكاً كعادته. لم نره. سألنا صياداً كان يخيط شبكته إلى جانب البحر. أخبرنا أن حيدر خرج من البحر وهو الآن في المتنزه القريب. ذهبنا إلى المنتزه، كان حيدر يجلس مع بعض أصدقائه، وكان المنتزه يعج بالمتنزهين. ما أن صافحنا حيدر وضيوفه حتى سألت عن الكلب. قال حيدر أنه يحرس

الكوخ . قلت سأذهب لأحضره. قال:سيأكلك !

قلت لست ممن تأكلهم الكلاب، وسترى. وحين انصرفت راحت زوجتي تصرخ بعربية مشوبة بلكنة أوروبية (محمود لا تجن) لم أذعن لها، وخرجت من المنتزه ميمماً وجهي شطر كوخ حيدر، سالكاً طريقاً شجرية .

لم أر الكلب من قبل إلا مرة واحدة، قبل أكثر من عام، حين زرنا حيدر ليلا مع بعض الأصدقاء. ولا أظن أن الكلب تنبه لي ليتذكرني. ولا أعرف على ماذا اعتمدت حتى بت مقتنعا أنني سأتمكن من إحضاره. أظن أنها واحدة من الحماقات التي ارتكبتها في حياتي. ماذا سأفعل؟ كيف سأحضر الكلب؟ في البلدة كنت أحمل معي بعض الخبز لكلاب الفلاحين، وما أن تهرع الكلاب نحوي حتى أشرع في إلقامها الخبز. لكن ماذا سألقم كلب حيدر وأنا لا أحمل شيئاً، ولا أظن أن الخبز سيجدي معه لو توفر .

لم أكن خائفاً على الإطلاق، وحتى حينه لا أعرف لماذا كنت واثقاً من قدرتي على تطبيق الكلب، دون أن أعرف كنه هذه القدرة. ولا أعرف كيف وجدت نفسي أنادي من بين الأشجار بصوت عال (فيدل فيدل فيدل) وهذا اسم الكلب.

لم أكن قد رأيت الكوخ بعد، وبالتأكيد لم يكن الكلب قد عرف بقدومي قبل المناداه .هو بالتأكيد سمعني الآن ويصيخ السمع لمنادتي، كلما اقتربت من الكوخ بخطوات متئدة .

شاهدت أعلى الكوخ يطل من بين الأشجار. أبطأت من سيري وأنا أنادي الكلب. غير أنني لم أسمع أي نباح ولم أر الكلب أبداً. عجيب! ماذا أفعل، أنا لا أريد الكوخ، فلماذا أتقدم أكثر؟ وبالتأكيد سمعني الكلب وربما تجاهلني .

أصبح قرابة نصف جدار الكوخ في مواجهتي. توقفت ورحت أنادي الكلب دون أن أتحرك. كان الكوخ يبعد عني قرابة أربعين متراً على الأكثر.

رحت أنظر تحت الأشجار لعلي أرى الكلب. لم أر شيئاً. رحت أعيد النظر وأدقق تحت الأغصان الممددة فوق الأرض. شاهدت رأس الكلب، كان يكمن بين الأغصان ملقيا رأسه على أماميته ويحدق نحوي بكل حدة بصره. لم أتوان على الإطلاق، فما أن التقت عيوننا حتى هتفت بفرح شديد وأنا اوميء بيدي (لك فيدل تع !) غير أن الكلب لم يحرك ساكناً، ولم ينبس بأي صوت. كررت النداء والإيماء !دون جدوى. لا شك أن الكلب متوجس مني. خاطبته بندم (أيه! ما بدك؟ باي، أنا راجع لعند حيدر. خليك هون واستدرت وقفلت عائداً. سرت قرابة ثلاث خطوات والتفت لأنادي الكلب ثانية. لكن دون جدوى أيضاً !

سرت خطوتين أخريين والتفت لأناديه ثالثة. وما أن ناديته بنفاد صبر مؤكداً له أنني لن أصحبه إذا لم يأت حالاً، حتى فز وانطلق نحوي كالسهم، استدرت بكامل جسدي وثبت قدمي في الأرض وأشرعت صدري له فاتحاً يدي على وسعهما. وثب نحوي من مسافة تقارب الأمتار الثلاثه، لتطوق أماميته كتفي فيما خلفيتيه تتشبثان بحزامي، الكلب وكأنه مصارع متمرس أي حركة تضمر سوءاً مني ستجعل رأسي أو عنقي بين فكيه! راح يتشمم وجهي يميناً ويساراً وكأنه سيقبل خدي فيما يداي تملسان على رأسه بكل حنو وأنا أميل برأسي أيضا لأعطيه خدي الآخر! استمر الوضع قرابة دقيقة، لا أعرف فيما إذا شم رائحة حيدر تنبعث مني، أو أنه اطمأن لي. نزل عني وراح يتشمم الأرض وما لبث أن سلك الطريق الذي سلكه حيدر كما يبدو، وهو الطريق الذي جئت منه. وحينها جزم أكثر أنني ساصحبه إلى صاحبه، هكذا بدالي حين راح يذرع الأرض مرحاً أمامي ويعود نحوي مبدياً فرحة هائلة! وما أن أنهى استقباله لي حتى راح يعدو أمامي في الطريق الترابي متتبعاً رائحة خطو حيدر .

حتى حينه يا لوسي لم أكن أعرف أن الكلب يستطيع أن يميز رائحة خطو صاحبه حتى لو خالطها آلاف الخطوات، وكنت من حماقتي وأنا فدائي في الأرض المحتلة أرد الآبار ليلاً وأدور حول البئر عدة دورات ليختلط وقع أقدامي بأقدام الناس فلا تستطيع كلاب الأثر متابعة ملاحقتي. ليتبين لي الآن وأنا أتبع كلب حيدر أنني كنت جاهلاً تماماً، فقد سبقني الكلب إلى المنتزه ودخل إليه وذهب في خط شبه مستقيم إلى مائدة حيدر، رغم وجود متنزهين على جميع موائد المنتزه. أية قدرة رائحية هذه التي عند الكلب، ثم هل تترك الخطوات في الصيف رائحة ما؟ وكيف يستطيع الكلب تمييزها من مئات الروائح الخطواتية؟

كان حيدر وضيوفه وزوجتي يحدقون إليٍ غير مصدقين، فيما أنا أقف ضاحكا مزهوا بنصري، رافعا يدي مشهراً ابهامي الأيمن دون باقي أصابعي. هاتفا لحيدر (آه كيف أنا وياك ؟) وما لبث حيدر أن هتف (يلعن أبوك راعي إبن راعي) !! أخذت طبقاً من اللحم المشوي ورحت أطعم ضيفي فيدل !

آه يا لوسي آه! يبدو أنك لن تأتي فعلا، إنها السابعة مساء، وكم بودي أن أتخلص من أفكاري الحمقاء وأنسى قطك. بل وأنساك أيضاً، ولأكن شريراً، ولأكن مجرماً، فلست الشرير أو المجرم الوحيد في هذا العالم المليء بالأشرار، بدءاً بي إذ شئت، مروراً بالملايين، وانتهاء بمغتصبي وطني وكل أصحاب السيادة! لم يبق أحد كما ترين، فالجميع أشرار. العالم كله أشرار يا لوسي. ومصيبة إنسان مثلك أنه قيض له أن يعيش في هذا العالم، وفي هذا العصر البذيء بالذات !

سأتصل بك للمرة الأخيرة يا لوسي. وإذا لم أجدك لن أتصل أبداً. سأشمع أذني تماماً وأبتلع كمية من الحبوب المنومة، وأطرح نفسي في

السرير إلى صباح الغد .

فتحت أذني. وفيما كنت أدير القرص، قرع جرس الباب. أقفلت الهاتف ونهضت متناسياً كل متاعبي وآلامي. فتحت الباب. كانت لوسيان بشحمها ولحمها. هتفت (لوسي) لم تتكلم. زمت شفتيها بحركة اشمئزازية ونظرت خلفها قائلة (معي هاريش) وهذا صحفي هندي، وهو صديق مشترك لنا (أهلاً تفضلا) دخلا. صافحت هاريش. مرحباً به بالإنكليزية. جلسا .

× × × × × × ×

لم استطع إخفاء ما كان يعتمل في نفسي طوال النهار. نظرت نحو لوسيان وهتفت:

< لو لم تأت لجننت !>

قالت :< أف هل أنت منزعج من أجل محمود؟ >

قلت :< لا أظن، لكن أشعر أنني قسوت عليك كثيرا. أنا آسف جداً لما بدر مني. ماذا فعلت؟ ؟< اتصلت بهاريش وجاء. ذهبنا معاً ودفناه>

< أين؟ في مقبره؟>

< لا لا، لم يسمحوا لنا أن ندفنه في مقبرة>!

< لماذا> ؟

< لأنه قط >!

< أين إذن دفنتماه؟>

< في صيدنايا >

< أف في صيدنايا؟ ألم تجدا مكاناً في دمشق؟>

< لا لم نجد>

< في جبل قاسيون مثلاً، أو في وادي بردى، أو في الغوطة >

< لا لا لم يخطر ببالي غير صيدنايا، ربما لأنها بلدة مسيحية >
< لكن القط ليس مسيحياً > !!!!!
< في الحقيقة احترت، القط يحمل اسماً اسلامياً، وأنا مسيحية، فاقترح هاريش أن نحرقه على الطريقة الهندوسية! فصرخت لا لا، هذا غير ممكن ! >
<لو كنت مكانك لقبلت، ففي هذه الحال تحتفظين برفاته أو تنثرينه في نهر بردى>
< لا لا! أنت مجنون! >
< لا لست مجنوناً! فالقط يحمل اسمي، وأرى أن الطريقة تليق بي>
< لا لا، لا أحتمل أن أراه يحترق أمام عيني، ولا أحتمل أن أحتفظ برفاته في بيتي .>
< تنثرينه في النهر إذن>
< لا لا، ثم إن نهر بردى غير مقدس>
< أوهو! نقدسه طالما أن رفات محمود سيذر فيه !>
< لا لا! لاأستطيع، ثم إننا دفناه وانتهى الأمر .>
< على أي طريقة دفنتماه؟>
< رسمت على قبره شارة الصليب>
< الصليب؟!>
< ماذا أفعل؟>
< أكان من الضروري أن تدفنيه على دين ما> ؟
< في الحقيقة لم أعرف، ولم يسبق لي أن دفنت قطاً أو غير ذلك>
< طيب، كيف دفنتماه؟ هل حفرتما له قبراً؟ >
< طبعا، لكن الأرض كانت قاسية، وأنا لم أحضر معي سوى ملعقة! انكسرت

على الفور! >

< ملعقة يا لوسي؟ تحفرين قبراً بملعقة؟>

< كنت أظن أن الأرض لينه >

< ماذا فعلتما بعد أن انكسرت الملعقة؟>

< أحضر هاريش من سيارته أداة حديدية حادة، وحفر بها القبر>

< حفر قبراً عميقاً وواسعاً؟>

< لا ليس كثيراً>

ولم أجرؤ أن أقول لها أن الثعالب ستنبش القبر وتفترس محمود. سألتها:

< وبماذا كفنتما المرحوم؟>

< بقميص أبيض، ووضعنا البلوفر فوقه>

< البلوفر؟ كنزتك الصوفية الجميلة؟>

< نعم وأهلنا التراب عليه، وأقمنا فوقه رجماً صغيراً من الحجارة>

< وكم استغرقت العملية؟>

< كثيراً، ذهبنا منذ الصباح، ولم نعد إلا الآن، تناولنا طعام الغداء هناك>

< هززت رأسي فيما ابتسامة لا تخلو من سخرية ترتسم على شفتي، ويبدو أن لوسيان لمست السخرية في ابتسامتي وهزة رأسي . >

تساءلت:< لماذا تضحك؟>

قلت:< أتساءل من منا المجنون، أنا أم أنت؟>

ويا ليتني لم أتفوه بهذه الكلمات. فقد غضبت لوسي، وأنا لا أريد لها أن تغضب، وراحت تتحدث بلهجة غلب عليها الإنفعال :

مجنونة؟! أنت قاس! قاس جدا! ولا تعرف أهمية محمود وزميله فرنسيس عندي .لا تعرف ولن تعرف! عندما مرضت، بقيت يومين طريحة الفراش، لم

أكن قادرة على النهوض، ولا يوجد من يقدم لي شيئاً .ولم يكن عندي هاتف في البيت. لم يحضر إلي أحد. ولم يسأل عني أحد. ولا أظن أن أحداً فكر في، أو سأل نفسه ماذا جرى لي، لا من الأصدقاء ولا من الصديقات. كلكم هكذا. لا تتعرفون على الإنسان إلا وهو قوي ويسير على قدميه، وعندما تحتاجون إليه. أما عندما يحتاج إلى أحد، فإنه لا يجد. فرنسيس ومحمود ظلا إلى جانبي ولم يفارقاني، مع أنهما اعتادا التجوال كثيراً خارج البيت. ظلا إلى جانبي على السرير، يموءان حزناً عندما أتألم، ويمرحان معي عندما تخف موجات الألم. يقبلان عنقي، ويعضان أصابع يدي مداعبة، وعند النوم ينامان إلى جانبي. لم يبتعدا عني للحظة. ونفدت لحمتهما ولم يسألاني عن الطعام. وفي اليوم الثاني شاهدا حالي تسوء كثيراً، خرجا من النافذة وراحا يموءان ويصرخان أمام باب البيت من الخارج، كنت أستمع إلى موائهما من الداخل. ظلا يموءان ويخرمشان على الباب لأكثر من نصف ساعة.

أدرك الجيران أن في الأمر شيئاً فهرعوا وخلعوا الباب، وجدوني في حال سيئة، فسارعوا إلى إحضار الطبيب .

عندما مرض محمود في الفترة الأخيرة، أهملته قليلاً، وكان يجب أن آخذ إذناً من عملي لأعتني به أكثر. لم أدرك أنه مريض جداً إلا بعد أن قال الطبيب أنه لم يعد ثمة أمل في شفائه. كم لمت نفسي. فلو اهتممت به منذ البداية لما مات. توقفت عن العمل لأظل إلى جانبه لعله يشفى. كان يتألم بشدة. عرفت ذلك من موائه والألم الذي كان باديا على وجهه. كم كان حزيناً يا حرام. لم يكن يأكل أو يشرب، وأنا أتوسل إليه دون فائدة ترجى. أحضرت له حليباً وعصيراً طازجاً. بالكاد حتى كان يبل ريقه. أحياناً كان يزحف من مكانه بضعة أقدام فأستبشر خيرا .

صباح اليوم، كنت جالسة إلى جانبه وأملس على رأسه وظهره، وفجأة تنشط

وبدأ يزحف، لا أعرف ماذا كان ينوي أن يفعل وإلى أين سيذهب، كي أحمله إلى المكان الذي يريد. تركته يزحف وأنا أحبو إلى جانبه. خرج من غرفة النوم إلى الصالون. أدركت أنه ربما يريد الذهاب إلى التواليت .حملته، فأخذ يموء بعصبية وألم. وما أن أعدته إلى الأرض حتى توقف عن المواء وتابع زحفه. ظللت أحبو إلى جانبه وأشجعه. عبر الصالون واتجه نحو التواليت. ظل يزحف إلى أن وصل. فتحت له الباب. دخل حبواً. نظر إلي وماء عدة مرات. أحسست أنه خجل مني، ولا يريد أن يتبول أمامي. أغلقت الباب عليه وعدت أنتظره في الصالون إلى أن يموء لي كي أفتح له .

انتظرته قرابة عشر دقائق. لم أسمع صوته. قلت لعله لم يقدر على المواء أو لم ينته بعد. نهضت لأطمئن عليه. هتفت له من خلف الباب< محمود، محمودتي> لم يمؤ، وحين فتحت الباب وجدته مضطجعاً على جنبه، دون أن تبدو منه أية حركة. تنبهت للبول على مقربة منه. انحنيت عليه وأنا أهتف< محمود، محمود ،محمودتي >لم يتحرك فيه شيء. تحسست جسده. أدركت أنه ميت. حملته إلى الصالون، أجلسته في حضني ورحت أبكي .

وراحت لوسيان تبكي فيما هاريش صامت، ولم أتنبه لنفسي أنا الآخر إلا وأنا أبكي.. لا أعرف ما إذا كنت أبكي القط، أم أبكي لوسيان، أم أبكي نفسي، أم أبكي الحياة برمتها...

كانون أول ١٩٨٦

آذار ١٩٨٨

****

النهر المقدس

قالت وردة العودة لعمتها وهي تضم طفلها إلى صدرها وصورة زوجها الذي داهمته الحرب وهو في عمان تمثل في مخيلتها :

هل سننزح إذا سقطت الضفة يا عمتي أم لا؟

أصلحت عايشة العلان من وضع جلستها فوق النول الذي طوته وأحضرته معها إلى الكهف ريثما تنتهي الحرب؛

لا يا عمتي لن ننزح واليهود لنا ولهم الله

- ومحمد يا عمتي؟ .

-له رب يرعاه يابنتي .

- وإذا بقي في عمان ولم يعد؟.

-سنرسلك إليه يا بنتي .

أعلن راديو العدو سقوط الضفة بكاملها. لم يصدق الناس النبأ. خر المئات سجوداً في كنيسة القيامة.. قال:المطران إيليا متضرعاً وهو يجثو أمام تمثال الرب، وعلامات الحزن والرعب ترتسم على وجهه <ربنا أنزل علينا رحمتك الطاهرة، وانقذنا من شر الأعداء، واحم ربنا ديارك الغالية>

ردد الناس من خلفه (آمين)

بسط الآلاف أذرعهم داخل المسجد الأقصى وشخصوا إلى السماء.. قال

الشيخ عبد الحميد متوسلاً: <ربنا اجعل من أمامهم سداً ومن خلفهم سداً، واجعل اللهم على أعينهم غشاوة علهم لا يبصرون>
ارتفعت أصوات تستغيث وتتوسل بخشوع: (آمين).
دوت طلقات الرشاشات في سا حة الأقصى.

ومرت بعض الطائرات المعادية على ارتفاع منخفض فألقت قنابلها وفتحت نيران رشاشاتها بشكل عشوائيٍ.. تناثرت أشلاء من أجساد بشرية. جمد طفل من الرعب لحظة ثم هرب تاركاً عند قدميه بركة صغيرة.. خرج آلاف البشر من الملاجئ والمنازل وأخذوا يعدون في اتجاه الشرق.. ذاك حمل أخفّ الأشياء، وذاك أضاع حماره، وذاك فقد محفظة نقوده.. ارتفع الصراخ والضجيج.. ذاك يسأل عن ابنه، وتلك تصرخ وتولولٍ، وهذه تمزق وجهها بأظافرها، وذاك رجل فقد صوابه وانهال على زوجته ضرباً بعصا، لأنها لم تحضر ما خف حمله كما أمرها، لاعتقادها أن الضفة لن تسقط.. وتلك امرأة كانت قد رتبت كل حاجياتها، فها هي تضع الدجاجات في لقن العجين وتحمله على رأسها، بينما الطفل يصرخ في الحذل المتدلي على ظهرها، وزوجها يحزم بعض الأمتعة ويحملها ويسوق الأطفال أمامه.. وتلك امرأة تنزلق قدمها فترسو بين صخرتين وتصرخ جاهدة لإخراج رجلها دون جدوى .

تنبه الراعي محمد عودة إلى الضجيج القادم من الغرب.. ترك القطيعٍ وصعد سفح الجبل ليتبيّن الأمر.. ذاك شاب يعدو، وذاك راع يسوق قطيعه هارباً، لكن من أين كل هذا الصراخ؟ وما لبث محمد عودة أن تبين الأمر إذ ظهر آلاف من البشر يركضون في الأودية وعلى قمم الجبال ومع السفوح.. انثنى إلى القطيع.. أخذ بيده صفيحة وشرع يضرب عليها فأجفل القطيع.. وما أن بلغ قمة الجبل وأحكم النظر حتى نزع كوفيته عن رأسه وأخذ يلوح بها وينادي بصوت عال :
يا ناس يا هيه، الضفة سقطت في أيدي اليهود، والناس هربوا. ها هم يهرعون

من الغرب. يا ناس ياهيه ..

وركض على قمة الجبل، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وكرر النداء وهو يلوّح بكوفيته وعقاله ويقفز عالياً، ثم يهوي على الأرض ويرفس بقدميه ويدحرج الحجارة الكبيرة من القمة..

سمع الناس نداء محمد عودة فخرجوا من الكهوف التي أووا إليها منذ إندلاع الحرب، وقد ارتجفت قلوبهم من الرعب والهلع، ودبّت بينهم الفوضى شأن القادمين من الغرب. ..

وقفت وردة العودة ترقب شقيقها الذي كان يقفز عالياً، وشاهدته وهو يتوقف عن القفز والنداء وينحدر مع الجبل جريا. ويدحرج الصفيحة خلف القطيع فتخرج قرقعة هائلة فتهرب الأغنام أمامه..ارتفعت أصوات تدعو إلى النزوح وأصوات إلى التريث لتبين الأمر، لكن محمد عوده بلغ الوادي فقطع الشك باليقين:<يا ناس اسمعوا>

فأنصت الكل وقد تحلقوا من حوله وهو يعتلي صخرة عالية: الدول العربية انهزمت، واليهود احتلوا الضفة والقطاع وسيناء والجولان، أنا لا أقول لكم إلا الصحيح، شاهدت النازحين من القدس والطور والعيزرية وأبو ديس بعيني هذه. ها هم يأتون من الغرب، يحملون عفشهم وأولادهم على ظهورهم ويهربون شرقا. إذا لم تصدقوا اصعدوا إلى الجبل وشاهدوا، ها هم يهرعون من الغرب كأفواج النمل.

زاد محمد عودة من الطين بلّة، فعلا الصراخ ودبّ الضجيج:

(هل سيفعلون بنا ما فعلوه عام (٤٨)؟ هل يحدث كما حدث في دير ياسين وكفر قاسم؟ سيحدث أكثر من ذلك.. النزوح يا ناس.. اكسبوا حياتكم وحياة أطفالكم.. إنهم يبقرون بطون النساء الحوامل، ويقطعون رؤوس الأطفال.. ألا تذكرون دير ياسين؟ آه، لو لدينا سلاح.. هرع الناس إلى ملابسهم وحاجياتهم

يحملونها.. تعثروا ببعض..

تلقت الطرمزية صدمة قوية من رأس أحدهم فنزلت الدماء من أنفها. وأفرغت جميلة الحمدان كمية من الطحين على قطعة قماش بالية وصرّت عليه... وأخذت فاطمة زوجة المجنون الأخرس علي الخطيب – الذي انخرس وجنّ بعد أن أحرق لسانه بنار البشعه – تضرب كفا بكف، ونظرت إلى عايشة العلان لتجدها جالسة في ذهول.. خطت نحوها:

- ما رأيك يا حجة هل ننزح أم لا؟

- لا والله يا بنتي ما دام النزوح موت وفي الحياة هنا موت، لا والله، نموت في بلادنا أحسن لنا.

ولم تجادل فاطمة في ذلك واعتبرت قول (عايشة العلان) القول الفصل.. وكان كل ما يقلق عايشة العلان ابنها محمد الذي قد لا يترك عمله في عمان ويبقى هناك، وتبقى زوجته وطفله هنا.. آلاف من البشر يتجهون إلى الشرق.. قوى واهنة، خطا ثقيلة.. ألسن جافة من الظمأ، أطفال يصرخون... كلاب تبحث عن نقطة ماء.. شمس حزيران تلقي بحرارتها على الرؤوس.. عرق يتصبب من الجباه.. شفاه تتقصف في ذبول.. عجوز يتدحرج من سفح جبل فيستقر على حصباء الوادي، يشهق ويشهق وينام نومته الأبدية.. أم تسأل عن طفلها المفقود فلا يجيبها أحد... طائرة تفتح نيران رشاشاتها ، تتهاوى جثث وتنهض أخرى متمايلة من ألم الجراح!! غراب ينعب في السماء.. بيدر قمح تحرقه قنبلة معادية.. جندي يغيّر ملابسه بملابس مدنية، وآخر يتخلى عن بندقيته، وآخر يبادلها بمطرة ماء. تنزل دموع وردة العودة. تنتحب بصمت... تنبعث اللاجئة المجنونة فجأة قادمة من أسفل الوادي ومتجهة إلى الغرب بعكس معظم البشر، ترتدي كيس الخيش إياه! ! وبشعرها الأشعث المنفوش، تدق صدرها بحجرين، وتغني بصوت مفجوع وقد نضبت الدموع من عينيها..

تقول عايشة العلاّن من قلب حزين: آه أيّتها الأم البائسة إلى أين تتجهين، بينما الناس يولون الأدبار؟!

تنظر الحاجة ذوابا إلى زوجها الهرم عوده، ثم إلى ابنها محمد وهو يقف إلى جانب القطيع.. يتجهم وجهها ومخيلتها تبحث عن مصير ابنتها بينما صراخ ينبعث من المغارة التي لجأت إليها عائلة (أحمد أبو الجدايل)

خيوط مبعثرة تمتد ما بين الضفتين.. امرأة تحمل طفلاً بيديها وطفلين على ظهرها.. شيخ يتضرع إلى الله.. سرب حمام يفر مذعوراً من أحد السدود .. تنعق بومة معلنة عن أبدية الحزن ! ! ! يرقص جنود الأعداء في حرم الأقصى ..يغتصب آخرون عذراء في كنيسة القيامة.. تتلون السماء بلون قاتم.. أطفال مدرسة الأيتام ينظرون بعيون حزينة حائرة .. حبال تمتد بين ضفتي النهر.. تهاجر طيور القطا في أسراب عن أرض الوطن.. يعبر الناس النهر متشبثين بالحبال.. تصرخ امرأة وقعت في دوّامة. جثة طفل تطفوا فوق ماء النهر.. يمتطي راع ظهر كبشه ويخترق به الماء خلف القطيع.. تسبح الأغنام، تجاهد وتصعد إلى الضفة الأخرى. حماريكتشف أنه يجيد السباحة.. قس يقف بعينين دامعتين.. دجاجات تسقط عن رأس امرأة فتطفو فوق مياه النهر وهي تستغيث!! يتبادل عارف ابن الشيخ على الأنخاب مع جنود الاحتلال.. يقذف النهر الدجاجات إلى البحر الميت.. يصعد كلب إلى الضفة الأخرى.. يوزع جنود العدو البسكويت على الأطفال النازحين! ! يسقط كيس طحين عن رأس امرأة في الماء فيستقر في قاع النهر...يعزف محمد عوده على نايه لحن النزوح، تتسلل النغمات عبر الجبال والشعاب.. تئن... تدمع عينا عائشة العلاّن، وتبكي وردة العودة زوجها في صمت..ترفع الحاجة صفية راية الاستسلام فوق مدخل المغارة..وتعلن الحاجة ذواباً عن الصمود حتى الموت... ويذرف العجوز عودة من قلب حطمته عذابات الحياة .

(٢)

تمر الأيام قاسية مريرة ولا يُسمع أي خبر عن محمد، وتظهر تجارة تهريب الناس إلى الضفة الشرقية.. كان الدليل يأخذ خمسة دنانير على الفرد في البداية، ومع مرور الأيام، ارتفع السعر إلى عشرة، ثم خمسة عشر وأخيراً إلى ثلاثين، من أين لعائشة العلان هذا المبلغ لتدفعه إلى مهرّب يصحب زوجة ابنها وطفلها إلى الضفة الشرقية؟

ينطلق لحن النزوح كئيباً مبكياً من ناي محمد عودة.. فتحمله الريح.. تتكسر ألحانه عبر التلال فيبلغ مسامع عائشة العلان.. تمر صور عشرات المآسي في مخيلتها ثم تستقر عند صورة محمد، فتأخذ بالغناء والبكاء وهي تنسج على النول. تختلط أغاني السفر بأغاني الغياب وأغاني المساجين بأغاني الندب:

يا ريتكم تروحوا وأعيد حنايا تروحوا سالمين وأعيد أنا منايا

يا ريتكم تروحوا وأعيد ملبوسي تروحوا سالمين تايقوى ناموسي

ونتو غايبين محرمة الغيّة لما تروحوا يا نور عينيّه

ونتو غايبين محرم اللبس لما تروحوا وتلفوا عالقدس

ونتوا غايبين محرم الملبوس لما تروحوا وتطلعوا من لحبوس

* * * * * * * * * * * *

بعيدين عني وأنا في العين ما ريهم وأنا اشتاق قلبي تني أحاكيهم

طارت الطيارة والهوا يوحي تيجوا بالسلامة يا بعد روحي

* * * * * * * * * * * *

يتسرب صوت عائشة العلان إلى مختلف البيوت... تذرف النساء الدموع ووردة تنتحب بصمت كعادتها وتحضن طفلها وتضمه إلى صدرها.. تنهض وتجلس صامتة بالقرب من عمتها ثم تأتي الحاجة ذوابا وتنضم إليهما... لقد بعثها غناء عايشة العلان.. تنهض وردة

لتجلسها مكانها:

- ابق جالسة يا بنتي، الله يجمعك بزوجك بالسلامة.

-الله يسلمك يا أمي .

-تجلس الحاجة ذوابا إلى جوار ابنتها .

كيف حالك يا عايشة؟ .

-الله يسلمك يا حجة .

-يا وليّة إلى متى الندب والنعي، الغائب علمه معه، إن شاء الله ما يصير إلا الخير، لماذا تعمي عينيك من البكاء؟

- أنا عارفة يا حجة، الله يرضى عنّه ويحن إليه ويسهل الصعاب في وجهه، لو إنه طمأنني بكلمتين عن حاله، ولو امرأته وابنه عنده، والله يا حجة لخفّت مصيبتي.. يا بني من يغسل له ملابسه، من يطبخ له، يا ترى كيف عيشته؟ جوعان، عريان، حي،ميت؟! الله أعلم ....

- الموت لاعدائه.. طوّلي بالك، الله مع الصابرين.

-إلى متى نصبر يا حجة؟ حرمنا من أولادنا وأهلنا. وتشتتنا وتفرقنا، وانهدّ حيلنا وحملنا، قلت له لما جاء آخر مرة قبل الحرب بثلاثة أشهر، يا بني خذ زوجتك وابنك معك، قال لي ريثما استأجر بيتاً مقبولاً يا أمي، ليرضى الله عنه ويحن اليه، كانت يده مجروحة من الأزميل ...

وانحنت عائشة على حجر مصقول كان محمد قد صقله بأزميله وشاقوشه لتستعمله أمه، فكانت تعمل منه مقعداً تارة، وتارة تضع عليه كؤوس الشاي والابريق .

انحنت عليه وأخذت تقبله وهي تقول لتسلم اليد التي دقّته ..

فكرت الحاجة ذوابا قليلاً وهي تحدق في وجه ابنتها ويبدو أنها وصلت إلى نتيجة ،

فقد نظرت إلى عايشة العلان :

عايشة؟

نعم يا حجة.

- معي عشر ليرات وسأجعل محمد الله يسلّمه يجلب عنزة إلى السوق ويبيعها، وحاولي أن تحصّلي باقي المبلغ، لنرسل البنت والولد إلى عنده، حتى إذا طال الاحتلال كل واحد يكون عند أهله ..

ارتسمت علامات العرفان على وجه عايشة العلان.- الله يكثر خيركم يا حجة، لكن لماذا هي الحياة إذا طالت أيام الاحتلال وظل أولادنا بعيدين ونحن هنا، الله يرضى عنّه، أنا قلت سيأتي ولن يظل هناك، وليحدث ما يحدث ..

- أتريدين من الشباب أن يأتوا ليذبحوا ذبح الغنم يا عايشة، انسيتي ما عمل اليهود في الثمانية وأربعين؟ لماذا نزح الناس؟ خوفاً من المذابح، وإلا ما كانوا نزحوا..

ووجمت عايشة العلان قليلاً وتوقفت عن النسيج .

- ومن المهرّب الذي سنرسلها معه؟ -

-سنرسلها مع عارف العلي، منذ الحرب وهو يشتغل في التهريب، لقد أرسل وأحضر الكثير من الناس .

-ألم تجدي غيره يا حجة، أنسيت الأعمال التي عملها عمه فينا، أيام الانكليز، صفيحة الماء كان يبيعنا أياها بخمسة قروش؟

ماذا سنفعل يا عايشة، مع من سنرسلها إذن؟.

- لا أعرف، الله يعيننا على الذين كانوا السبب.

* * * * * * * * * * * * * * * *

(٣)

اتكلي عليّ يا حجة، والله إنني سأضعها في عينيّ حتى أقطّعها نهر الشريعة... هل انقطعت الدنيا، باطل، مازال فيها خير يا حجة !

- كم تريد يا عارف؟ .

- والله يا حجة اسمعي لأقول لك .

- قول يا بني؟ .

- صلي على النبي .

- عليك ألف صلاة يا نبي .

- والله فقط من أجلك يا حجة، ومن أجل عايشة العلان .

- الله يسلمك يا بني ، كم يلزمك؟ .

- أنا أقبض خمسين دينار على النفر، إنما لكنّ أقدّم عيني، ويكفي ثلاثين للبنت وعشرة للولد، أربعين دينار .. والله هالمبلغ لا أقبله من أحد غيركن أبداً؟

أخرجت عايشة العلان ثلاثين دينارا من صرّتها وقالت:

- والله وحياة ابني الذي لا يوجد أعز منه في الدنيا، إننا لم نقدر أن نجمع هذا المبلغ إلا بطلوع الروح، ماذا أقول لك، باع أهل الحجة ذوابا عنزة بعشر ليرات، وأخذت خمس ليرات سلفة من الحاج علي العطا، لأنسج له مفرشين، واستدنّا من هنا وهناك حتى جمعنا الثلاثين ليرة.

امتعض عارف العلي قائلاً:

- والله لا يكفي يا حجة، لما كان ناس كثير، كان ذلك يكفي، إنما أنت عارفة، اليوم على الواحد أن يتحمل المخاطر ويمشي على دمه من أجل خمسة أنفار على الأغلب، وفي العودة لا يجد أحداً يحضره .

نظرت عايشة العلان إلى وجه الحاجة ذوابا ثم إلى وجه كنّتها:

- والله يا أخي ما معنا غيرها، والطفل ستحمله أمه، هل ستحمله أنت؟ -
-الله يسامحك يا شيخة، وهل أحمل غير نفسي، كل واحد يحمل نفسه والله يحمل الجميع، أنا أحاسب على النفر، على كل حال إذا كان هذا غير مناسب سلام عليكم...قد يرخص السوق، وأعاهدك يا حجة سأصحبها معي يومها، إنما الآن والله لا يناسبني هذا السعر!

وانثنى عارف العلي سائرا..

<الآن ستناديني الحجة وتقول إرجع يا عارف>

غير أن أيا من الحجتين لم تنده له .

(لكن كيف اترك هذا الغزال من بين يدي، غزال يا عارف غزال، لحم كالفستق المقشر، أرداف، آه، كيف تتركها؟ بشرفك ألا تقبل أن تصحبها، بلا أجر؟! آخ، سمكة يا عارف، ما فيها جنس العظام وأنت الصياد، لا أحد ينادي ارجع، إرجع هذا يكفي)

واستدار عارف العلي عائداً إلى الحاجة ذوابا وعايشة العلان .:

- لعنة الله على الشيطان، والله يعز علي أن أذهب وأترك البنت، وهذا الطفل الذي حرم من مشاهدة والده، وشأنكن عندي غير قليل يا حجة !!

- الله يسلم شأنك يا عارف، متى السفر يا أخي؟ -

- غداً صباحاً بعونه تعالى -

- خذ يا أخي -

وأخذت عايشة العلان تعدّ النقود في يد عارف.

* * * * * * * * * * * *

أقبل عارف منفرداً، فارتابت عايشة العلاّن أن ترسل ورده معه لوحدها.

- صباح الخير يا حجة.

-الله يسعد صباحك يا عارف، شايفك وحدك؟

- أي والله

-ما حدا معك؟

-الله يسامحك، أمن المعقول أن أسافر مع بنت لوحدها؟ لن تناسبني السفرة أبداً، معي خمس نساء، إنما تركتهن على الطريق ريثما أحضر ورده .

اطمأنت عايشة العلاّن لكلام عارف.

- متى تقطعون النهر بالسلامة إن شاء الله؟

-الليلة، وغداً في مثل هذا الوقت ستكون عند زوجها إذا سهّل الله

- إن شاء الله لن يأتي إلا التسهيل، وداعتك ورده يا عارف يا بني، أنا أضعها أمانة في رقبتك إلى أن تقطعها النهر وتركبها في تكسي، لا ترسلها لوحدها يا بني، وإذا وصّلتها لزوجها تكون عند الله فاعل خير.

- الوداعة على الله يا حجة، لا تهتمي للأمر، ورده أختي وأعز من عيني؟ -

- إذا كان في الدنيا خير يا بني... الله يسلم عينيك ويسهل دربك -

وانثنت إلى الخشّة وقد تناست كل الماضي الأسود لآل العلي... وجاءت الحاجة ذوابا لتودع ابنتها... صرتّ عايشة العلاّن بعض ملابس ورده وملابس الطفل وبعض ملابس محمد في شرشف كبير، وربطته من طرفيه بحبل لفّت عند منتصفه بعض الشرائط حتى لا يؤلم رأس ورده.. ووضعت صرّة صغيرة فيها قليل من الزيتون والبصل والخبز لتأكل ورده والطفل في الطريق، ولتطعم محمد من زيتون البلاد وبصلها وخبزها الذي خبزته بيديها.. كما وضعت مطرة ملأتها بالماء... ونهضت إلى كنّتها تقبلها مودعة:.

(الله يرضى عليك يا بنتي، سلمي على محمد وخذي بالك منه، إسهري على راحته يا بنتي ولا تناكديه. قبّليه عني يا بنتي، قول له أمك تقبلك، وما تنسي المحرمة التي وضعتها له يا بنتي.وضعت لك فيها

ليرتين، لتصرفي على نفسك إذا احتجت لشيء في الطريق.. قولي له، هذه المحرمة من رائحة أمك، وضعتها لك في الملابس.. اعتنوا بأنفسكم يا بنتي، الله يسهل طريقك، ويعمي عيون العدا عنك، ويجعل لك في كل طريق رفيق)

وأخذت تضم الطفل وتقبله بدموعها.. بينما وردة تودع أمها....

حملت وردة الصرّة على ظهرها وحملت الطفل بيديها وضمته إلى صدرها وانصرفت خلف عارف العلي وعبرات ساخنة تنحدر من مقلتيها.....

لاحقتها كلمات والدتها وحماتها... قالت الحماة: لا تنسي عنوان محمد يا بنتي، الله يرضى عليك ويحن اليك ويجعل الخير ما بين يديك، سلمي على كل الأهل والأحباب يا بنتي، قولي لهم أن عقولنا سارحة معهم في الليل والنهار، وتنتظر قدومهم .

وقالت الأم: الله يجعل طريقك سهل ما فيها وعر يا بنتي ويوصلك بالسلامة.

وكانت وردة قد ابتعدت فتوقفت المرأتان عن الدعاء وظلتا ترقبانها حتى اختفت خلف تلة مرتفعة.

شاهد محمد عوده شقيقته تحمل طفلها وتسير خلف عارف العلي فترك القطيع الصغير وهرع إليها والدموع تترقرق في عينيه:

مع السلامة يا أختي – وضمها إلى صدره وقبّلها ثم قبل الطفل– سلّمي على محمد، قولي له أخي محمد يعزف على نايه طول اليوم، يتذكرك مع كل طلوع شمس. واليهود اللعنة عليهم.. قولي له إنا لن نخاف منهم، وبعد وصولك أرسلوا لنا سلامكم بالإذاعة.

وعاد إلى القطيع بينما تابعت وردة سيرها خلف عارف العلي .

(٤)

يقصر عارف العلي من خطواته.. يسير إلى جانب وردة يختلس النظرات إليها (عينان فم، خدود، عنق، صدر، وردة إنها وردة فعلاً، من أسماها بهذا الاسم؟ تنزلق عيناه إلى أسفل، ينظر بعينين شبقتين إلى ردفين مكتنزين.. تجتاحه موجة من الشبق العارمٍ.. تطرق أسنانه.. ترتخي شفتاه ما الذي يمنعك من رفع هذا الثوب عالياً، لتملس على هذين الردفين، تغرس أصابعك فيهما.. تفرك لحمهما حتى يقطر الدم منه.. تضجعها هنا على حصباء الوادي.. تقلبها بطناً وظهراً.. لا يوجد غير الشمس والجبال والأودية، علها تصرخ؟ قد لا تقبل؟ ما الذي سيحدث بعد ذلك، هل تهرب وتعود إلى القرية؟ ثم تفضحك بين الناس، وتخسر كل تجارتك بعد أن تخسر ثقة الناس.. أم تغتصبها وتقتلها إذا حاولت الهرب.)

ويكبح عارف من جماح شبقه ويحاول أن يطرد سورة ردفيها من مخيلته.. ينظر إليها.. إنها تسير بصمت، وادعة، حزينة، بماذا تفكر؟ألا تفكر برجل يسير معها على انفراد بين هذه الجبال، ولم يشبع من النساء في حياته؟ سيما وأنها لم ترطب فخذيها منذ آخر مرة شاهدت فيها زوجها قبل ما يقرب من ستة أشهر.

<يا حبيبي يا محمد، هل سأشاهد طلعتك الجميلة؟ هل ستضمني في الليلة القادمة بين ذراعيك؟ لن أخجل منك. سأقول لك أني عطشى يا محمد، ضاجعني حتى الصباح، أروني، دعني أنتشي .. ستقول لي: يا سافلة هذا يكفي! وسأكتفي!! كيف ستستقبلني؟ أعرف أنك ستفرح كثيراً.. أنظر إلى فارس ما أجمله.. إنه صورة طبق الأصل عنك، نفس الأنف، نفس الذقن... أنظر إلى الغمازة في ذقنه.. لماذا لم تعد إلى الضفة بعد الحرب؟ فضّلت العمل في عمان. أما زلت تدق هذه الحجارة؟ هل

تستطيع أن تقول لي كم حجراً صقلت في حياتك؟ إنك تضحك.. طيّب بلاش، كم صخرة انهلت عليها بمهدّتك لتقسمها من نصفها وتحولها إلى حجارة مصقولة جميلة فيما بعد؟ أما زلت تعمل مع فتح؟ اطمئن لم أطلع أحداً على هذا السر، حتى أمي وأمك... لكن لماذا لم تأتِ؟ أليس النضال من هنا أفضل من النضال من عمان؟!>

تعبت يداها من حمل الطفل، رفعته إلى كتفها ونظرت إلى عارف علّه يساعدها في حمله.. تنبه عارف للأمر، مد يديه وتعمد أن يضع يده على كتف الأم قبل أن يأخذ الطفل من يديها:

<سأحمله عنك>

كانت وردة منهكة فلم تمانع في ذلك.. ولم تنتبه لليد التي ملست على كتفها، ثم انزلقت لتمسك الطفل من ذراعه.

صخور صوانية وسدود تمتد على جانبي الوادي.. حرارة الشمس مرتفعة.. تسير ورده إلى محاذاة الوادي علّها تنعم بشيء من ظل الصخور..

- تصوري يا ورده أن الانكليز قتلوا في هذا الوادي أكثر من مائة جندي تركي وعندما أمر منه في الليل، يا ساتر يا الله، شيء يجعل الرأس يشيب، يخرج مردة الجنود الأتراك ويأخذون بالرطن بالتركي بينما مردة الانكليز يردون عليهم بالانكليزي. ماذا أقول لك، أقرأ آية الكرسي، وأتعوّذ من الشيطان وأضع رأسي وأنام.. ليلة من الليالي صحوت على واحد منهم، وجدته يجلس عند رأسي ويأكل من صرّة طعامي.. سمّيت بالله وتعوّذت من الشيطان.. انشقت الأرض وابتلعته.. لا تخافي طالما أنا معك، ولاتهتمي للأمر.

ونطقت ورده للمرة الأولى مع عارف وهي تجاهد لتبعد مردته من مخيلتها:

-أين النساء اللواتي تحدثت عنهن؟

<ما أجمل هالصوت، من زمان أنطق يا غزال. خليني أسمع صوتك.>
- بعد قليل سنصل إلى مكان التجمع... ستجلسين هناك وسأغيب عنك قدر ساعتين وأعود بالنساء، موجودات قلت لهن أن ينتظرنني في مكان قريب.

ضم الطفل إلى صدره وضغط عليه وهو يتمثل والدته بين ذراعيه! غير أن صورة الأم لم تمثل في مخيلته جيداً، ثم أن الطفل لم يملأ حضنه... صار ملتصقاً إلى جانب ورده... اختلس نظرات جانية إلى ردفيها .. ترك فخذه تقترب شيئاً فشيئاً.. اصطدمت ركبته بفخذها.. تنبهت ورده واعتبرت أن ذلك قد تم دون قصد.

-أنت تعبت يا عارف، أرى أنك تصطدم بي؟
- لا، أعوذ بالله إنما نزل شعاع الشمس على عيني ولم أبصر أمامي..
-وهذه المردة التي تتحدث عنها؟
- ماذا أقول لك يا وردة، الواحد منهم بسم الله الرحمن الرحيم طول عمود التلفون..
- ألا يؤذون الناس؟
- لا يؤذون غير الذي يشتمهم أو يبغضهم، لكنهم يخيفون!!

دوت محركات طائرة مروحيّة قادمة من بعيد وكانت فرصة ثانية لعارف:

<اختفي يا وردة> ومد يده إلى خصرها وضمها إليه، وهو يلتصق إلى جانب صخرة ناتئة إلى جانب الوادي.... ظهرت الطائرة على ارتفاع منخفض، ولم تنتبه وردة لليد التي استقرت فوق ردفها..

مرت الطائرة ولاذت خلف الجبال.. تنبهت وردة ليد عارف تملس على ردفها صعوداً ونزولاً.. وأقنعت نفسها أن ذلك ليس مقصوداً، وأخذت

الطفل من يدي عارف واندفعت سائرة مع الوادي..

<لم تتكلم ، والله رضخت لك يا عارف... أصبر يا رجل سنصل إلى مكان التجمع... ما أجمل التعري على رمل الوادي تحت ظل الصخور... سأختبرها مرة أخرى، إذا ظلت ساكتة انتهى الأمر>

< من أحضرك يا وردة؟ جئت مع عارف العلي! مع عارف العلي؟ غير معقول ووصلتيني سالمة؟ لا يمكنني أن أصدق؟ لماذا ألست أنا التي أمامك؟ دعيني أرى! أي إرفع يدك يا سافل! كيف حال والدتي؟ تسلم عليك.. خذ نسيت... ماذا؟ أرسلت لك محرمة من رائحتها.

يا سلام .. والزيتون، ألن تأكل منه. سآكل. والخبز؟ لقد خبزته بيديها حتى يطيب لك أن تاكله! يا ألله ما أروع خبزك يا أمي. لا تبك أرجوك، لأنني بكيت طول الطريق. ألم تخافي؟ أكثر ما أخافني المردة التي حدثني عنها عارف العلي، وما عدا ذلك ما خفت. مردة؟! جان يعني؟ هكذا يقول. اوه، اتركينا من كل هذا الهراء، حدثيني عن القرية، عن ناي شقيقك محمد، عن والدتك عن صبايا البلد، عن اليهود، عن الحرب..!! اسمع يا سيدي أنا سامع... لم تحدثيني عن صبايا البلد؟ لن أحدثك. أيتها الغيورة. أنت تغار أكثر مني. صحيح .ضمني إليك. حبيبتي. حبيبي.>

* * * * * * * * * * * *

وصلا إلى مكان في الوادي حيث توجد بئر ماء... ويبدو أن أغناماً كانت تقيل في ذلك المكان، إذ ظهر بعض الزبل على مزبلة البئر و على صدره وإلى جانب الأحواض وفي المصفاة. وكانت الصخور العالية والسدود الصخرية تحيط بالمكان من كل جانب، وتلقي عليه ظلاً رطباً ساحراً.

قال عارف وهو يقف إلى جانب الحائط الصخري: وصلنا، سنرتاح قليلاً وسأذهب لأحضر باقي النساء، لن أتأخر عليك.

وضعت ورده الطفل إلى جانب حجر، وطلبت من عارف أن يساعدها في إنزال الحمل عن ظهرها.. وكانت فرصة أخرى غير متوقّعة أمام عارف، فوقف خلفها ملتصقاً. أمسك بالحمل عن ظهرها وأخذ ينزله.. أحست وردة بشيء جعلها تجزم أن عارف يتعمد التحرش بها!! ولم تنبس مفضلة التريث على فتح المعركة معه.

وضع عارف الحمل جانباً واستلقى على جنبه بينما جلست وردة خائرة القوى وكوّعت على حجر قريب منها.. كان الاجهاد ينهك قواها فأسبلت جفنيها..

<ما أجبنك يا عارف لم يبق إلا أن تمد يدك وترفع هذا الثوب إلى أعلى، وبعدها ينتهي كل شيء... ماذا تتوقع من امرأة خائرة القوى أن تفعل معك؟ وليست خائرة القوى فقط، ولم تشاهد زوجها منذ ستة أشهر.. لماذا لا تمد يدك يا حيوان، يا جبان، لماذا؟>

ومد عارف يدا مرتجفة.. استقرت على أعلى فخذ وردة المسبلة الجفنين.. فتحت وردة عينيها، نظرت إلى وجهه ،بدا الاحمرار وقد اندفع منه، وظهر الرعب مسيطراً عليه.. قالت بصوت لا يخلو من نفرة:

-ماذا تريد يا عارف؟

ارتعدت فرائصه..

- أنا ذاهب لإحضار النساء، خذي بالك من مردة الأتراك قد تخرج اليك!!

قالت بشيء من الاحتداد أيضاً:

لماذا لا تذهب، ومردة الأتراك لي ولهم الله..

والحقيقة أن حكاية المردة قد أخذت كل تفكيرها..

- أنا ذاهب لا تصرخي، أف ما هذه المرأة؟

أيقن عارف أن لافائدة ترجى من وردة، وأنها قد تكون على معرفة تامة

بنواياه. منذ أن لمس كتفها للمرة الأولى، وأنها كانت تكتم غيظها طوال الطريق.. ولم يفكر في أمر اغتصابها خوفاً على تجارته أن تبور وخوفاً على سمعته سيما وأنه من آل العلي الذين حملوا المشيخة أبا عن جد، ولهم مكانتهم بين العشيرة. كما أنه ليس بهذه الشجاعة؟؟ لكنه لم يقطع الأمل.

* * * * * * * * * * * *

<سأخبرك يا محمد.. ماذا؟ عارف وغد ابن وغد، اوه كنت أعتقد أنك ستخبريني عن صبايا البلد، ماذا فعل بك هذا الحقير؟ ألن تغار؟ اذا حدّثتيني عن صبايا البلد أولاً لن أغار... طيب سأحدثك.. زواهي ابنة حمدان أبو رطة خطفت.. خطفت؟ نعم.. خطفت؟ أعرف أنك كنت تحبها قبل أن تتزوجني.. خطفت راعي حامد دخيل.. كيف؟ طلب يدها فلم يقبلوا، فهربت إلى منزل حامد دخيل واطنبت عليه، ورجته أن يزوجها من راعيه.. تدخلت الحمائل والعشائر وزوجوها له بالقوة!! بالقوة؟ تقريباً لأن أهلها رفضوا أن يزوجوها من الراعي .. وماذا أيضاً؟ تلك زوجوها من رجل في السبعين، وتلك زوجوها على ضرة، وتلك انتحرت لأنهم لم يزوجوها من الشاب الذي تحب، وتلك وتلك.. تسألني عن أخبار البلد وبناتها وكأنك غبت عنها عشرات السنين... إنها كما هي لم يتغير فيها شيء. والرجال؟ اعتقل اليهود الذين وجدوا في بيوتهم سلاح، والذين ينتمون إلى الثورة والحزب الشيوعي.. بربك من اعتقلوا؟ اعتقلوا رزق أبوالجدايل!! ومحمود عايد، وعلي عبدربه، وعلي الخطيب.. والآن خبريني عن عارف العلي، هل مازحك؟ أكثر من ذلك.. وردة تقولين أكثر من ذلك؟ أكثر... قولي لي ماذا فعل هذا الجبان بربك؟ قلت له أن يساعدني في انزال الحمل عن ظهري و..... الحقير ابن الحقير أقسم

بشريـ أني سأعلقه في المكان الذي شنق محمد فضة نفسه فيه بسد العقاب، وأتركه معلقاً أبد الدهر.. اعتقدتها مجرد ممازحة في البداية أو شيء من هذا القبيل.. الحقير ابن الحقير، أخ.. ألن تهدئ من روعك يا محمد؟ كلا، لن يهدأ غضبي قبل أن أعلقه بالحبل لن يهدأ......>

* * * * * * * * * * * * * * * *

(٥)

صعد عارف إلى التلال، مر بموقع من جنود العدو، تتمركز فيه كتيبة من حرس الحدود.. تناول الشاي وتحدث مع الكابتن شلومو قليلاً وانصرف... كانت خمس نساء ينتظرن عارف في مكان وضعهن فيه... ثلاث منهن من قرية (أبو ديس) وواحدة من (الطور) والأخرى من (العيزرية) وجميعهن يرغبن في الالتحاق بأزواجهن الذين يعملون في عمان والكويت والسعودية.. باستثناء فتاة ديسية عذراء أرسلها أهلها إلى خطيبها الذي يعمل في الخليج.. وكانت إحدى النساء الديسيات، تصحب طفلها الذي لم يتجاوز العام بينما العيزراوية تصحب طفلة تقارب الأربعة أعوام، وأما الطورية فكانت تصحب طفلين، أحدهما في الثانية من عمره والآخر يقارب الخامسة... أما الديسية الأخرى فكانت عاقراً... سار عارف والنساء من خلفه، يحملن صررهن وأطفالهن، إلى أن بلغ وردة.. وقال لهن أن يأخذن قسطاً من الراحة قبل أن تغرب الشمس، إذ يتحتم عليهن أن يسرن حتى بلوغ النهر.

أسبلت الفتاة العذراء جفنيها، بينما استلقت المرأة الطورية وتنهدت من قلب مفجوع وهي تضم طفليها.. عرّى عارف في مخيلته النساء الخمس والفتاة وأخذ يقلبهن بطناً وظهراً..

* * * * * * * * * * * *

جنحت الشمس إلى الغرب، أخذت الظلال تغمر الوادي... أفاقت طيور الحجل من قيلولتها فانتشرت بين الصخور... وفرّت أسراب الحمام من السدود وأخذت تحلق في السماء وتحطّ على المروج.

قال عارف: انهضن يا بنات..

نهضت النساء. نفضن التراب عن أثوابهن وأخذن يطعمن الأطفال.

قالت وردة:

كم يبعد النهر من هنا؟

قال عارف:

اذا شددتن الهمة سنصل خلال ثلاث ساعات .

ونهض واقفاً.. حملت النساء صُررهن وأطفالهن وانطلقن خلف عارف بقوى واهنة ومئات الأفكار القلقة والهواجس تطرق مخيلاتهن..

××××××

<ما أوحش الجبال في الليل! والله إني لا أعرف لماذا هذا التعب والشقاء والتهريب ودفع النقود.. فلو قطعنا النهر في النهار أمام أعين اليهود ماذا سيفعلون بنا؟ ماذا يريدون غير أن نرحل عن بلادنا ونتركها لهم؟..>

ونظرت المرأة الطورية حولها علّ إحدى النساء تجيبها..

قالت العيزراوية:

- يا وليّة ألم تسمعي عن البنت العذراء التي اغتصبها حرس الحدود بعدما قتلوا شقيقها وتركوها ملقاة إلى جانب الوادي إلى أن ماتت وهي تنزف؟

وقالت الديسية العاقر:

- ألم تسمعن عن العائلة التي سلبوها نقودها؟

وأخذت كل واحدة تردد ما سمعته من قصص عن الناس الذين ينزحون أمام أعين جنود العدو. ولم تتفوه وردة بشيء إذ كانت منهكة والطفل يلتصق بصدرها منكمشاً كالقط، وعيناه تتلصصان ما حوله وقد أنهك ذراعيها.. وحسدت المرأة الديسية التي كانت تضع طفلها في الحذل الذي يتدلى على ظهرها. وتحمل صرة الملابس بيديها، لكنها

تراجعت عن ذلك بعد أن جزمت أن طفلها كبير ولا يستقر في الحذل إلا إذا نام.

كان طفل المرأة الطورية الكبير، يدرج إلى جانب أمه، بينما تضم شقيقه الصغير إلى حضنها، أما طفلة المرأة العيزراوية فكانت تدرج هي الأخرى، وتتعثر بين الفينة والأخرى وتقول لأمها:

-أين بابا يا ماما؟

تقول لها الأم إنه ينتظرهم على حافة النهر! وتكثر أسئلة الطفلة وتتكرر: متى نصل النهر؟ لماذا نسير في الليل؟ أين سننام؟ إذا صادفنا اليهود فهل يذبحوننا؟ تعبنا لو نستريح، أو تحمليني؟ عدا عشرات الأسئلة التي تدور حول اليهود والنساء اللواتي معها... فتحملها الأم وتطلب منها أن تسكت فتسكت! !

تعبت وردة وهي تنقل الطفل من كتف إلى كتف ومن يد إلى يد وتمنت لو أن عارف يدعهن يسترحن بعض الوقت، ونظرت إلى السماء فشاهدت القمر يطل من بين صخرتين عاليتين.

* * * * * * * * * * * * *

عرج عارف جانباً وأخذ يسير مع سفح جبل... التفت إلى النساء قائلاً:

- عندما نطل على السهل سنرتاح.

وفر سرب من طيور الحجل من أمامه فأحدث اصطفاق أجنحته صوتاً مرعباً... التصق الأطفال بأمهاتهم، وقف شعر رأس عارف واستنجدت الطورية بيسوع المسيح... أخذوا يصعدون مع السفح باتجاه الشرق، فانجلت لهم بعض التلال، وتمنت وردة أن يقرب الله من نهاية هذا الصعود إذ خارت قواها وباتت تشعر أن الطفل سيسقط من يديها.

ما أن أشرف عارف على التلال المنبسطة حتى أشار إلى النساء أن يلتقطن أنفاسهن، إذ ستبدأ المرحلة النهائية كما قال: تنفست النساء الصعداء واستلقين إلى جانب أطفالهن الذين هدّهم النعاس..أجسام منهكة. عطشى إلى الراحة، لكن من أين يا حسرة؟ يا ليت هذا الدليل يدعهن يأخذن غفوة، غفوة صغيرة يستردن أنفاسهن خلالها.

< خمس نساء وفتاة عذراء،وأنت والليل والسماء والأرض، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً.. تبا لك جبان، جبان، سيقتلك الظمأ ولن ترويه مدى حياتك.. قال لك شلومو ماذا لديك اليوم؟ قلت له خمس نساء وفتاة عذراء . قال لك هذا صيد دسم!! رفضت حرصاً على تجارتك وسمعة العائلة بينما صورة الفتاة العذراء التي ماتت من استمرار النزيف بعد أن قتل شقيقها واغتصبتماها وبعض الجنود تمثل في مخيلتك.. والآن ماذا ستفعل؟!! اقترب من هذه العذراء.. أنظر كيف تضطجع على جنبها. إنها ممتلئة .. تمدد خلفها، حاول أن تتحرش بها، أملس بيدك على فخذها.. جبان لا تستطيع أن تفعل ذلك.. إذن عريهن في مخيلتك وضاجعهن في آن واحد أيها الجبان، دعهن يستلقين على بطونهن تحت ضوء القمر.. هكذا.. يا سلام... إنها ليست المرة الأولى التي تعرّى فيها النساء على ضوء القمر، أنظر إلى سحر الأجساد المستلقية أمامك.. بمن تبدأ؟ بالعذراء؟ والأخريات؟ فيما بعد، ليكن! ما أجملك أيها القمر!! وما أجمل الأجساد عندما تتعرى على نورك! > تهرب الصور من مخيلته، يعود إلى وعيه... لا يشعر بأنه أروى عطشه... ينظر إلى النساء، يشعر بشبق كبير في داخله يدفعه إلى الحقد على النساء، ويندم لأنه لم يوافق شلومو على اغتصابهن... تنتابه موجة من الغضب... يحتضن رأسه بيديه ويصرخ بالنساء: انهضن! تنهض النساء وقد اعتراهن الذعر، ويصرخ الأطفال..

ينحدر عارف مع تلال منبسطة.. تحمل النساء أطفالهن وصررهن وينطلقن في أثره وهن يتساءلن في سريرتهن عن السبب الذي جعله يصرخ بهذا الشكل.. غير أن أيا منهن لم تكشف السبب في ذلك، وإن كانت وردة قد فكرت بأن لذلك علاقة بما حدث لها مع عارف قبل أن تحضر النساء..

تلال صغيرة وشعاب، ثم أرض منبسطة، السير هنا أفضل من صعود الجبال.. القمر أخذ يجنح إلى الغرب، قال عارف أنهن لن يعبرن النهر إلا بعد أن يغيب القمر.

* * * * * * * * * * * * * * * *

(٦)

يختفي القمر خلف الأفق الغربي، تغمر الظلال المنطقة... يخيم الظلام وتبدو أشباح أشجار الصفصاف والدفلى والعليق، تتحرك من بعيد. يلتفت عارف ويهتف للنساء أن يتبعنه ببطء... تتمنى كل واحدة منهن أن لا يصرخ إبنها في تلك اللحظات العصيبة.

<إنهم منا يا جماعة >!

كانت مجموعة من المتسللين العائدين تتجه إلى الغرب، وعندما شعروا بقدوم عارف والنساء كمنوا بين الأشجار.. وما أن عرفوا أنهم ليسوا من الجنود حتى قال أحدهم<إنهم منا يا جماعة> ونهض واقفاً من خلف شجرة عليق، فاهتز جسم عارف من هول الرعب ووقف رافعاً يديه!!

قال الرجل:من؟

قال عارف:صاحب !

- أي صاحب في هذا الليل؟

- من النازحين.

فقال الرجل: نحن من العائدين!!

اقترب عارف منه . شاهد خلف الشجرة مجموعة من النساء والأطفال والرجال..قال عارف مؤكدا:

- إذن أنتم من العائدين..

- أي والله لكننا لا نعرف الطريق!!

- ليست مشكلة سأدلكم!

وحتى لا يضيع عارف فرصة ثمينة، قد يقبض من ورائها مبلغاً محترماً، أعلن للنساء أن مهمته قد انتهت، وانثنى إليهن يهنئهن بسلامة الوصول. وبكل بساطة، أشار باتجاه النهر، وقال إنه ما عليهن إلا أن يقطعن هذه

المسافة القصيرة بين الأشجار ليصلن إلى النهر، ويعبرنه بكل هدوء. إذ أن المياه قد لا تصل إلى ركبهن.

شعرت وردة أن حملاً ثقيلاً قد أرتفع عن كتفها، غير أن الشرط كان أن يجتاز النهر مع النساء، ويؤمنهن إلى عمان أو يدلهن إلى أقرب طريق للمواصلات على الأقل. ويبدو أن عارف قرأ ما يدور في رؤوس النساء..

- ألا تصدّقن؟ النهر على مرمى حجر وما أن تعبرنه حتى تجدن الفدائيين والجيش في طريقكن، لا تخفن أن تضعن..

أرغمت وردة نفسها على الاطمئنان لكلام عارف كما أرغمت نفسها مسبقاً على التصديق أن تحرشاته عفوية بريئة!! واندفعت أمام النساء فتبعنها، وسمعت صوت أحد العائدين يقول: انتبهن من الدوامات!.. فانبرى عارف قائلاً: لا تخفن لا توجد دوامات في هذه المنطقة .

وانثنى إلى العائدين يتفاوض معهم حول ثمن العودة التي لن تتم بدون معرفته للطرق الجبلية والأودية الملأى بمردة الأتراك والانكليز، ومختلف أنواع الوحوش ومصيبة المصائب كمائن قوات العدو التي لا يحصى عددها!! وأكّد على الكمائن حتى يجد تبريراً للكمين الذي سيقع فيه العائدون والذي سيعيدهم بدوره إلى الضفة الشرقية أو يفتك بهم، وحتى لا يقال أنه كمين مدبر بمعرفة عارف.

صحيح أن النهر لم يكن بعيداً كما قال عارف، لكنه أبعد بكثير من مرمى الحجر اذ قطعت النساء عشرات المرامي ولم يبلغنه بعد.. تنهدت وردة من قلب مثقل بالآلام وشتمت في سرها اليوم الذي وجد فيه آل العلي ومشايخهم ومخاتيرهم، شيخ يقول لشيخ ومختار يقول لمختار وجدّ يقول لجدّ حتى الجد الألف!!! كما شتمت الظروف التي جعلتها راعية بنت راع ابن راع وحتى الجد الألف أيضاً..

كثرت أشجار الدفلى والصفصاف والعليق.. جزمت وردة أنهن يقتربن من النهر.. أخذت تزيل الأغصان المتشابكة من أمامها بيد، بينما اليد الأخرى تضم الطفل إلى صدرها .

إنه النهر يا بنات. وجلست جانباً مفسحة المجال للنساء، فمددن أطفالهن وجلسن يسترحن.. كانت المياه تندفع هادئة ولا يبدو أنها عميقة... قالت الديسية العاقر:

- لماذا صوت الماء خفيف؟

فقالت الطورية:- باركها المسيح لما تعمّد فيها، قال لها: اهدأي يا مباركة.. فهدأت ومنذ ذلك اليوم وصوتها خفيف!!

أعجبت وردة لقدرة المسيح العظيمة، وبدا لها أنها كفرت بالله سبحانه وتعالى عندما قارنت بين المسيح وبين محمد (صلعم) عندما قال للصخرة المشرفة وكانت قد صعدت إلى السماء حينها: اهدئي يا مباركة ! فوقفت الصخرة منذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا، وظلت معلقة بين السماء والأرض!!! وأخذت تستغفر الله في سرها... قالت المرأة الطورية:

- لننهض يا بنات، توكلن على الله..

نهضن وأخذن يتضرعن إلى الله في السر وفي العلانية.

لم يكن عرض النهر كبيراً، فقد قدّرته وردة وهي تتأمله بما يقارب ثلاث عشرة خطوة وقد يقل عن ذلك... قالت العيزراوية:

لو معنا حبل لجعلنا واحدة تقطع وتربطه في الجانب الثاني لنتمسك به ونعبر... فقالت الديسية أم الطفل:

-يا ولايا المياه خفيفة.. ولو توفر الحبل من التي تغامر منا وتقطع وحدها وتربطه؟

قالت وردة: لربطناه على وسطها وامسكنا من طرفه وجعلناها تعبر، واذا

ما غرقت فسنسحبها.

قالت الديسية العاقر:

- يا بنات قبل أن نغادر البلد فكرنا بالحبال، فقال الناس إن المياه خفيفة.

قالت الطورية: وإذا وقعنا في دوامه؟

ردت الديسية العاقر:

- إذن ابقين جالسات علّ اليهود يحضرون إلينا..

وبدت الفتاة العذراء وهي صامتة صمت من في القبور! نظرن إلى وجوه بعضهن.. رعب، قلق، حزن، وأسئلة كثيرة تدور في الأذهان.. قالت وردة:

- توكلن على الله يا بنات، ولنقطع.

وتقدمت باتجاه الماء وهي تشكل ثوبها وتلفه على وسطها، ثم ضمت الطفل إلى صدرها وأصلحت الصرّة على ظهرها.. وتشبثت بعرق صفصاف يمتد فوق النهر، غير أن المرأة العاقر، اقترحت أن تمسك كل امرأة بيد الأخرى.. وهكذا تركت وردة عرق الصفصاف ومدت يدها إلى العاقر فأمسكت بها.. ومدت المرأة العاقر يدها إلى ابنة قريتها أم الطفل الصغير فأمسكت بها، تبعتها الفتاة العذراء، فالمرأة العيزراوية تحمل طفلتها.. وأخيراً المرأة الطورية وقد أجلست الطفل الكبير على كتفيها، وضمت الآخر إلى صدرها، بعد أن رفضا بإصرار أن تقوم المرأة العاقر أو الفتاة العذراء بحمل واحد منهما.

تقدمت وردة وقد غاص قدماها في مياه النهر.. سارت ببطء، تمايلت قليلاً عندما انزلقت قدمها عن حجر صغير، غير أنها استعادت توازنها وتقدمت ببطء.. خطت قليلاً.. أخذت المياه ترتفع حتى بلغت ركبتيها..

* * * * * * * * * * * *

جلست عايشة العلان على قطعة كيس من الخيش، وأخذت تبرم

الغزلة وهي تتنهد بألم وحسرة..
شعرت وردة بالتيار يكاد يسحبها.
نظر محمد عودة إلى الناي بلهفة وشوق...
تقلبت الحاجة ذوابا في فراشها أرقة ..... جلس الأب إيليا خاشعاً أمام أيقونة العذراء في كنيسة القيامة ..
سارت اللاجئة المجنونة عبر أزقة القدس، ترتدي كيس الخيش اياه!! وبشعرها الأشعث المنفوش..
جلس الشيخ عبد الحميد خاشعاً متأملاً في فراشه..

ركزت وردة قدميها على أرض النهر وثبتتها جيداً حتى تكبح جماح التيار.. استغاثت الطورية بيسوع المسيح وتوسّلت الديسية بكل الأولياء.. ودعت العيزراوية أنبياء الله جيمعهم أن يقفوا معهن، وعرّت الفتاة العذراء رأسها ونظرت إلى السماء متوسلة.. وعلق اسم الله بلسان وردة ومدت قدمها فشعرت باندفاع التيار، فأعادتها إلى الأرض في ثبات.. حركتها ببطء وإلى الأمام دون أن ترفعها فنجحت في التقدم خطوة أخرى..ارتفع نحيب الأطفال..

رفع الشيخ فايز العلي كأسه عالياً فارتفع كأس الكابتن شلومو وكأس المختار فالح العلي وكؤوس كثيرة...
قطعت وردة ثلث المسافة.. ارتفع الماء إلى ما فوق ركبتيها... رددت اسم الله أكثر من ألف مرة... مدت قدمها إلى الأمام ببطء وشعرت أن قدمها تدور في فراغ، وأحست بالتيار يدفعها....اختل توازنها.. لم تتمكن من استعادة قدمها التي حركتها أولاً أو من تثبيت قدمها الأخرى... وشعرت للحظة أن كل أملها في لقاء زوجها قد تحطمت.. وأحست بساقها تذهب مع الماء.. كادت أن تهوي.. هوت.. ندت عنها صرخة هائلة وهي

تسحب يدها من يد المرأة العاقر، وتدفع الطفل باتجاهها، وتتشبث بعود الصفصاف. ودون وعي من الأخرى، كانت تتشبث بالطفل وتشده إليها وتتراجع إلى الوراء في اندفاع، وهي تجاهد حتى لا يطرحها التيار، بينما صراخ الطفل يعلو، ويختلط بصراخ الأطفال الآخرين. هوت وردة إلى قاع الدوامة بعد أن تقصف عرق الصفصاف في يدها..

وقفت النساء في رعب رهيب وهن يحدقن إلى الماء.. وبعد قليل شاهدن الدوامة تقذف بجثة وردة فتسحبها مياه النهر أمام عيونهن.. دون أن يتمكّن من عمل شيء... ومكثن يرقبن الجثة الطافية فوق الماء في ذهول مخيف، إلى أن حدّ الظلام من مشاهدتها.. فتراجعن إلى الشاطئ يلفهن الحزن والأسى، بينما صراخ الأطفال يعلو ويعلو في استغاثات مفجعة، ولم يعد جنود الاحتلال يخيفون أحداً!!! ضمت المرأة العاقر الطفل فارس إلى صدرها وطوقته بذراعيها في حنان غامر بينما صراخه يعلو ماما، ماما... دقت اللاجئة المجنونة صدرها بالحجرين وهي تمر من أمام كنيسة العذراء، وغنّت أغنيتها بصوت حزين: يا حسرتي حملوا وشالوا، وخلوني وحيدة.. نزلت الدموع من عيني الأب إيليا وهو يجلس خاشعاً أمام أيقونة العذراء في كنيسة القيامة: ألا ترين ما حل بأبناء وطنك أيتها العذراء القديسة؟ إلى متى يا أم يسوع؟ إلى متى تحجبين عنا بركاتك ورحمتك؟؟

وقال الشيخ عبد الحميد وهو يجلس خاشعاً أيضاً: ربنا لا تُحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين... أصلحت عايشة العلان من وضع جلستها فوق كيس الخيش وهي تبرم الغزلة... انحدرت دموع طفيفة من مقلتيها، وأخذت تندب بصوت بطئ حزين:

حمرا يا لهيبة وين رحتي بركابك في باب السرايا علقوا لجامك؟

حمرا ومن دبيب النمل حظيـــتي على فراقهم ليش انتي ذليتي؟
مالك يا حمرا كبيتي في السـهــل صايبك مسمـار ولا على الأهل؟
مالك يا حمرا كبيتي في المراح صايبك مسمار ولا محمد راح.

أثارت عايشة العلان الحزن في نفس الحاجة ذوابا ومحمد عودة. وكان محمد متشوقا للبكاء منذ لحظات.. لا مس فوهة الناي بشفتيه، وأخذ يعزف لحن النزوح.. انسابت الألحان بين ثنايا الليل.. تكسرت فوق الشعاب والتلال.. تسربت إلى بيوت القرية.. فبكى كل من كان يقظاً...

* * * * * * * * * * * * * * * *

١٩٧٧

نار البراءة *

ألراوي

رفعت الحاجة صفية يدها بخيط الصوف عالياً وفتلت المغزل على فخذها المعرى فانبرم الخيط.. قالت وهي تطويه على رمانة المغزل:

- سمعتن يا جارات، بدهم يوخذوا علي الخطيب لنار البراة؟!

استلقت عيشة المسلم على بطنها وعرت نفسها من الخلف حتى أعلى الكتفين، لتتلقى المعالجة بكؤوس الهواء:

- نار تحرقهم! والله بحلف على أيتامي إن علي الخطيب بريء من عرض مليحة أبو الجدايل براءة الذيب من دم يوسف!!

أشعلت الطرمزية ورقة ووضعتها في كأس ثم قلبته على ظهر عيشة المسلم.. قالت وهي تمسك بطوقها وتهزه:

- ندخل على الله! لعاد شو جاي يعمل عندها بزي ربه بعد نص الليل؟!

أدخلت عايشة العلان المنحاز بين خيوط النول وأمسكت من طرفيه وشدته إلى الوراء عدة مرات لتباعد ما بين الخيوط :

× × × × × × ×

* نار البراءة: تعرف في القضاء العشائري باسم (نار البراة) أو (نار البشعة) ويلجأ القضاة العشائريون إليها في الحال التي ينكر فيها المتهم التهمة الموجهة إليه ، فيلجأون إلى حمي محمصة القهوة على النار ليكووا بها لسان المتهم، وفي الحالات المتفق عليها يضعون جمرة على لسان المتهم مباشرة، فإذا ما أحرقت النار لسانه، فإن التهمة ستثبت عليه، وإذا لم تحرقه تعلن براءته.

- استغفري ربك يا ولية انتي شفتيه؟

- مليحة قالت، بعدين الناس شافوه شارد ورافع البلطة الي حكت عنها مليحة في ايده، ووجهه ملثم!!

- ول يا ربي شو بده في البلطة بده يقطعها؟

- من شان تخاف منه وتسكت!

- والله هالقصة ما هيه خاشة مخي، قال زلمه بيدخل على حرمه من الشباك بعد نص الليل وهو مشلح مثل ما جابته أمه، ووجهه ملثم، او مش بس هيك كمان حامل في إيده بلطه! بعدين الناس ما بيسمعوا صراخ المره إلا بعد ما بيجي زوجها من وظيفته متأخر وبيدق الباب. لحظتها بتصرخ!! شو يا مليحة؟ علي الخطيب اعتدى عليه!! -كيف عرفتي ما دام إنه ملثم؟ - نزعت اللثمة عن وجهه - ول يا ربي، زلمه في رقبته سبع أنفار، ومطى عمره حصاد عند دار أبو الجدايل، وسمعته عندهم زي المسك، يم أجا اليوم واعتدى على مرة ابنهم؟!

وحياة تراب أبوي علان إبن علان -العمر لكن- إن هاقصة كلها كذب في كذب، وخلي خطية مليحة تجمد الدم في عروقي!!

ألقت الحاجة صفية جزة الصوف عن ذراعها، وطرحت المغزل إلى جانبها، وجالت بنظرها إلى وجوه النساء:

- أنا حجيت لبيت ألله! إلي شافوا مليحة بيقولوا إنه وجهها مثل العطبة، بعد ما سمعت إنهم بدهم يوخذوا علي الخطيب لنار البراة، ألله ما بيراجم الناس بحجار، ومليحة خايفة يا جارات، خايفة إن النار ما تحرق لسان علي الخطيب لما ينوشها، بعدين تنفضح بين الناس وتفضح عيلة أبو الجدايل معها، ويرجع علي الخطيب لولاده مرفوع الراس!!

كانت الطرمزية قد وضعت مزيدا من الكؤوس على ظهر عيشة المسلم، فامتلأت بالدخان، أفرغ الهواء فانقبض الجلد داخل فوهات الكؤوس..

تألمت عيشة المسلم وقالت دون أن ترفع رأسها عن الأرض، غير أنها نظرت بطرفي عينيها:

- ندخل على ألله! ايدي تحت صدري والكاسات على ظهري، ما نيش عارف أتف في عبي وأهز طوقي!!

مليحة مرة بتلعب على الحبال، وربنا رايح ينتقم منها ويخلي النار تكون باردة مثل الأسكيمو على لسان علي الخطيب!!

توقفت عايشة العلان عن النسيج قليلا:

- ألله يسمع منك يا عيشه!!

أخذت الطرمزية تنزع الكؤوس عن ظهر عيشة المسلم (بق ، بق ، بق) لكن الكأس الرابع لم.. يبق!!

نهضت عيشة المسلم، أصلحت ملابسها ونفضت التراب عن ثوبها .

قالت الطرمزية:

- وإذا ظلت النار نار وما صارتش مثل الأسكيمو؟

فقالت عايشة العلان

- بعدين روحي اشتري رطل حنا وحني ....!!!

قالت الحاجة صفية :

- يا ولايا طولن روحكن، بكره بيظهر المخفي لما يشعلوا النار في حرم النبي موسى!!

قالت عيشة المسلم:

- سمعت ما بدهم يوخذوه لا عالنبي موسى ولا عالنبي شعيب، بدهم يعملوها في الساحة قدام دار المختار!!

جنحت الشمس إلى المغيب.. أخذ الرعاة يقتربون من العزب.. وضعت الحاجة صفية جزة الصوف والمغزل في خريطة الخيش:

- خاطركن يا جارات.. الصباح فيه الرباح.. بدي أروح أحظر شوية شعير للعنزات.

أدخلت عايشة العلان المطوى من طرف النول وأخرجته من الطرف الآخر.. شدت الخيط وثبتت المنحاز.. أمسكت بالمخلال وأخذت تنسج.. ومع كل طرزة كانت تحبكها في النول، كان المخلال يضرب ما بين المنحازوحبكة النسيج، فينبعث ذاك الصوت الرتيب (طق طق طق طق) وهي تهتف في سرها (ياربي تسترعلى علي الخطيب واولاده يا ألله)

* * * * * * * * * * * * * * * *

علي الخطيب

يا رب تعطينا بما عطيت وتكفينا بما كفيت وترضينا بمت رضيت وتبعد عنا كل ردية بجاه عائشة وصفية والكعبة المبنية والمصاحف المقرية.. يا رب أنت أدرى وأعلم في الحقيقة يا الله، ومليحة مرة خالد أبو الجدايل بدها تنتقم مني، أستغفرك يا ربي وأتوب إليك، قلت لها يا مليحة حرام عليك شو بدك مني، أنا زلمه وراي اولاد بدهم لقمة خبز أسد ثمامهم فيها، أسوك عليك ألله تكفي شرك عني يا ولية، يوم بتكشفي لي عن صدرك يوم بتشلحيلي سروالك، أستغفرك يا ربي أستغفرك!! (والله لأنتقم منك ياعلي الخطيب)لسا كلماتها بترن في ذاني من هظاك اليوم! ول يا ولية مش حرام عليك أنا شو عملت لك؟ (انت عملت كل شي يا علي)!! ول يا ربي أنت أعلم في الحقيقة.. خفت منها قلت بكره بترميني في داهية.. قلت لسلفها رزق.. قلت له (مهرة أخوك فالته يا رزق) فهم علي، والله فهم وقال لأبوه وما بعرف شو صار.. يا سلام عليك يا رزق والله من خيرة الصحاب عمره ما أجا عليه وأنا بحصد في زرع أبوه إلا وقال إلي الله يعطيك العافية يا علي، ارتاح لك اشوي يا زلمه، دنيا ورايحة، وانت عليش مستعجل، خايف على زرع أبوي ما ينحصد، رايح ينحصد يا زلمه، ورايح انت تموت مثل ما مات حسين الرشود وانت بتحصد في زرعه، ارتاح يا خوي ارتاح!!

أجاني امبارح في الليل، قلت له بتصدقني يا خوي يا رزق، قال بصدقك، قلت له والله إن كان دخلت بيت أختي بسوء نية أكون دخلت بيت مرة أخوك. قلّي صادق يا علي لا تحلف إيمان يا زلمه أنا مصدقك وشاعر معك وهاكل همك، شو بدك تسوي؟ قلت رايح أروح لنار البراة! صار رزق يشتم على نار البراة وعلى المختار عايد إلي صار في آخر الزمان قاضي ويحكم بين الناس!

الحقير كان ممكن يحكم عليك بيمين ويزكيك اثنين ولا ثلاثة ولا خمسة يا سيدي، وتنتهي المشكلة! لكن أبوي وراه! أبوي عارف إشي ومخبيه يا علي، من ما صارت هالقصة وهوه زي إلي حاط في عبه حية، ما بينام لا في الليل ولا في النهار!!

قلت له ولا يهمك يا رزق أملي بالله كبير وثقتي فيه أكبر مش رايح أخاف لاو حطوا نار الدنيا كلها على لساني وكلها لحظة وبتمر وبيظهر الحق وبيان!! قلي خليك عاقل يا علي، النار نار يا جاك البين وعمر الحق ما أظهرته نار، اختفي يا علي اختفي بلكي أبوي يقبل انك تحلف يمين في النبي موسى إنك ما دخلت دار مرة أخوي وتنتهي المشكلة. قلت له باطل يا رزق أختفي منشان تثبت علية التهمة؟ انته بتشكك فيه يا رزق؟ قال أستغفر الله لكن لما تثبت عليك التهمة ولسانك سالم أحسن من ما تثبت عليك ولسانك محروق! بعدين من وين بدك تدفع غرامه ومصاريف صلحة وجاهة.. حطيت إيدي على ركبته وقلت له ولو يا رزق أنته بتشكك إني اعتديت على مرة أخوك ولا كان ما بتحكي هالحكي!! سكت اشوية. اطلع فيه .شفت الدموع بتطفر من عينيه.. مسك ذرعاني بيديه وهزني، قلي علي قلت نعم. قال أنا امصدقك يعني امصدقك، لكن النار نار وبتحرق كل شي بتعرض إلها والله ما إله دخل فيها، إفهمت؟! قلي هيك وراح!!!!!

- فاطمه!

- عالك يا علي؟

- انت نايمه؟

-لا...

- سيدنا ابراهيم الخليل، ألله يرضى عن روحة، لما حطوه في النار، وقال ربنا سبحانه وتعالى (يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) مش

صارت وما صار إشي لسيدنا ابراهيم؟!

- صحيح يا علي بس أنا خايفه!!

- ليش يا فاطمه؟

- هظاك سيدنا ابراهيم!!

- ول يا ولية استغفري ربك، هو ألله بيفرق بين عباده؟

- أنا عارفه يا علي حسبي ألله على الظالمين!!

ومدت يدها.. تحسست رؤوس الأطفال وجاشت عيناها ببعض الدموع!!

* * * * * * * * * * * * * * * *

مليحة أبو الجدايل

أخ يا اولاد عمي ويا قرايبي، قلت لحالي علي الخطيب فحل ولا كل الفحول يا مليحة، كل سنة والثانية مرتِه بتجيب ولد.. عندي زوج آخ يا كشلي ما هوه للسده ولا للهده، من ما صار ضابط مع فرسان الدولة كل ثلث شهور لشوفه مرة، بيجيني يمطمط في حاله ويرطرط بيظاته، معنكر تاجه فوق حاجبة! بنام عندي زي القتيل.. يوم يومين وبيجي رايح عالضفة الشرقية.. ما شاطر غير يحكيلي عن المرة البدوية إلي ركبها قدامه على كربوس الفرس!

قلت مالي غير علي الخطيب.. كان يحصد لحاله في المارس. رحت له بعد العصرية.. حملت معي ابريق شاي. شفته بيهجم على الزرع هجوم وبيحدي (منجلي يا بو الشراشف، طاح في الزرع يطاحش، منجلي يا بو رزة ونا شريتك من غزه. يعطيك العافية يا علي! (ألله يزيدك عافية يا مليحة كيف سويتها) (يا روحي يا علي جيت في بالي، قلت روح علي بيحصد لحاله في المارس من الصبح بدي أوخذ له كاسة شاي يبل زوره). (يسلم إيديك على هالشايات يا مليحة) (ويديك يا روحي) إطلعت حوالي.. عالجبال عالوديان.. ما فيه ريحة البشر.. قمت مشيت بين الزرع، قطفت سبلة شعير وحطيتها تحت بزي.. إطلعت عليه.. أبصر فيش كان يفكر.. حطيت إيدي على بزي وصرخت.. إلحقني ياعلي (ما لك يا بنت؟) (إشي بنخز في صدري يا علي) (وين ؟) (هان) (أخ يا علي) (تتحركيش استني لشوف وين!) (هان يا علي هان)! فتحت طوقي.. فكيت زرار القميص.. بان بزي مثل زغلول الحمام (ما نيش شايف إشي يا بنت) (تحت بزي يا علي يا حبيبي) (سبله سبله، لا تخافيش هيها سبلة شعير)! (سبله يا روحي يا حبيبي، جمدت من الخوف، قلت

أبصر شو إلي في صدري) تراخيت.. بركت فوق الزرع.. بزي قافز لقدام ومتحفز للقم!! راح علي.. قام السبلة ورجع يشرب الشاي!! آخ يا كشلي روحت بحسرتي ولوعتي!!

قلت يا بنت جربي حظك ثاني مرة.. بعد أكم من يوم، كان ينقل الزرع من المارس للبيدر. شفته جاي مع الطريق.. رحت على البيدر. كانت شحمة ذاني تشر عرق من الشوب.. حطيت سبلة شعير في سروالي المرة هاذي! يا كرايبي لما حطيتها فوق الشعر لزكت قلت عمرها ما تنشال! أمسكت الشعوب وصرت أنفش في القش. حسيت السبلة طيرت ظبان مخي وهيه بتسبح...!! وصل علي الخطيب (يعطيك العافية يا مليحة شو بتسوي) (ألله يزيدك عافية يا روحي ، والله شفت حالي من غير شغل قلت أروح أنفش شوية زرع عالبيدر خلي الشمس تشوفه أحسن يعطبن)

طرح الكادم عن ظهر البغلة وفسخه.. حطيت إيدي على قاع بطني وصرخت (الحقني يا علي) (ما لك يا ولية ؟) انطرحت فوق القش (افزع لي يا روحي إشي في....) (وين يا بنت ؟) (تحت أواعي يا روحي تحتهن) (حسبي ألله ونعم الوكيل.. لا تخافيش بيجوز سبله)!! (لا يا روحي إشي بسبح الحقني من شان ألله) رفع ثوبي إشوي، قلت له فوق يا علي، رفع كمان لما بين سروالي.. حطيت إيدي على السبله.. هان يا ويلي يا علي هان!! شديت السبله لفوق ورفعتها (هيه في إيدي يا روحي، إشي كبير بيجوز عقرب يا ويلي، أنزع سروالي يا علي)!! (أستغفرك يا ربي وأتوب إليك)!!

صار ينزع سروالي ونا ماسك السبلة من فوقه.. نزعه.. قال(افتحي إيدك لشوف شو هاظ) أرخيت أصابعي شوي (علي يا روحي أوعة ينط امسك شوف شو هوه) فتحت أصابعي وهوه ماسك إيدي بيديه الثنتين

(سبله مش قلت لك سبله !!) (آخ يا روحي يا حبيبي طنيبه على ولاياك أنا، يلعن أبو هالسبل يا روحي، بسبح بسبح مثل الحية، هاذي المرة الثانية إلي بموتني فيها من الرعب.. آخ يا روحي)!!

إحمر وجهه وصار عرقه ينقط من راس خشمه. إطلع علي.. إطلع..!! إعرفت إنه بده يلجم الحصان الهايج في قاع بطنه.. ولجمه يا قرايبي يا اولاد عمي.. والله لجمه وقام.. على هيك ارجال أنا ما شفت. قلت له(طنيبة على ولاياك يا علي لا تخليني أموت عالقش عطشانه يا علي عطشانه وميته من الظما، بل ريقي، نقط في روحي)!!

قلي (أنا وراي اولاد..) وقال حكي كثير يومها.. هاني وذلني يا قرايبي.. قلت أخ والله لأنتقم منك يا علي الخطيب!!

رحت لعند الحجة صفية قلتلها(يا حجة مهرة جامحة عندك إشي تشبيه عليها؟!) فهمت علي. قالت(صقر أبو الجدايل ابن عمك وابن عمك جوزك ناتع صاري بتحطي شبرك وبزيد اصبع !!) قولي وغيري؟ قالت (هاظ إلي أجاك) رجعت عالدار مثل الطير الطاير وكلمات الحجة بترن في ذاني.. بتحطي شبرك وبزيد اصبع؟ تفيت في عبي وهزيت طوقي.. هيه الحجة قايسته؟! تذكرت إن الحجة كانت تسري عالقدس من صيحة الديك، تحط إشليف الخبيزة على ظهرها وتمشي لحالها، وعلى ذمة بياعات الخبيزة والبابونج والحويرة والزعتر والحلزون، إنهن لما كانن يمرين من ظهرة ام العصافير قبل ما يطلع الفجر كانن يسمعن غنج فظيع في البطين!! ما عرفت أنسى يا كرايبي.. ظلت كلمات الحجة ترن في ذاني. لما ماتت حماتي العمر لولادها، غيطنت بنتها ثريا فوق جثتها، شقيت ثوبي لعند الحزام، صارن بزازي يتمرجحن مثل زغاليل الحمام. طلعت من غرفة الجنازات سويت حالي بدور على رزق بين

القبور من شان أقله إن أخته غيطنت! رزق بندوق ابن بندوق، لما شافني عرف، قلي باللغة الفحصى (اذهبي يا لعينة وارتقي ثوبك وإلا ألحقتك بأمي)!! وسمعته يتمتم (تبا لك ولزوجك الذي لا يروي شبقك) شبقك شبقك! أنا عارفه شو الشبق هاظ؟

ونا راجعة للغرفة، تطلعت بين القبور . الناس مكدسين زي يوم الحشر... شفت صقر (كيف حالك يا بنت عميّ؟) (الله يسلّم شبابك ليش ما بتزورنا ياروح بنت عمكّ؟!) (الليلة إن شاءالله) (أنا مستنياك يا عين بنت عمكّ) ودخلت غرفة الجنازات عند النسوان .

لما صاح الديك هذيك الليلة سمعت نقر عالشباك. فزيت (مين، صقر؟ يا روحي يا ابن عمي فوت) فات.. لفني ولفيته.. وتد يا قرايبي. قلت في سري يا سعدك يا حجة صفية! صال فيه وقلي(لوحي يا مرة ابن عمي) لوحت (اجمحي) جمحت (صولي) صلت يمين صلت شمال لورا ولقدام! (آخ يا مرة ابن عمي) (يا روح مرة ابن عمك وعينها يا بن عمي وابن عم جوزي) (وطي صوتك) ! (أخ يا بن عمي ريقي ناشف، ارويني ارويني يا روح بنت عمك) أخ يا قرايبي يا اولاد عمي العافية على قلوبكم!!

بعد أكم من يوم سمعت طرق على الباب قبل صيحة الديك.. قلت صقر بالعادة ينقر على الشباك، مين هلي بيطرق في هالليل؟ فتحت (مين عمي) (عما يعمي عيونك! أيوه الحقيني) (على وين يا عمي) (بنتظرك في الواد عند زرعاتنا !) يا قشلك يا مليحة، شاف صقر بيجي لعندي ولا سمع عن عملتي مع علي الخطيب، ولا بده يدك فيه؟ زي إلي شفته حامل معه حبل وحامل عصاته، يا ربي شو بده في الحبل بعد نص الليل، وشو بده مني؟ الحقيه يا جاك غراب البين يا مليحة!

الحقته يا قرايبي.. الدنيا ليل لحط اصبعي في عيني ما شفته.. مشيت

اشوي تعودت عالعتمه، وصرت أشوف الطريق وزوالة عمي قدامي.. انزلت وراه عالواد.. بطحني جنب الزرعات بين نبتات الحندكوك من غير ما يحكي ولا كلمة، هبت ريحة الحندكوك في خشمي، تنهدت. رفع ثوبي، ظليت ساكته، شلحني سروالي- بعيد عنكم- ظليت ساكته، عراني مثل ما جابتني إمي، ظليت ساكته، طوى رجلي لما اركبي لامسن كتافي ولف ايدي ورا فخاذي وربطهن بالحبل، ما ظلش عندي صبر! قلت (طنيبة على ولاياك يا عمي يا بو جوزي انت أبو الرجال يا روح مرة ابنك وبنت أخوك !) ظل ساكت يا كرايبي! ربطني لما صرت مثل الجاجة المشوية!

مسك عصاته، عرفت لحظتها إن عمي بده يعذبني. قلت في سري (آخ أكون ماني مليحة بنت أخوك عياش أبو الجدايل إذا ما خليتك يا عمي أحمد أبو الجدايل تورد مهرك عحوظي الليلة هاذي !!)

لاح العصاة لاحها.. فتحت شفايف وستلذيت (شو سويتي مع علي الخطيب) ؟

(ما سويت إشي وحياة روح عمي) سفك العصاة مع طول فخذي.. شهكت (إحكي شو سويتي ؟) (ظميانه يا عمي وميته من الظما، قلت له منشان ألله يا علي تبل ريقي، دشرني بظماي وراح يا روح مرة ابنك وعينها) (هيك يعني ؟) هز العصاة ونزل فيه ضرب، حسيت الوجع بطلع من كركيم مخي، تحملت، غنجت، تأوهت، قلي (صوتك يا بنت الكلب تفظحنيش) قلت(أفظح كل العشيرة ولا أفظحك يا عمي يا حبيبي) وفغرت مثل الثعلب، وعويت مثل الذيب، ومويت مثل البساس في شباط.. داخ عمي يا قرايبي، ذبلن عينيه وارتخين شفايفه، وصار يروم عند فخاذي روم!! رمى العصاة ورفع ثوبه، يا حسرتي يا كرايبي على هيك ما شفت!! ، قطع اللجام وصار يغب من الحوظ غب!!!

ملعونة الوالدين.. قمت عنها وخليتها مربطة ورحت وهيه بتنوح نوح الذيب.. رجعت إلها مع طلوع الفجر. القيتها بترجف من البرد. قلت لها (عرفت أن الله حق!!) قالت (فكني يا عمي حرام عليك)(بتوبي) (بتوب) (بديش أسمع إشي عنك بعد اليوم) (خلص يا عمي توبه بعد هالنوبه) فكيتها.. قعدت ساعة حتى عرفت توقف حيلها. قلت إلها (عجلي قبل النهار يطلع يا بنت الكلب، ألله يجعلني أسمع إشي عنك بعد هاليوم) روحت عالبيت.. شهر ما شفتها طلعت منه.. راحت الأيام.. ما سمعنا إلا صراخها بعد نص الليل.. فزعنا ..

شفنا زلمة هارب زي المارد.. أعوذ بالله من الشيطان، عاري وراسه ملفوف بالكوفية ورافع في إيده بلطه!!

اختفى مثل لمح البصر في هالظلام.. جيت عالبيت.. القيت الثور جوزها واصل توه من الوظيفة (شو يا مليحة) (علي الخطيب اعتدى عليه) القصة ما دخلت مخي.. اتجمعوا الناس في هالليل وصارت فظيحة.. أجت الحمولة تشاورني ثاني يوم (عرضنا يا عم أبو علي شو بدنا انسوي) قلت إلهم (لا تحكوا ولا مع واحد من حمولة العبيدات) (مش هيك عوايدنا يا عم ما بنرضى غير بدم علي الخطيب)!! قلت (ما تعملوا إشي ، أنا بتصرف)

أجوا وجوه حمولة الشقيرات، يوخذوا عطوه عن حمولة العبيدات. وافقت بخمسين دينار على عطوة لمدة شهر كامل، ومن غير شروط ثانية.. واتفقنا إنا نلتقي مع العبيدات في بيت الشيخ داود مختار العويسات، ويكون القاضي الشيخ عايد مختار حمولة الزعاترة.

أجاني الثور ابني قلي (يا والدي أنا رايح عالوظيفة دير بالك على مليحة

!) إطلعت عليه إطلعت. شفته ثور بقرنين كبارا قلت في سري والله ما انت من صلبي يا ثور (روح يا خالد يا بني روح يا خسارة التعب والشكا والخبز فيك يا بني، بتوصيني على مليحة، ليش ما توصيها هيه علي، روح.. روح)

جيت عليها في الليل..قلتلها (امشي قدامي يا بنت الكلب) أخذتها لبير في الخلا.. عريتها من ملابسها وربطتها بالحبل على وسطها. قلتلها (احكي لي الصحيح، مين كان عندك لما صرختي؟) (والله علي الخطيب يا عمي) دليتها في البير، تشبثت بالحبل وصارت تصرخ قبل ما تصل المي (آه بتحكيلي؟) (والله علي يا عمي وحياة أبوي وجوزي) دليتها.. وصلت المي.. غطستها لعند رقبتها- هيك توقعت ونا برخي في الحبل- صارت تصرخ في البير والصدى يتردد. ما فهمت شو بتقول. غطستها وطلعتها، وغطستها وطلعتها. . سحبتها لفوق اشوي منشان أسمع شو بتقول. قتلتني ملعونة الوالدين ما أثقلها! (دخيلك يا عمي طلعني) طلعتها.. اسنانها بطرقن على بعض. دشرتها اشوية. (آه مين؟) (ابن عمي صقر يا عمي) (يا ملعونة الوالدين، صقر أبو الجدايل؟ ابن أخوي؟ ابن عمك وابن عم جوزك؟ يا ملعونة الوالدين ولا روح الشاهدين!! آه آه! واتهمتي لمسخم علي الخطيب؟ بعدك مش ناسيتيه؟ آه منك آه، انتي مش عارفه شو إلي سويتيه؟ عشاير وحمايل بدها تذبح بعضها من وراك، ولا مش عارفه هالحكي؟ أذبحك؟ أموتك؟) نزلت فيها بالحبل لما صبغت جلدها صبغ.. لبستها أواعيها وسقتها قدامي. ظليت على ظهرها بالحبل حتى قربنا عالقرية..

(شو بدي أعمل شو بدي أسوي، لاو الناس ما شافوا ملعون الوالدين شارد وحصانه مقطع اللجامات، كان خلينا علي الخطيب يحلف يمين ويزكيه خمسة من قرايبه، إنه ما دخل دار مرة ابني، وتظيع هالطنجرة بين هالطناجر! لكن شو بدي أعمل بعد الناس ما شافوا زلمة مشلح شارد

من بيت ابني؟ معقول أقبل من علي الخطيب يمين ويزكيه كل قرايبه وفي الكعبة المشرفة بزاتها.. وبعدين الناس يصيروا يعيروني في الزلمة لمزلط إلي ما عرفنا مين هوه..؟ آخ آخ..)

وديت أربع خرفان للمختار عايد. قلت له (يا شيخ عايد أنا ما بدي غير تقضي بينا وبين العبيدات بالحق والعدل) فهمها عالطاير! قال (والله ما يجيكم غير الحق يا زلمه، مش بدك أخلي علي الخطيب يبشع حتى يظهر المخفي)؟! قلت له (والله إنك قاضي عريك يا مختار، بدي اتخلي الجمرة تهري لسانه هري، حتى يعرف إنه بنات الناس مش داشرات!! بعدين يا مختار ما فيه خلاف بينا الميت دينار غرامة خشة البيت من الشباك إلك، وميت دينار الخروج إلي) (ولو يا بو علي، هاظ الحكي بينا؟ الله يسامحك يا شيخ، إي والله ألله يسامحك !!)

* * * * * * * * * * * * * * * *

ألراوي

فرشت البسط في الساحة أمام بيت المختار عايد.. أخذ وجوه الحمايل يتوافدون. أقبل وجوه حمولة الشقيرات يتقدمهم الشيخ ابراهيم، فأجلسهم المختار عايد في ناحية. تبعهم وجوه حمولة العويسات يتقدمهم الشيخ داود فأجلسهم في الناحية المقابلة. وأقبل معظم افراد حمولة السحايقة يتقدمهم أحمد ابو الجدايل فأخذوا أماكنهم في ناحية ثالثة.. وأخيراً أقبل رجال حمولة العبيدات عن بكرة أبيهم بعصيهم المسمرة وخناجرهم البراقة، يتقدمهم المختار مهنا وبعض وجوه الحمولة، أما علي الخطيب فقد سار في المؤخرة مع بعض المقربين إليه، أجلسهم المختار عايد في الناحية الرابعة، ووزع بعض وجوه حمولته وأفرادها ليأخذوا أماكنهم بين مختلف الحمائل– كونهم الحمولة المضيفة – واختار مجلسه إلى جانب حمولة العويسات كونها حمولة محايدة. وما أن دارت القهوة حتى أمر المختار عايد بإحضار الكانون والفحم.. أضرمت النار.. صعد الدخان عالياً، فعرف كل من في القرية أن ساعة علي الخطيب قد آنت.

قالت عائشة العلان وهي تقف على النول و ترقب سحب الدخان (يا ربي تقف مع علي الخطيب يا ألله)

وقالت عيشه المسلم (يا ربي تستر على مرته واولاده وتخلي النار باردة على لسانه مثل الأسكيمو) وقالت الطرمزية (يا ربي ما تواخذنا بذنب المذنبين) أما الحاجة صفية فقد قالت (يا رب أنت جميل وبتحب العشق والجمال، استر على العشاق يا الله!!)

جلست زوجة علي الخطيب أمام الخشة والأطفال يلعبون من حولها (يا ربي تنتقم من الظالمين)

احتضن راعي أحمد أبو الجدايل العنزة الصبحاء– التي كان يتركها

بلا حلب ليشرب علي الخطيب حليبها مع فطوره في الحقل- وخاطبها وهو يرنو إلى الدخان من الجبل المقابل (والله إذا سلم علي من النار لحني ضرعك بالحنا وأعلق في رقبتك ظبابيح وأطعمك كل يوم كيلو شعير)

شد بائع الكعيكبان رسن الحمار وأعلن للأطفال أنه توقف عن البيع.. اختفى صقر أبو الجدايل من القرية منذ الصباح!!

توقدت النار. أخذ الدخان يتلاشى شيئاً فشيئاً.. وبدأت حبات الفحم تحمر. جلس علي الخطيب ثابت الجأش (يا رب إني وكلت أمري إلك يا الله، أنت أعلم في الحقيقة وأدرى، وحكمتك فوق الكل)

أغلقت مليحة باب الغرفة على نفسها، انطرحت على الفراش وأخذت ترتجف من قمة رأسها إلى أخمصي قدميها وقد لف الشحوب وجهها، متخوفة أن لا تحرق النار لسان علي الخطيب فينكشف كذبها!

لم يهدأ أحمد أبو الجدايل في مكانه فمع كل دقيقة تمر كان يصلح من وضع جلسته ويضغط على نفسه حتى لا تظهر هذه الرجفة التي اجتاحت يديه!

قال المختار عايد وهو يجاهد لتبدو أسارير وجهه طبيعية (طول بالك يا بو علي، رايح الحق يظهر وكل واحد يوخذ نصيبه)!!

تحلق الأطفال بأسمالهم البالية من حول الجالسين، ووقفت النساء أمام البيوت وعلى سطوحها.. احتضن رزق أبو الجدايل رأسه براحتي يديه وأطلق نظره إلى ما لا نهاية.

جلس المجنون حسن حمدان على حجر وأمسك بيده حجرا أخذ يضربه بحجر آخر أمامه!

تلاشى الدخان نهائيا.. توهج الجمر.. نهض المختار عايد.. اقترب

من الكانون.. أمسك الملقط وأخذ يقلب الجمر.. أشار إلى المخاتير أن يأتوه بعلي الخطيب.

وقف علي بقامته الفارعة، ثابت الجأش، رافع الرأس، لم يرف له طرف. أمسك المختار داود بذراعه الأيمن وأمسك المختار ابراهيم بذراعه الأيسر وتقدما به إلى النار.

قال حمدان أبو رطة في سره (أراهن على مائة نعجة من غنمي إنك يا علي الخطيب بريء) !!

وقال يوسف دخيل- وفي سره أيضا- (أراهن على مائتي دونم أرض) عبث المختار عايد بالجمرات.. التقط بملقطه الطويل جمرة كحبة البقلاوه. قالت امرأة – اقتربت من بعيد ومدت رأسها من فوق رؤوس الأطفال- قالت وهي ترقب الجمرة المتوهجة في ملقط المختار (ول يلي ما تخاف ألله)

ضرب المختار الملقط بحافة الكانون حتى تتساقط بعض ذرات السكن عن الجمرة المتوهجة!! ونهض مستوياً أمام علي الخطيب (مد السانك)! أخرج علي الخطيب لسانه قدر المستطاع.. أطبق صمت ثقيل. جف اللعاب في الأفواه.. ارتجفت يد المختار عايد وبات أبو الجدايل كريشة في مهب الريح، أخذت مليحة تصرخ من داخل غرفتها!! شد بائع الكعيكبان رسن الحمار من أسفل فكية وتوقف المجنون حسن حمدان عن ضرب الحجر بالحجر.. خرجت زوجة المختار عايد من البيت وبقايا العجين بين أصابعها.. أرهف العشرات أسماعهم وركزوا النظر وابتلعوا بقايا اللعاب الجاف، وظهرت اللاجئة المجنونة فجأة وهي تجتاز القرية بشعرها الأشعث المنفوش، تدق صدرها بحجرين وترتدي كيساً من الخيش وتندب بصوتها المفجع (يا حسرتي حملوا وشالوا وخلوني وحيدة) أهوى المختار

عايد بالجمرة على لسان علي الخطيب. طش اللحم.. تآكل تحت النار. احترق اللسان. قفز علي الخطيب في الهواء وصرخ صرخة هائلة وسقط على الأرض وهو يتلوى ويرفس بقدميه ويطبق بقبضتيه على رأسه...

عادت السكينة إلى أحمد ابو الجدايل، وتنفست مليحة الصعداء، وشوهد صقر أبو الجدايل يخرج من كهف في أحد الأودية، وأعلن المختار مهنا تبري حمولته من علي الخطيب، وتعهد أمام كافة الحمائل بأن تحصل حمولة السحايقة على كامل حقوقها.. ونزع عقاله عن رأسه وانهال به على رأس علي الخطيب الذي دنس شرف الحمولة!!!!!!
انطلق صوت عبده موسى من مذياع قريب (شمس الأردن بتلالي من فوق السما العالي)!!!!!!

١٩٧٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

ألخطار

الراوي

هاهي أول قافلة للخطار تطل من بعيد عبر التلال... انفردت أسارير وجه عائشة العلان وهي تصالب يديها على صدرها وتتكور على نفسها فوق قمة الجبل، لتجابه القشعريرة التي اجتاحت جسمها من جراء نسيم الصباح ..

< متى تقطع القافلة كل تلك الشعاب والتلال، وتصعد منعرجات جبل المنطار، وتصل إليها، لترى فيما إذا كان ابنها معها؟ >

تخيلت نفسها بجناحين وطارت ... <حلقت فوق القافلة، شاهدت ابنها يسوق الحمير وقد حملها بأكياس الملح... رفرفت بجناحيها فوقه، حطت عليه، ضمته، قبلته، حملته وحلقت به>

أطلت الشمس من خلف جبال البحر الميت، تأملت عائشة كل الجهات المشرفة عليها؛ ها هو البحر المالح يركد شرقا بين سلسلتين من عشرات الجبال. أدارت وجهها إلى الجنوب: ترامت على مدى نظرها جبال بيت لحم ومناطقها، ثم إلى الغرب حيث القدس ورام ألله، بدا لها الندى وهو يطير عن قمة جبل الزيتون، فجبل المكبر.. ابتعدت ببصرها نحو الشمال لتشاهد عشرات القرى ... وراحت تقصر نظرها شيئًا فشيئًا لتجوب المراعي والجبال.. عشرات الرعاة يخرجون بقطعانهم من العزب والصير.. نظرت إلى الشرق من جديد...، ها هي القافلة تقدم عبر التلال وها هي عشرات القوافل تطل من ورائها .

أخرجت جزة الصوف من الصرة الموضوعة إلى جانبها، لفتها حول ذراعها وأخذت تغزل، ثم عادت إلى شرودها .

< قلت له يا ولدي أنت صغير والملح لا يخطر إليه قبل سن الشباب، لا تدعني أنتظر على الدروب أسأل عن عيونك، غدا يا ولدي تكبر ويكبر اخوتك وتخطر مع الخطار، بحر الملح يا ولدي ما وديك عليه، تروح يا ولدي يشرق عدوك بمية البحر، تنزل بجوفك، تغرق يا ولدي، وأنا ما أطيق فراقك يا روح أمك، اخوتك ينتظرونك يا حسن يا بني! صبرت يا ولدي على الذل وما هو أمر منه، تحملت المهانه، تعبت، شقيت، كلت عيني وانهد حيلي، لكن العمر في سبيلك وسبيل اخوانك يرخص يا ولدي.. >

< عشر سنين يا بني، عشر سنين مرت على وفاة بيك في حرب النكبة، كنتوا صغار يا حسن، خبيتكم، ربيتكم، منعت كل الشر عنكم داريتكم، مثل حجلة تداري فراخها يا ولدي... في الشتا أبيع البقول يا ابني، وفي الصيف أنسج البسط للشيخ علي وأغزل، تحملت الكثير يا ولدي، أتحمل القليل حتى تصيروا رجال وتجوزوا، وتدفنوني بإيديكم تحت التراب لما أموت يا بني.. >

< يا أمي يا أمي>

قلت له< لا تقاطعني يا بني خليني أكمل كلامي ألله يرضى عليك> سكت! قلت له :<بحر الملح يمه ما تروح له> قال : <أنا افديك بعيوني يمه ما تقطعي قلبي بحياة تراب أبوي. قلت لك أنا ماني صغير، أنا كبرت يمه، أنا شاب وشبيت على يديك اللتين لم تعرفا الكلل، وكيف لا تريدينني أن أخطر إلى الملح؟ هل نسيت يا أمي عندما جئت البارحة وقلت لي: الشيخ علي هددنا، يبغي ديونه، وإلا سيأخذ قطعة أرضنا الوحيدة التي رهناها عنده!

لا تحسبي يا أمي وما تخلي الهم يشغل بالك، رطل الملح بقرشين، أخطر كل خمسة أيام مرة، أجيب مائة رطل، لن ينتهي الصيف إلا وأنا جامع ديون الشيخ علي، ونسترد قطعة أرضنا يا أمي !!>

قلت له< برضاي عليك يا ولدي، أنا أرضى والله يرضى، والسهل يرضى، والسما ترضى، لا تروح يا ولدي، أخاف عليك يا حسن، أخاف أنحرم من شوفة عيونك يا بني، يغرق عدوك في البحر مثل الناس إلي غرقوا، أو تقبض عليك دورية الفرسان يا بني، أشق ثوبي، أجن، أدور على الدروب يا ولدي، لا تخليني أتحسر عليك يا بني كما تحسرت على بيك واخوانك. برضاي عليك لا تخطر يا حسن، ابق في المدرسة يا بني، وليأخذ الشيخ علي قطعة الأرض، وعوضنا في عين الله يا ولدي، وإن شاء الله أن عينه ما تخيبنا وما تخطي عنا يا بني>

قال لي :يا أمي، يا أمي، قطعة الأرض لن أتخلى عنها بدمي، وحياة تراب والدك المدفون وحده في البراري، والمدرسة ما هو وقتها، وعلى الملح يجب أن أخطر، واطردي كل أفكار السوء من راسك>

قلت له< روح يا ولدي عين الله تحرسك في كل خطوة تمشيها، روح>

****

سمعت أن علي الخطيب سيخطر إلى البحر.. ذهبت إليه في الخشة :

- يصبحك بالخير يا علي .

- الله يصبحك بأنوار النبي يا عايشة.

يا أخي حسن يريد أن يخطر مع الخطار إلى البحر، خذه معك يا علي وأعره انتباهك، الله يطول عمر اولادك، ما يزال صغيرا يا علي ودروب الملح كلها مخاطر، وعمره ما مشاها .

قال :

- ولا يهمك يا أختي، والله لأحطه في عيني، وإن شاء الله ما يصيرعليه إلا إلي يصير علي .

- يكثر خيرك يا علي ويستر على عيالك ربنا من فوق!

عدت إلى البيت. قال حسن< لا بد لي أن أحضر حمارا آخر، حمارنا ما يقدر يشيل إشي>

راح.. استعار حمارا من عند بيت عوده السلمى. قال لي< حضري لي زادي وزوادتي يا أمي>

رحت.. طليت في خم الدجاج.. لقيت أربع بيضات، سلقتهن، وسلقت ست حبات بطاطا، وحضرت أربع حبات بندوره، وقليل من الزيتون، وعشرة أرغفة خبز..

صريت له إياهن في منديلي.. حط راسه ونام! قال :<صحيني قبل صيحة الديك يمه حتى ما أتأخر عن الخطار>

قمت علفت الحمارين، وحطيت لهما قليلا من التبن. نيمت الأولاد.. ما أجا عيني نوم.. قعدت أغزل صوف لبيت الشيخ وأغني للأولاد. غنيت لحسن ووطفا ومحمد وندى.. ثم قمت قبلتهم وقعدت أتطلع عليهم وهم نايمين !!<يا حبيبني، تكبروا وتجوزوا وتخلفوا صبيان وبنات وتدفنوني بإيديكم يا حبايبي>

سمعت شبابة محمود أبو ردان في هالليل الهادي. حسيت إنه بجرح قلبي بعزفه! يا ويلي عليه كم قلبه ملوع!! خلاني أتذكر كل الأيام الماضية: أبي الضرير الذي كنت أقوده وهو يستعطي، وموته في تلال النبي موسى، ودفنه هناك لوحده بين الوديان. الأب بطرس الطيب إلي رباني في الدير! الأخت لويزا! زواجي. وفاة طفلي البكر، وطفلي الثاني، ووفاة البنت. استشهاد زوجي في القسطل في الثمانية وأربعين.. تعبي وشقاي إلى أن

ربيت الأولاد .

تطلعت إلى حسن. شعرت بالخوف. بكره سيخطر إلى بحر الملح< يا ولدي صغير ولا يعرف السباحة، والبحر مرعب والملح تعب وشقاء وهو غير معتاد على السفر والتعب والمخاطر، ماذا أفعل لأمنعه من هذه السفرة، أخليه نائم وما أنبهه؟! أخاف أن يغضب إذا قام ووجد انني فعلتها معه. يا رب أنت أدرى وأعلم بحالي، وتعرف كم تعبت وشقيت، حتى خليت أولادي شباب، انا أضعهم امانة بين يديك يا ربي، ونذر علي، إذا رجع حسن من البحر سالم، لأذبح لك كبش في النبي موسى - ولو أني سأستجدي ثمنه – وأوزع لحمه على الفقراء والمساكين .>

أحسست انه لن يغمض لي جفن وشبابة محمود أبو ردان جرحت قلبي ولوعتني وأثارت كل همومي. نزل علي وحي الشعر. رحت أغني ما يجول في راسي !!

أجاني حسن يا ليل مع بكرة الضحى
حامل شجرة البأس لاوي غصونها
شاكل اذيال الثوب ومشمر الزندين
شاد العزم والحيل لامه يصونها
قلي يمه عالبحر لا بد ما أخطر
لنخلص من الذل والشيوخ وديونها
قلت أخاف يا ولدي تروح وما تيجي
أحرم دخول الدار ويا سكونها
أخاف يا ولدي في البحر تغرق
أحرم عيوني النوم ويا جفونها
أخاف يا ولدي بيد الفرسان توقع

وسجون مظلمة عليك يقفلونها
للشيخ علي يا أمي نتخلى عن الأرض
وعين الله يا بني ما تقطع منونها
قلي يمه عالبحر لازم أخطر
والأرض يمه بدمي أصونها
قلت روح يا ولدي عين الله تحرسك
عين بصيرة وما تغفل بنونها

* * * * * * * * * * * *

أفاق حسن من النوم. قال لي :

- أنت تبكين يا أمي؟

مسحت دموعي . قلت له :

- برضاي عليك يا ولدي لا تخطر إلى البحر .

غضب وثار.. قلت له :

- كفى يا بني، الله يرضى عليك ويحن عليك، قوم صارت الدنيا نص الليل، الآن ينادي عليك علي الخطيب .

قال لي :

- إنما لا أريد أن أسمعك تقولين، ما تروح وما تيجي !

- لن أتكلم يا ولدي، لقد تكلمت ما فيه الكفاية.

قام. أحضرت له كاسة شاي. تركته يشربها ورحت حلست الحمارين وحطيت عليهما خرجين وثلاثة أكياس. ملأت القربة الصغيرة ماء ووضعتها في جانب الخرج، ووضعت في الجانب الثاني صرة الأكل، وحطيت له شوية سكر وشاي وكيلتين وعلبة كبريت .

استيقظ محمد وندى ووطفا. اشوي وإلا علي الخطيب ينادي. قام حسن.

قمت معه.

قلت لمحمد < دير بالك على خواتك يمه على بين ما أودع أخوكم>

ساق الحمير قدامه. وصلنا علي الخطيب.. صبحنا عليه. قلت له :

- حسن وداعتك يا علي !

قال :

- الوداعة على الله يا عايشه، إن شاء الله ما بيصير إلا الخير. روحي ارجعي لعند الصغار أحسن يخافوا لحالهم .

- لا خوف عليهم يا علي، أبقيتهم مستيقظين، بدي أمشي معكم لوصلكم لباقي الخطار.

- الخطار بعيدين يا عايشه، وين بدك تروحي معنا في هالليل؟

- في أي مطرح ينتظروكم يا علي؟

- في وادي المنطار.

- طيب خليني أمشي معكم اشوية وبرجع.

مشيت معهم. الدنيا ليل يا حسرتي. قلت :

- يا ريتكم استنيتوا لما يطلع القمر يا علي .

- القمر بطلع متأخر يا عايشة .

قال حسن :

- ارجعي يمه وين بدك رايحة معنا في هالليل؟

قلت له :

- رايحة ارجع يمه بس وقف تبوسك !

وقف يا حبيبي. بوسته.. وبوسته !!

< في حفظ الله يا بني، أودعتك للي ما يخون الودايع، إلهي يفتح لك في كل ضيق طريق يا ولدي، ويكف عين الظالمين عنك، ويعيدك

بالسلامه يا بني. إذا مريت عن قبر جدك إقرأ عليه الفاتحة يا ولدي.. وداعتك حسن يا علي.>

- اتكلي على الله يا عايشه.

ركبوا الحمير وتسهلوا.. رجعت وأنا اناشد البحر أن يحفظ حسن ويرجعه لي سالما، وتمنيت من الله أن يجفف ميته إذا غدر فيه !!

* * * * * * * * * * * * * * * *

حسن

وصلنا مكان التجمع. ما لقينا حدا. قال علي :

- خلينا ننزل عن الحمير يا حسن ونرتاح شوية على بين ما ييجوا الخطار.

نزلنا ...

- ايمتى نصل البحر يا علي؟

- بكرة في الليل يا عمي!

- ابعيد هالكد؟

-لا والله يا عمي ما هوه بعيد، لكن ما فينا نمشي في النهار، نخاف من دوريات الفرسان تشوفنا.

فكرت اشوي. قلت له :

- والله لا أعرف يا علي لماذا تمنع الدولة الناس أن يبيعوا الملح؟

- لأنهم يظاربون على معمل الملح وعلى الملح المستورد من بلاد برا !!

- كيف يا علي؟

- إحنا بنبيع الملح بسعر أرخص من سعر المعمل يا عمي.

- طيب ليش ما يغلقوا المعمل ما دام إحنا بنبيع الناس بسعر أرخص؟ وكمان ما يستوردوا، إحنا بنجيب ملح يكفي لكل البلد !

- ما بنفع يا عمي، هاظا المعمل كلف مصاري كثير كيف يغلقوه؟

- طيب وحنا كيف بدنا نعيش؟

- إلي أرزق الدود في الصخر يا عمي يرزق الطير على الشجر !!

بدأ الخطار يصلون. تجمع أكثر من خمسين خطار من خطار بلدنا. إلي أجا بحمارين ولي أجا بثلاثه أو ببغل وحمارين، والبعض أحضروا جمال!!

مشينا في هالليل. صعدنا جبل المنطار ونزلناه.. قطعنا تلال وجبال

ووديان،
إلى أن انحدرنا إلى واد سحيق. حسيت إنه علي خايف عليه كثير، لأنه أصر عليه أن أركب الحمار وأمشي قدامه !

بدت قافلتنا تجنح إلى جنب واد بعد ما كانت تمشي في منتصفه. وسمعت الناس يتهامسوا، كل واحد يهمس للذي خلفه. التفت الزلمه إلي قدامي عن ظهر حماره

وقال لي :<تصادفنا مع دورية مهربين أوعه حدا يحكي معهم> خفت. نهر علي حماره ولحقني. همس لي< ما تخاف يا عمي> خلاني أحس بالخوف أكثر .التفت لأحكي معه. قال < هص> هصيت!! سمعت وقع حوافر خيل، حدكت اشفت زلمتين راكبين فرسين وحاملين بواريد وملثمين! شكلهم مرعب! خفت. طل وراهم كمان اثنين، وكمان اثنين، ست خياله! جانبت بالحمير على جنب الواد على بين ما يمروا. خوفني علي لما قرب مني وحط ايده على ظهري. اطلعوا الخيالة فينا ومروا من غير ما يحكوا معنا، وأنا أنظر لبواريدهم !

طل أول القافلة من وراهم. بغال محملة بكياس مليانه، عديت عشرين بغل مرت من جنبي. كل بغل وراه زلمه ملثم وحامل باروده بكتفه! طل وراهم ست خيالة يحرسوا القافلة من ورا !

مروا. تنفست من كاع كلبي!! همست لعلي :

- شو هذول؟
- هص! هذول مهربين حشيش وفلفل !!
- شو؟
- قلت لك هص !
- لمين بهربوا؟

قرب مني وهمس في ذاني:

- لاسرائيل! هص! أوعك تسأل كمان! هص ولا نفس !

ما هصيت! همست :

- ليش ما فيه في إسرائيل حشيش وفلفل حتى يهربوا لها؟

- هص هص لحدا يسمعنا! هاظا حشيش وفلفل غير إلي إحنا بنعرفه !!

- كيف هو؟

- يا ملعون الوالدين يا بعيد بدك تودينا في داهية! قلت لك هص! بيقولوا إنه غالي كثير !

- من وين أجوا؟

- يا ملعون لا أمك ولا أبوك يا اليهودي! قلت لك هص، خلص ما تسأل! أجوا من الشرق!!هص هساع !

ما هصيت !!

- وهل يوجد في الشرق فلفل وحشيش غير إلي عندنا؟

- هالساع بغضب منك، هذي القضية ما فيها مزح، للحيطان آذان! هاظا بيجي من بلاد بعيده وما عندنا منه !

هصيت وسكتت غصبن عني، وفي نفسي أعرف شو الحشيش هاظ وشو الفلفل، ومين هذول المهربين، ومنين تجيهم لبضاعة، وليش حاملين بواريد، وكيف بدخلوا لإسرائيل؟ والأهم ليش علي الخطيب بيقلي هص وكأني بسأله في السياسة؟!!

* * * * * * * * * * * * *

تابعنا سيرنا. تعدينا قبر جدي من غير ما أعرف! قلت لحالي بقرا عليه الفاتحة وأنا راجع .

وقفت القافلة في واد تحيطه السدود من كل النواحي. نزل الخطار عن

دوابهم وربطوها إلى جوانب الصخور أو في الكهوف أو تحت الأشجار البرية! فرشوا أكياس الخيش واستلقوا عليها.

انبطحنا انا وعلي جنب بعظنا! قلت له :

- لإيمتى بدنا نظل هان؟

- لبكرة المسا يا عمي لما ننزل للبحر !

قام بعض الخطار يحضروا الشاي. هم علي للنهوض، حلفت عليه ما يقوم. قمت، جمعت اشوية حطب وولعت النار، وحطيت ابريق الشاي عليها. قلت لعلي؛

- البحر بعيد من هان يا علي؟

- ظربة حجر يا عمي! شي عشر دكايك بنكون عنده !

خلصت الشاي وصبيته! طلع شاي أخو شليته !!

البغال جننا وهن بيضربن حوافرهن في الأرض وبشخطن من منخيرهن،بدهن يقطعن الرباطات واللجامات. سألت علي عن سبب جنونهن. قال لي :

- خايفات من الجمال يا عمي !

- وليش الحمير ما يخافن؟

- الحمير يربطهن صداقة قديمة بالجمال، بعكس البغال يا عمي !

- وليش البغال محرومين من هالصداقة؟

- ما بعرف يا عمي، بس البغل بحس إن الجمل هو الوحيد بين الدواب إلي ما بتربطه فيه قرابة!

- كيف يا علي؟

- أبوه حمار وأمه فرس وخاله حصان يا عمي، ما ظل غير الجمل ما بقرب له !

- ليش البغلة مش أم البغل؟

- لا يا عمي البغلة ما بتخلف!

- وكيف ينط الحمار على الفرس لتلد بغل؟!

- تلد يا عمي! ما بتسمعهم لما بسبوا على واحد بيقولوا <يا بغل يا ابن الحمار>!!

- صحيح والله!

سمعنا هرج ومرج جاي من بعيد. تبين إنهم خطار العبيدية. لقيونا نحتل المكان، راحوا يدوروا على مطرح ثاني .

بعد اشوي وصلت قوافل التعامرة. خبرناهم إن العبيدية مروا قدامهم. راحوا يبحثوا عن واد ثالث !

قلت لعلي

- دخلك فيه في البحر ملح يكفي لكل هالناس؟

- فيه كثير يا عمي !

خطرت لي أسئلة كثيره. لكن علي قال < لازم ننام يا عمي، بكره بخبرك قبل ما ننزل للبحر>

* * * * * * * * * * * * * * * *

ما غمضت لي عين. ظليت باقي الليل أرقب القمر والنجوم والجبال إلي محاوطتنا. واتنصت لصرير الصراصير وعوي الذياب وفغير الحصينيات !!

فوجئت بطلوع النهار. قمت طلعت سفح الجبل وطليت عالبحر. كعدت على حجر وصرت أتفحصه! ظليت لما طلعت الشمس .

كنت أسمع إن المية في الأماكن إلي فيها ملح ما هيه غميكه! لكن حسيت ونا بطلع عالبحر إنه كله غميك! ون إلي ما بعرف يسبح رايح يغرك! مع

إني سمعت إن مية هالبحر ما بتغرك مثل باقي البحور. حاولت أقنع حالي بهالحكي، لكني ما اقتنعت، وحسيت إن البحر أرهب بكثير من الصورة إلي كنت متخيلها. وبديت أخاف، وأفكر في كلام أمي وخوفها وحزنها .

****

علي الخطيب

قمت من النوم. نظرت حولي. لم أشاهد حسن. ناديت <يا حســـــن> لم يرد أحد. ناديت مرة أخرى بصوت أعلى. رد علي من فوق الجبل .

- شو بتسوي عندك يا عمي؟
- بتفرج عالبحر.
- خليك مطرحك جاي لعندك.

أطلقت الدواب لترعى. حملت صرة طعامي وطعام حسن وابريق الشاي وقربة الماء وطلعت لعنده .

انتشر الخطار في الوادي وعلى التلال المشرفة على البحر. وأطلقوا دوابهم ترعى بين الأودية، وراحوا يشعلون النار ليغلوا الشاي. وعلى التلال المقابلة لنا انتشر العبيدية والتعامرة. سألني حسن :

- ما بتيجي الدوريات في النهار يا علي؟
- لا يا عمي .
- ليش؟
- لأنهم يعرفون أن الخطار لا ينزلون إلى البحر في النهار.
- لعاد خلينا ننزل.
- الله يرضى عليك يا عمي، الناس بيشوفونا وببلغوا الحكومة.

أشعلنا النار. صعد الدخان من عندنا ومن الوادي ومن السفوح والتلال التي صعد إليها العبيدية والتعامرة .ولم نسمع إلا وأحد العبيدية يصرخ فينا من الجبل المقابل:

- يا ناس يحرق امكم في عزا أبوكم ما عرفتوا تشعلوا النار في الواد، وتغلوا الشاي بعدين تطلعوا تدردوه فوق !!

رد عليه واحد من جماعتنا !

- هوه انت صبحت فاتح عقيرتك علينا على هالصبح ليش؟ هم إلي بدهم يشوفونا رايحين يعرفوا إنا خطار؟ !

رد العبيدي عليه :

- لا سيظنون أنك سائح يا أبو القمل !!

رد رجلنا بغضب :

- قمل في بيت إلي خلفك يا جيفة يا ابن الجيفة !!

- أنا جيفة يا بن عشيرة جايفة؟! والله إن جيتك لدحرجك من فوق هالجبل !

وثارت حمية رجلنا ونهض وراح يعدو نحو العبيدي وهو يردد :

- والله لأحرق اظلاع إلي خلفك، خليك عندك لشوف مين يدحرج الثاني؟ باطل ولا ما تكون ولدتني سحورية !!

وتابع انحداره عدوا وهو يستنجد بخطار السواحرة !

< وينكم يا سواحرة، العبيدي النذل يسب على عشيرتنا>

ثارت نخوة رجالنا فانفضوا من أماكنهم. قال حسن :

- شو بدنا نسوي يا علي؟

قلت له :

- خليك كاعد يا عمي .

قمت. جريت خلف رجلنا لما لحقته. أوقفته وأوقفت رجلا آخر كان يندفع خلفه. وحلفت على باقي الرجال أن يختصروا الشر .

قالوا:

- هوه إلي بدا يسب علينا .

قلت :

- العبيدية جماعة طياب وحقنا لن يضيع عندهم .

حاولوا الإفلات مني فلم يستطيعوا .

وصل بعض العاقلين من جماعتنا وحجزوا الهواشين، ورأيت رجلا من العبيدية يسبق الرجال الذين كانوا يركضون خلف العبيدي، الذي دبت فيه الرجولة ونزل يجري ناحيتنا. صرخ فيه:< هيه يا ابن البغل! وين كار على السواحرة لحالك؟ هالساع دبت فيك الرجولة يا نذل! كنت ورينا مراجلك على اليهود! وقف ولا والله لجيب خبرك !! >

توقف العبيدي في مكانه، لحقه الرجل الثاني الذي بدا أنه محترم عند قومه، فقد صفعه كفين دون أن ينبس، وجعله يرجع مع باقي العبيدية، فرجع رجالنا بدورهم .

جاءنا ثلاثة رجال من العبيدية مع الرجل الذي أوقف الإشتباك قبل أن يحدث .

قال لنا الرجل :

< حقكم علينا يا سواحرة ولي تريدونه نحنا نسويه>

تشاورنا بيننا! اتفقنا أن نسامح العبيدية لأنهم جاءوا لعندنا .

قمت حفرت حفرة صغيرة ووضعت فيها حصوة! قلت للعبيدية <والله لوانكم قتلتوا منا رجل وجيتوا لعندنا لسامحناكم بدمه، جيتكم عزيزة علينا يا جماعة>ومددت يدي نحو الحفرة وطمرت الحصوة بالتراب وأنا أقول< هذا عليها يا رجال،اعتبروها حصوة ودفناها! حياكم الله!> و حطينا على القضية جورة وصرارة !!

خجلنا العبيدية.. قاموا وخلوا رجلهم يبوس روسنا كلنا، لأنه شتم العشيرة .وشربنا الشاي معا. واتفقنا أن لا نشعل النار مقابل البحر، وأن لا نتجمع، حتى لا نلفت انتباه أحد، وأن لا ندع الدواب تخرج من الأودية.

ارتفعت الشمس قليلا. قال حسن :

- خلينا نرجع نقعد مقابل البحر .
فكرت للحظة :
- والله يا عمي إن القعدة فوق ما بتتفوت، يله لنصعد قبل أن تحمى الشمس .
صعدنا. جاء إلى الشاطىء سيارات وباصات سياح، نزلوا من السيارات، رجالا ونساء، تعروا ونزلوا إلى البحر. قال حسن :
- خلينا ننزل نتفرج عليهم .
قلت له :
- ممنوع يا عمي، بتطردنا الشرطة السياحية !
- ليش؟
- عشان معهم حريم مزلطات يا عمي !
ولا أعرف لماذا قال حسن :
- وحنا ما إلنا إلا التعب والشقاء !
قلت له :
- بتهون يا عمي يا حسن بتهون .

سكت وسرح بعينيه إلى البحر. سرحت أنا أيضا. نظرت إلى الملاحات. فكرت : <مسكين هذا الولد كم تعبت أمه حتى انتشلته هو وأخوته من الموت والعوز، والآن خايفه عليه، يحق لها والله، يحق لها! وأنا حاسس إنه حمل على ظهري، ولن أرتاح إلا بعد أن أعيده إليها سالما، الله يسامحها، ما لقيت واحد غيري توديه معه؟! >

فكرت في الأمر كثيرا، خفت أن تكون المياه في الملاحات عميقة، فيغرق الولد، قلت لحالي< أفضل شي ما أخليه ينزل للبحر، وإذا ساعدني الخطار كلهم، لن يصيب الواحد إلا حفنة ملح،، نملأ الكيسين اللذين

معه، ونحملهما على الحمارين ونعود، المهم أن لا أدعه ينزل إلى الماء ولو ملأت الكيسين وحدي .

نظرت إليه. شاهدته سارحا يفكر .

- حسن؟

- نعم !

- ألله ينعم عليك يا عمي، البحر صعب على من لم يعتد عليه يا عمي، وأنت صغير، وهذه أول مرة تخطر فيها إلى الملح، ابق عند الحمير يا عمي، ونحن نملأ أكياسك !

نظر إلي :

- إنت خايف علي يا علي؟

- والله يا عمي إن أردت الصدق إني خايف. وما تنسى إن أمك وصتني عليك، ولا يهون علي أن يحدث لك شيء لا سمح الله .

سكت قليلا. رنا إلى البحر وهو واجم. ضم شفتيه، عض على السفلى، وكسر عودا صغيرا كان في يده، نظر إلي نظرة واثقة :

- اسمع يا علي !

- أنا مصغ لك يا حسن.

- الحقيقة إني ما كنت خايف من البحر، لكن لما شفته وتذكرت خوف أمي، خفت، وخوفك الآن خلاني أحس بالخوف أكثر، لكني سأنزل في الماء وأملأ أكياسي بيدي، ولا أقبل أن تملأوها عني، وليكن ما يكون. !!

- لماذا هذا الإصرار يا حسن ؟

- لأنها ليست المرة الوحيدة يا علي، ممكن أن يساعدني الخطار هذه الخطرة، وخطرة أخرى، لكن ما ممكن يساعدوني الخطرات كلها. لا بد من نزولي إلى الملاحات يا علي حتى أعرف دروبها ومخاطرها

ومتاهاتها..

نظرت إليه لبرهة. كلامه صحيح. مددت يدي. ربت على ظهره. قلت له :

- ولا يهمك يا حسن، اتكل على الله يا عمي وإن شا الله ما يصير إلا الخير .

قعدنا حوالي ساعتين. نزلنا إلى الوادي، تغدينا، ووضعنا رؤوسنا ونمنا في ظلال الصخور .

* * * * * * * * * * * * * * * * *

قمنا في المساء. تعشينا. سقنا الحمير قدامنا وربطناها عند باب الوادي بين التلال، حتى لا تراها دورية الشرطة إذا جاءت. نزعنا ملابسنا وتركناها عند الحمير. أخرجنا الصفائح من المخابىء، أعطيت حسن صفيحة، قلت له< هاي صفيحة مثقبة من تحت لتغرف بها الملح يا عمي >

حملنا الأكياس ومشينا. وصلنا الملاحات. وجدنا العبيدية والتعامرة سابقينا ومحتلين راس البحر كله. قلت< يا رب اجعل هذه الليلة تمضي على خير ولا تجعل العشائر تتقاتل على الملح فيها>

نزلنا إلى الماء. اختلط الناس الواحد بالآخر، قلت لحسن :

<خليك واقف يا عمي لأبحث لك عن ملاحة قليلة الماء>

رحت يمين، رحت شمال، هناك ملاحات لم أتمكن من عبورها إلا سباحة، وصلت إلى مقربة من مصب الشريعة فما وجدت. رجعت إلى حسن. قلت له إنني لم أجد. انحنيت في الماء مددت يدي تحت، تحسست الملح، وجدته قليلا، أخذت ملء يدي منه، قربته من عيني، لم يكن نظيفا، أخذت حسن لملاحة أخرى، وضعنا الأكياس إلى جانبها ونزلنا فيها .

قلت له :<ابعد إلى جانب الملاحة يا عمي، إياك أن تتعمق إلى منتصفها، المياه عميقة >

أمسكت بيده وقدته حتى بلغ الماء حزامه. قلت له : <إياك أن تغوص أكثر من هنا>

انحنيت تحت الماء، غرفت بالصفيحة شيئا من الملح، أعطيته إياها، ذهب وأفرغها في الكيس وعاد، قلت له :

< عندما تنزل تحت الماء اغمض عينيك، وإياك أن تتنفس تحت الماء، هه>!

ومن خوفي عليه أعدته إلى جانب الملاحة، حتى لا ينزل رأسه تحت الماء عندما ينحني. قال الملح قليل هنا! قلت له <معلش يا عمي، أنا بساعدك بعد ما أملأ أكياسي، فهمت؟>

قال: فهمت إنما سأتقدم قليلا .

- لكن إياك أن تتجاوز المكان الذي قدتك إليه، وإياك أن تذهب يمينا أو شمالا، هناك أماكن عميقة في الماء، وإذا دخلت مياه الملح في عينيك لا تستطيع فتحهما، وإذا شرقت بها لا تعرف الطيط من الغيصلان!! وقد تموت هه، دير بالك يا عمي ألله يرضى عليك>

قال: ولا يهمك !

وقبل أن أبتعد عنه، قلت له أهم شيء:

- إذا جاءت دورية الشرطة وأنت في الماء، لا ترتبك يا عمي، توقف فورا، وضع اصبعيك، السبابة والإبهام، على أنفك، وعندما ترى ضوء الكشاف يتجه إلى ناحيتك، اغطس تحت الماء - إياك تنسى أن تغلق أنفك- لحظة ويكون ضوء الكشاف قد ابتعد عنك، تطلع.. إياك أن تتنفس تحت الماء أو تفتح فمك هه! وكيسك تتركه ممدا إلى جانب الملاحة، لا توقفه، وعندما يصير فيه قليلا من الملح، اذهب وافرغه في الكيس الذي عند الحمير، وعد بسرعة، وإذا جاءت الدورية، وأنت في الطريق تمدد على الأرض أو اكمن بجانب شجرة أو أي شيء، أفهمت؟

قال: فهمت، ولا يكون لك فكر !!

ابتعدت عنه قليلا. رحت أبحث عن مكان فيه ملح كثير. غطست تحت الماء، تحسست القاع، الملح قليل، وجدت ضرسا صغيرا، حملته وطلعت، مسحت الماء عن رأسي ووجهي وعصرت شعري إلى الوراء لكي لا ينزل الماء في عيني عندما افتحهما. <أيه لن نملأ الأكياس حتى الصباح على

هذا المعدل. ليت هذا البحر قريب من بلدنا، لسرقنا المياه وانتظرناها إلى أن تجف عن الملح، وما تعذبنا هذا العذاب . >

* * * * * * * * * * * *

ملأت حوالي ربع الكيس. حملته وأرسلته إلى عند الحمير ورجعت. قلت أروح ناحية حسن أطمئن عليه وجدته متوغلا في الماء، وقد جمع بعض الملح .

- يعطيك العافية يا حسن .
- الله يزيدك عافية .
- كيف الشغل معك؟
- مليح، لاو ما نزلت مية الملح في عيني، لملأت أكثر .
- استريح اشوي يا عمي .
- ماشي الحال بغمظ عين وبفتح عين !!!
- ما قلت لك خليك إلى جانب الملاحة يا عمي الله يرضى عليك .
- الملح هناك قليل يا علي، ما جمعت إشي !
- انتبه يا عمي !
- توكل على الله .

نظرت من حولي لعلني أرى الملاحين، لم أشاهد أحدا في هذا الظلام. الناس متفرقون في الملاحات ويعملون بصمت شديد، وإن كنت أسمع بين الفينة والأخرى

بحركة بعضهم على مقربة منا .

غطست تحت الماء، ملأت شيئا في الصفيحة وطلعت، مسحت رأسي من الماء وفتحت عيني، فوجئت بضوء كشاف الدورية وقد سلط على المنطقة من مسافة بضع مئات من الأمتار، وأخذ يمشطها من الشمال

إلى الجنوب، لم أتمكن من النظر إلى حسن لأن الضوء جاء إلى ناحيتي، أطبقت باصبعي على أنفي وغطست تحت الماء، أطلعت نصف رأسي بعد أقل من دقيقة، شاهدت الضوء على منطقة حسن، تأكدت أنه غاطس تحت الماء، قلت <يا رب ابعد الضوء عن منطقته واحفظه بجاهك وجاه هذا الليل الميمون !!>

ابتعد الضوء ناحية الجنوب. سبحت ناحية حسن لأطمئن عليه، لكن ضوء الكشاف رجع بسرعة .. همست :

- يا حسن !

قال: نعم .

- لا تخف يا عمي الآن ينقلع....

ودهمني ضوء الكشاف ولم أكمل، غطست لحظة وطلعت. رأيت ضوء الكشاف يتجه ناحية الشمال. قلت له؛

- الآن ينقلعون يا عمي. اصمد اشوي وخذ حذرك هه .

ولم أسمع ماذا قال لأن الضوء دهمني ثانية .

غطست.. طلعت.. ابتعد الضوء.. قلت :

- سمعت يا حسن؟

قال :

- سمعت، لكن الماء دخل عيني، ولا أستطيع أن أفتحهما نهائيا، كيف سأرى الضوء يجيء إلى ناحيتي؟

قلت :

- امسح عينيك وتحمل يا عمي .

وسمعت الناس يهمسون لنا < بدون كلام أنت وهو، تريدان أن توقعانا في داهية؟>

سبحت ناحية حسن. لكن الضوء دهمني. همست :

- اغطس يا حسن !

غطس وغطست بعده. وحاولت أسبح ناحيته. طلعت بعد لحظة صغيرة، قلت<اطلع يا حسن> لكنه لم يطلع!! أدركت أنه لا يسمع صوتي من تحت الماء. سبحت ناحيته. رجع الكشاف. غطست.. طلعت. لم يطلع حسن !< يا إلهي، صار له حوالي دقيقتين تحت الماء> شاهدته يطلع. صرخت به :

- أنا قادم إليك يا حسن لا تخف يا عمي .

قال :

- الحقني يا علي سأموت !

قلت؛

- أنا أموت عنك يا حسن، روحي فداك يا عمي !

سبحت ناحيته ..< يا رب توقف هذا الضوء قليلا حتى أصله وأغطسه وأطلعه معي ! >

رجع ضوء البين علينا! صرخت له: اغطس. وغطست .

< يا ملعون أبو إلي انت ضوه من وين جيت؟>

طلعت من تحت الماء وعيناي على حسن، لم يطلع. رجع ضوء الكشاف، طلع حسن، ما كاد يتنفس يا ويلاه، قلت له: أغطس. وغطست! يا رب امتني أنا وأعد هذا الولد سالما لأمه. طلعت. طلع حسن. رجع الكشاف. أغطس! وغطست .

طلعت. لم يطلع حسن. رجع الضوء مرتين وغطست وطلعت وهو تحت الماء . طلع فيما بعد وشاهدته يخابط بيديه. استنجدت بكل الأنبياء والمرسلين، صار الضوء يروح ويجيء بسرعة مخيفة، صرت أغطس وأطلع وعقلي مع حسن، وعلقت كلمة (اغطس) بلساني، فما أن أطلع وأتنفس إلا والضوء راجع،

أقول لحسن:اغطس! ورغم أنني أعرف أنه لا يسمعني تحت الماء، كنت أقول: إطلع !لما أطلع. وظليت أتمنى من الله أن يفدي هذا الولد بروحي ويعيده سالما لأمه .

* * * * * * * * * * * * * * * * *

الراوي

ها هي اولى القوافل تقترب من سفوح جبل المنطار، وأطفال عائشة العلان يهرعون من البيت. يتحلقون حول أمهم ويرقبون القوافل من على قمة الجبل.. يسألونها :

- ألم يأت أخونا يا أمنا؟

فتجيب :

- إن شاء الله يأتي بالسلامه يا أولادي .

تضع جزة الصوف والمغزل في خريطة الخيش وتنهض. تحمل الخريطة على ظهرها.. تقود ابنتها الصغرى (ندى) من يدها وتشرع في نزول الجبل يتبعها

محمد ووطفاء .

تطلق بصرها جاهدة لتتأكد من هوية القافلة. لا تستطيع. تسير بخطوات حثيثة . تقترب من القافلة، تنغرس شوكة في إحدى قدمي البنت العاريتين. تتألم وتفلت يدها من يد أمها وتجلس لتقلع الشوكة .

* * * * * * * * * * * *

دواب منهكة تسير مثقلة بأكياس الملح. العرق ينضح من أجسادها، واللهاث يبعث صفيرا من أنوفها، والرجال يسيرون خلفها بخطوات متعبة مترنحة وقد خارت قواهم. والتصقت ملابسهم بأجسادهم من جراء العرق المتصبب، وتقصفت شفاههم الجافة، وارتسمت على وجوههم مسحات من الكآبة المفجعة، وتورمت عيونهم وانتفخت من جراء مياه الملح، تتعثر أقدامهم بين الفينة والأخرى، وهم يدارون ألم الحرقة الذي تحدثه مياه الملح في أجسادهم، فقد تسلخ ما بين أفخاذهم، فأخذوا يسيرون وقد باعدوا ما بين أفخاذهم ..

تمر عائشة العلان من جانبهم.. لا ينظرون إليها.. تتأمل الدواب المنهكة تحت الأكياس.. تسأل أحدهم :

- ألم تروا خطار السواحرة يا أخي؟

يشير الرجل بيده إلى الوراء ويقول :

- مع الناس الذين وراءنا يا خاله .

ويتابع سيره المتهالك خلف الحمار .

تتجاوز عائشة عشرات الحمير والبغال. تمر عنها مجموعة أخرى. ترى ثلاثة رجال يسيرون خلف أحد الحمير. تقترب منهم. تتسمر عيناها على جثة رجل مربوطة بالحبال وقد تدلى رأسه وقدماه على جانبي الحمار. تهرع إليهم :

-البقية في أعماركم يا أخي !

يجيب أحدهم بكلمات يثقلها الحزن :

- وعمرك يا خاله .

- خير إن شاء الله يا بني؟

- جاءت إلينا الدورية ونحن في الماء، شرق ومات، ألله يكون في عون أمه ليس لها غيره !

- يا حسرتي عليه!

رددت ذلك وهي تهمد على الأرض وتجلس في مكانها مذعورة، هرع الرجل إليها .

- ما بك يا خاله ؟

- ولدي يا ولدي!!

- ولدك مع الخطار ؟

- ايه يا بني.

- أي خطار ؟

- خطار السواحرة يا بني.

- توكلي على الله يا خاله، ما مات منهم إلا واحد حسب ما سمعت !

أحست بقلبها يتقطع، وجاهدت وهي تقول :

- ألا تعرف كم عمره يا بني؟

- والله لا أعرف يا خاله .

وانصرف الرجل خلف الرجال .

مكثت جالسة في مكانها لا تقوى على النهوض. خاطبت أولادها .

- إرجعوا إلى البيت يمه الله يرضى عليكم، أخوكم قد يتأخر، والدجاجات بحاجة إلى ماء وعلف، روحوا ضعوا لها، والصيصان أخاف أن تخر العقبان والصقور عليها وتخطفها، ارجعوا يا إمي ارجعوا .

ويرجع الولد والبنتان تحت إلحاحها .

الخطار يمرون.. مر كل خطار العبيدية، وهاهم خطار التعامرة يطلون من سفح تلة. تجاهد لتنهض على قدميها لكنها لا تستطيع .

مر حماران يتبعهما رجل، ومر ثلاثة يتبعها ثان، ومر اثنان يتبعهما آخر.

ويمر الخطار بدوابهم المثقلة المنهكة وهي تجلس خائرة القوى .

هاهي جثة ثانية محمولة على حمار يتبعها خمسة خطار.. يمرون من جانبها.. يلقون عليها نظرات حائرة حزينة ويمرون... تمر مجموعة خطار آخرين يمتطون بغالاً . ..

هاهي جثة أخرى يتبعها أربعة رجال تطل.. يمرون عنها ويبتعدون .

<أين قافلة البلد، لماذا لم تأت حتى الآن، هل ستشاهد عيون حسن؟ لن تدعه يعود للملح ثانية ولو سيأتيها ببحر الملح كله! والشيخ علي -يدهاه في ماله وعياله – هو سبب كل هذا الشقاء> نظرت إلى ما

حولها.. شاهدت القوافل تصعد منعرجات جبل المنطار وتتوارى خلفه .
حدقت لتشاهد أولادها، لكنها لم تشاهدهم. شردت :

(طارت بجناحين من اقحوان! قطعت التلال والأودية، بلغت قافلة الخطار، حطت فوقها، شاهدت حسن يسير خلف الحمارين، والعرق ينضح من جبينه. ضمته، قبلته، سقته ماءً بارداً من القربة، احتضنته، حملته وطارت به) هاهي قافلة البلد تطل. تنفرد أسارير وجهها. تجاهد لكي تنهض، تنهض، تسير، تستقبل القافلة : هذا أحمد السلمى خلف حماريه يدنو منها، ينظر إليها متمعنا ثم يطأطىء رأسه إلى الأرض ويسير خلف الحمارين دون أن ينبس ببنت شفة، يتجاوزها دون أن ينظر إليها أو يرد التحية.. تنده له :

- ابني يا أحمد، ما شفت ابني؟

يشير بيده إلى الوراء دون أن يلتفت نحوها .

تحس أن قواها عادت تخونها، فهاهم خطار البلد يمرون عنها ويتجاهلونها ولا يجيبون على تساؤلاتها، أو يشيرون بأيديهم إلى الوراء، تتهاوى متهالكة في مكانها.. أطل علي الخطيب من سفح التلة.. نظر.. شاهدها تجلس على قارعة الطريق، لم يخطر له أنها قد لا تكون هي، لقد جاءت اللحظة التي حسب حسابها ألف مرة ومرة، (ماذا يقول لها بحق كل الأنبياء؟! هل يقول أن ضوء الكشاف حاصرهم لمدة تقارب الساعتين، وأن معظم الخطار قد شرقوا بالماء، ولم يسلموا إلا لأنهم اعتادوا هذه المياه اللعينة القذرة، وأنه عمل كل ما في وسعه لينقذ حسن، بل وتمنى أن يموت هو بدلا منه؟!)

أحس أن الموت أهون عليه من مواجهتها. توقف. فتوقف حسين الرشود إلى جانبه، وتوقف الحما ر الذي يقل جثة حسن أمامهما، ولم يعرفا ماذا يفعلان .

حدقت عائشة العلان باتجاههما.. ارتابت من وقفتهما.. أيقنت أن أحدهما لا بد وأن يكون علي الخطيب وإلا لما توقفا . . .نهضت واقفة على ساقيها الخائرتين.. هرعت نحوهما. أحست بأن رجليها لن تبلغا بها المكان.. اقتربت منهما.. شاهدت الجثة على الحمار.. حدقت تتأملها.. خارت قواها أكثر من جديد.. جاهدت، حنت ظهرها واستمرت في هروعها.. أقبلت على الجثة، تأملت القدمين البارزتين من تحت الكيس والمدلاتين على جانب الحمار (إنهما قدما حسن) أجل إنهما قدما حسن !!

تعثرت خطاها.. سقطت.. حبت على أربع.. اقتربت.. مدت يديها.. تشبثت بقدمي حسن، ضمتهما وسقطت متهالكة عليهما وهي تلثمهما وتردد من أعماق فجيعتها:

(عدوينك يموتون عنك يا ولدي يا عيوني)

وخرت مغشيا عليها ..

* * * * * * * * * * * * * * * *

١٩٧٨

العبد سعيد

(١)

طرحت الجدة زبيدة عصبتها عن رأسها وأصلحت من وضع جلستها فوق كيس الخيش، وأخذت تروي قصة العبد سعيد للفتيات اللواتي تجمعن من حولها:

(يجوز أن لا تصدقن هذه القصة يا بنات، لكن وحياة أولاد أولادي أنني لا أكذب عليكن.. كنت ألعب مع أولاد العشائر في السهل الفسيح المنبسط أمام عشرات بيوت الشعر، وكان سعيد ابن عبد الشيخ علي يلعب معنا. كم شاهدت في حياتي أبناء عبيد لكني لم أشاهد مثل ذاك الإبن.. وحياة رأس والدي أنه كان كان ينقض على الأولاد كما ينقض الصقر على طيور الحجل.. ولد يا بنات، ولد لم تلد مثله النساء من قبل.. فهو أطول من عمود البيت، وله وجه لوحته السمرة، وبلا ركبتين، لذا كان يسبق كافة الأولاد في الجري.)

وبينما كنا نلعب ذلك اليوم، مر الشيخ علي يتبعه العبد قعدان.. كان أولاد العشائر يهجمون على سعيد من كل صوب، فيصرخ في وجوههم ويبدأ بطرحهم أرضاً واحداً بعد الآخر. أما نحن الفتيات فكنا نقف جانبا ونرقب المعركة باهتمام.. تصورن أنه كان يطلب من أبناء العبيد عدم التدخل في الصراع والوقوف إلى جانبه ضد أبناء العشائر، إلا إذا هزم، لكنه نادرا ما كان يهزم.

وعندما شاهده الشيخ علي، وقف يرقبه في اندهاش من على ظهر جواده، كان قد طرح كافة الصبية أرضاً، وعاد يقف إلى جانب أبناء العبيد، ونحن نقف في ابتهاج، حتى أن صبية العشائر طأطأوا رؤوسهم خجلاً منا.

التفت الشيخ إلى العبد قعدان وقال له (إذا ما كبر هذا الطفل فلن تبقى امرأة في العشيرة إلا وتنزع ثيابها له، اذهب وأتني به سأقطع خصيتيه) !! وقف العبد قعدان حائراً للحظة، ثم تهاوى على الأرض وأخذ يبكي ويذر التراب على رأسه!!

قال له الشيخ:

- ما الذي ألم بك يا عبد النحس؟

قال العبد قعدان:

-إنه ابني يا سيدي الشيخ إنه ابني!!

فقال الشيخ:

-أنا لا يهمني إذا كان ابنك أم غيره، يجب أن تحضره وإلا ستكون وذريتك مطرودا من عشيرتي حتى سابع عشيرة إلى يوم الدين!!

ولكز الجواد فانطلق به نحو مضرب العشائر.

لم يجد العبد قعدان مفراً من ذلك.. نهض عن الأرض وسار باتجاه الأولاد. قاد ابنه من يده والدموع تتدحرج على وجنتيه.. وسار عشرات الأولاد من خلفهما ..

بلغ الخبر مسامع الناس فتجمعوا في الساحة أمام بيوت الشعر، وأحاطوا بالعبد قعدان وابنه..

أشعل الشيخ النار، وأحضروا له سكيناً فوضع نصله فيها..

قال سعيد لأبيه قعدان:

- لماذا أشعل الشيخ النار ووضع السكين فيها يا أبي؟

لم يعرف الأب بماذا يجيب، لكنه خاطب الشيخ:

- ألا يسمح لي سيدي الشيخ أن أبتعد لأنني لا أستطيع تحمل ما سيحدث.

سمح له الشيخ قائلا:

- إلي بالولد ولتنصرف حيثما شئت:

أسلم العبد قعدان ابنه إلى الشيخ وانصرف.

أحس الولد بالرعب فأخذ يصرخ وينادي والده جاهدا لأن يفلت من يدي الشيخ، لكن يدي الشيخ كانتا تتصلبان على معصميه عدا أنه أمر بإحضار الحبال ليقيدوا الولد ويشلوا حركته.

قيدوه من يديه ورجليه، لكنهم لم يحدوا من حركته، فأمسك رجلان بيديه ورجلان بقد ميه..

ثم جاؤا بخيط من القنب حصروا خصيتي الولد أسفل كيس الخيصيتين وربطوا الخيط من فوقهما.

أخرج الشيخ السكين من النار فبدا أحمر كاللهب.. ابتعدت بعض النساء فيما أخفى بعضهن وجوههن.. وهرعت أم سعيد من بعيد وهي تصرخ (ابني ابني) مرر الشيخ السكين من تحت الخيط فقطع الخصيتين وألقى بهما بعيدا فلاحقتهما عيون الناس وهرع الأطفال نحو المكان الذي ستسقطان فيه!!

انقضت أم سعيد كلبوة فقدت أشبالها.. انتزعت الولد من بين أيدي الرجال وانطلقت به عائدة إلى البيت وهي تصرخ بحرقة وألم.

* * * * * * * * * * * * * * * * *

(٢)

قلت لكن أنه يجوز أن لا تصدقن يا بنات، لكن هذا ما حدث بالفعل وهو ليس كل الذي حدث، فقد كبر سعيد وأخذ يرعى قطعان الشيخ التي يزيد تعدادها على سبعة آلاف وخمسمائة نعجة وماعز. نعم يا بنات كان يرعى كل تلك القطعان وحده، ويا ليتكن ولدتن من قبل لتشاهدن ذاك الفتى الأسمر، إنه الراعي الوحيد الذي لم يكن يصطحب الكلاب معه، وقد لا تصدقن أنه عندما كان الذئب يسطوا على قطعانه كان يجري خلفه إلى أن يلحق به ويخلصه الشاة التي خطفها ثم يسمه بوسم القطيع على أذنه ويطلق سبيله!!

إن هذا أغرب من الخيال يا بنات لكنه ما حدث بالفعل فلا تلمنني إذا ما تنهدت وبكيت بحسرة على ذاك الفتى الأسمر الطيب ن فكم من أرانب برية وذئاب وضباع وغزلان أمسك بها ووسمها بوسم القطيع وأطلقها.

آه آه..!! أما عندما كان يعزف على الناي أو المجوز أو الأرغول، فهذا ما لا أستطيع وصفه لكن. قلت لكن يا ليتكن ولدتن من قبل لتشاهدنه، فهؤلاء الرجال الذين تشاهدنهم الآن ليسوا رجالا!!

كان سعيد يجلس دائما على رابية عالية والقطعان تنتشر من حوله في الأودية وفي الجبال وبين الشعاب، ويشرع في العزف:

تثبت كل شاة في مرعاها.. تتوقف الطيور عن تغريدها.. تمر أسراب القطا عبر الفضاء وتحلق فوق رأسه ثم تحط على مقربة منه.. تتوقف النساء عن قطع الحطب وتعشيب الزرع، وقطف الخبيزة والبابونج ويجلسن يتنصتن.

تداعب أصابعه ثقوب المجوز بخفة.. ينتقل الصوت عبر الأودية والشعاب ليتردد صداه من قفر إلى قفر محمولاً على أجنحة الريح!!

تخرس كل نايات الرعاة وأراغيلهم ومجاوزهم.. تتجه أغنامهم إلى الناحية التي يسمع فيها صوت مجوزسعيد.

تدور النشوة في رؤوس النساء اللواتي يحتطبن أو يغسلن الثياب أو يعشبن، فيتسللن إلى سعيد وينزعن ثيابهن أمامه، إذا لم يكن في مرأى من أعين الناس، وإذا كان كذلك فكن ينزعن ثيابهن في أماكن تقيهن العيون!

وذات يوم يا بنات –قربن آذانكن لأهمس لكن– كنت أحتطب في واد يرعى فيه سعيد قطعانه. سمعته يعزف فتسللت إليه.. نزعت ثيابي أمامه قطعة قطعة وجلست عارية بين يديه!! لم يتوقف عن العزف وخلال لحظات كانت نسوة كثيرات يتعرين ويجلسن أمامه خاشعات بين الحجارة والصخور!!

* * * * * * * * * * * * * * * *

(٣)

لا تصدقن يا بنات من يقول أن المرأة لا تؤتمن على سر، فلم يكتشف أحد أن النساء يتعرين عندما يسمعن عزف سعيد، على الرغم من أن أغلب نساء العشائر تعرين عند سماعه ولو داخل خدورهن!!

وجاء يوم يا ليته لم يأت! آه آه فقد جاء فرسان الأتراك من القدس ليجمعوا الضرائب لخزينة السلطان. كانوا يجوبون الأودية والجبال بحثا عن القطعان لتعدادها وللحصول من أصحابها على ضريبة عن كل شاة. أقبلوا على سعيد.. كانت قطعانه تنتشر على مساحات كبيرة بين الأودية وعلى سفوح الجبال وقممها..

قال له مأمور الفرسان:

- أنت الذي ترعى كل هذه القطعان؟
- نعم يا سيدي المأمور.
- وحدك؟
- نعم وحدي يا سيدي!
- وهل تستطيع حمايتها من الذئاب؟
- نعم يا سيدي.
- وكيف تتركها تنتشر بين حقول الزرع هكذا؟
- إنه لم ينبت جيداً بعد يا سيدي المأمور، ثم إنني طوعت قطعاني على عدم الإقتراب من الزرع!!!

وهنا صمت المأمور للحظات مخفيا دهشته من قول سعيد، وراح يجوب بنظراته مختلف الجهات فبدت له الأغنام أكثر من النمل، فاحتار في أمره ولم يعرف كيف سيعدها.. نظر إلى سعيد:

- قل لي أيها العبد!!

- نعم يا سيدي المأمور.

- ألا تتفقد قطعانك كل يوم؟

- نعم إنني أتفقدها يا سيدي.

- كيف؟

- أقوم بعدها يا سيدي!

- ألم يسبق ووجدتها تنقص شاة أو أكثر؟

- لم يسبق يا سيدي!

- وكم تعداد قطعانك؟

- سبعة آلاف وثمانمئة وإحدى وثمانون شاة يا سيدي!!

- وهل كلها لسيدك؟

- إنها لكل العائلة يا سيدي لكن سيدي يملك أكثرها.

وصمت المأمور قليلا.. نظر إلى وجوه الفرسان، ثم نظر إلى سعيد:

- اسمع أيها العبد!

- نعم يا سيدي.

- أنا أصدقك ولن أقوم بعد القطعان، لكنني لن أبرح مكاني هذا قبل أن أرى كيف تجمعها وتعدها، ما رأيك؟

صمت سعيد للحظة موجسا أن يحدث له شيء، قال:

- هل يحلف سيدي المأمور بالله ورأس السلطان أن لا يمسني بسوء إذا ما فعلت ذلك؟

- إنني أحلف أيها العبد!

وهنا اعتلى سعيد صخرة عالية يا بنات، هيأ مجوزه وشرع يعزف لحناً خاصا..

نزل الفرسان عن خيولهم حين أدركوا أنهم سيسمعون عزفاً غير عادي،

وجلسوا على الحجارة ينصتون وينظرون إلى القطعان..

أخذت الأغنام تهرع من كل صوب وتقف في طوابير منتظمة أمام سعيد.. انتظمت النعاج في طابور والمعز في طابور آخر.. وصلت كافة الأغنام وانضمت إلى الطابورين.. توقف سعيد عن العزف لكنه لم ينزل عن الصخرة.

همس المأمور في اذن معاونه:

- قل لي بربب الكائنات؟!

- ماذا يا حضرة المأمور؟

- إذا كان هذا فعل العبد بالأغنام، فما بالك بالنساء بالله عليك ؟!!!

همس المعاون دون تردد:

- أعتقد أنهن يشمرن له عن أفخاذهن يا حضرة المأمور!!

ونظر المأمور إلى سعيد نظرة ماكرة:

- ألا تنزل أيها العبد؟

تنبه سعيد بفطنته إلى أن المأمور يبطن له الشر!!

- لن أنزل يا سيدي!!

اعتلى المأمور جواده وحاول أن يصعد إلى سعيد، لكنه لم يظفر به، فقد وثب سعيد عدة وثبات وراح يتسلق صخور الجبل، فلم يستطع الجواد أن يلحق به، لكن المعاون تنبه إلى أمر هام، فالتفت إلى المأمور:

- جاءتني فكرة يا حضرة المأمور!

- ما هي قل؟

- أعرف أن هؤلاء العبيد يحرصون على القطعان التي يرعونها أكثر من حرصهم على أنفسهم، فإذا ما أوهمنا هذا العبد أننا سنأخذ قطعانه، فسيلحق بنا لاستردادها.

- أنت مدهش يا حضرة المعاون، هيا بسرعة ولننهل على الأغنام بالسياط.

- أحاط الفرسان بالمعز والنعاج وانهالوا عليها بسياطهم وساقوها أمامهم. جن جنون سعيد فأخذ يصرخ من على صخرة مناديا:

(ألم تحلف بالله ورأس السلطان أنك لن تمسني بسوء يا سيدي المأمور فلماذا تأخذ قطعان سيدي)؟

خاطبه المأمور بأعلى صوته:

(لن نفلت الأغنام إلا إذا سلمت نفسك لنا أيها العبد)!

شاهد الناس الفرسان يسوقون القطعان فأخذوا ينظرون من على قمم الجبال..

هرع سعيد خلف الفرسان وهو يدرك في قرارة نفسه أنّه يسلم نفسه إلى قدره.. لحق بهم.. لم يكن خائفاً.. نزل الفرسان عن خيولهم. أمسكوا به.. قيدوا قدميه وطرحوه أرضاً. وضعوا يده اليسرى على حجر.. استل المأمور سيفه وأهوى به على أصابعها فبترها.....

* * * * * * * * * * * * * * * *

(٤)

ايه يا بنات.. قلت لكن أن لا تلمنني إذا ما تنهدت وبكيت، فكم تغير العبد سعيد بعد ذلك.. لم يصدق أحد أن هذا هو سعيد الأمس، فقد ترهل كل شيء فيه، ضمر جسمه ،وبرزت عظام صدغيه، وغارت عيناه في رأسه، وتهدل هدباه، وخارت قواه، ولم يعد يهتم بنفسه، وأهمل قطعانه، فلم تعد تذعن له، وأصبح يتعذب كثيرا في السيطرة عليها وجمعها..

وذات يوم داهمت الذئاب قطعان سعيد، فهربت القطعان أمامها.. راحت الذئاب تشتتها بين الأودية وعلى سفوح الجبال وكلما لحقت بشاة فتكت بها وتركتها لتلحق بأخرى.. إلى أن أتت على الكثير من الأغنام.. ولولا هروع الناس من البيوت لأتت على معظم القطعان..

حين بلغ الخبر مسامع الشيخ جن جنونه، وانهال على سعيد بالضرب المبرح ما أن مثل أمامه. وأقسم برأس والده أنه سيجعل منه عبرة لكل العبيد إذا ما شاهده في ربوعه.

هام سعيد على وجهه لا يعرف أين تجره قدماه... وانقطعت عنا أخباره منذ ذلك اليوم يا بنات..

* * * * * * * * * * * * * * * *

١٩٧٨

جسدي بين صبرا وبسمة

ستأتي بسمة، وجسدي الذي أراه دائما مسجى في تابوت، أو محمولاً على نعش، أو مطروحاً على رصيف مهجور. متآكل كرمة نهشتها الكلاب، متصدع كجدار قديم، مشروخ كجذع نخره السوس... شروخ كثيرة تغرز براثنها في كل أنحاء جسدي، تنيخ بكل كلكلها على كاهلي فأنوء تحت وطأتها، وعبثاً أحاول أن أعدل كتفي، أرفع ظهري ...

ثمة شرخ يمتد في جسدي من عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٨٦. عام ١٩٤٨ هو العام الذي احتل فيه موطني، أما عام ١٩٨٦ فالجميع يعرفونه جيدا، فقد بات فيه معظم زعماء قومي أصدقاء لمن احتلوا موطني ..!!

وثمة شرخ يمتد في جسدي من المحيط إلى الخليج، فقد تحطمت طموحاتي كلها، ولم يعد هناك ولو شمعة واحدة تنوس أو تخبو في حلكة ظلامي، شمعة واحدة فقط، وإنني أتحدى كل صادق أن يثبت العكس! أية شروخ هذه بحق الكائنات؟ هل هناك قوة يمكنها أن ترمم هذه الشروخ الفظيعة في جسدي؟! لا لا! لأهرب من شروخي كلها، ولأنتظر بسمة، بسمة الباسمة، بسمة الإبتسامة، فرح يقف في مواجهة كل شروخي، شمعة منيرة دائما في ظلام ليلي، أمل يطل دوماً من خلف أسوار حزني..

الصمت داخل الغرفة قاتل، والضجيج في الخارج قاتل، رسومات الملصقات على الجدران تحدق إلي وأحدق إليها:

رسم لحمامة مصلوبة، جسدها قنبلة وجناحاها أطفال صبرا، رسم لدبابة يقطعها حرف X وإلى جانبها طفل قتيل من أطفال صبرا. رسومات كثيرة قوامها دماء صبرا. صبرا اختصار قتلي...

الكهرباء مقطوعة.. وجسدي يتصبب عرقاً.. مع أن الوقت ما يزال صباحا.. في الخارج تضج أصوات المنادين على الخضار وأبواق باعة المازوت التي تضرب على أعصابي، تشل تفكيري، أدفع السدادتين عميقاً داخل أذني، وأتبعهما بسدادتين أخريين. أنجح في الهروب من الضجيج والصخب ـ لأغرق في الوحشة والصمت. الضجيج يقتلني والوحشة تقتلني..

في الحادية عشرة ستأتي بسمة، لتنقذني من وحدتي وشروخي.. من الصمت القاتل.. من ملصقات صبرا وشاتيلا ويوم الأرض وتل الزعتر، و(الأيائيل) السود التي تعج بها جدران بيتي، كل جدران بيتي.. ذات يوم هربت فتاة من بيتي بعد أن أبدت رغبتها في مشاركتي سريري طوال الليل، كان حلمها كما قالت، غير أنها ما أن دخلت البيت لأول مرة وراحت تتأمل الجدران، حتى هتفت بهلع (يا ألله كم أنت مليء بالموت، كيف تنام وكل هذه الدماء تحيط بسريرك)؟ همست لها: (إنها نصف حقيقتي يا عزيزتي، إن لم تكن حقيقتي كلها، ويبدو أنني أصر على عدم الهروب منها أو نسيانها، فأجعلها تشاركني حياتي، أغمض عيني عليها، وأفتحهما عليها. ولقد اعتدت الأمر. ولا أظن أنني قادر على مبارحته) وزفرت صديقتي نفسا عميقا (آسفة أنا لا أستطيع أن أشاركك سريرك ضمن هذه الأجواء، بيوت قياداتكم ليست هكذا، ألا يوجد مكان آخر لديك؟!)
(لا للأسف لا يوجد، حتى لو و جد ـ فلن أستطيع أن أعيش فرحي خارج هذا الحزن، فالحزن أصبح حقيقتي، وعندما أعيش فرحي في ظله،

أتمتع بالفرح إلى حد لا يمكن أن يبلغه إلا من هو مثلي)

(لا يا إلهي! هل أنت بكامل عقلك؟)

(أدعي ذلك! فالفناء والبقاء، الحزن والفرح، الشقاء والسعادة، الألم واللذة، الكره والحب، القهر والحرية، التشاؤم والتفاؤل، الدم والورد، أمران متعددا الوجوه، ملازمان لي . ولا يمكن أن أشعر بأحدهما دون أن أشعر بالآخر، ثم إن أحدهما لا ينتفي إلا بالإحلال المطلق للطرف الآخر، إنها معادلة معقدة جدا يا عزيزتي)!!

(ربما تكون مريضا يا محمود . يجب أن تراجع طبيبا مختصا بالأمراض النفسية، أستودعك) وهربت.. هربت إلى غير رجعة. لتذهب إلى الجحيم!!!

بسمة ليست من هذا النوع من الفتيات.. بسمة تشاركني فرحي وحزني.. أمامي ساعة، سأغتسل وأتعطر قبل أن تأتي.أنا دائما أغتسل وأتعطر قبل أن تأتي.. لا أريدها أن تنفر مني.. لأظل ذكرى جميلة في حياتها. بل أجمل ذكرى في حياتها إن استطعت.

اغتسلت. تعطرت. احتسيت القهوة. الزمن يسير بطيئا جدا.. يقتلني الإنتظار. يقتلني العد التنازلي نحو الحادية عشرة.. بقي عشر دقائق وتصبح الحادية... الرسومات التي رسمها لي رسامون أصدقاء تمثل أمام عيني:

هذا أطال شاربي أكثر مما هما عليه، وذاك بالغ إلى حد كبير في طول أنفي وانحنائه، وهذا بالغ في مساحة الصلع التي تتوسط رأسي، وذاك في تمثاله الصغير الذي فارق الحياة جعلني أقرب إلى الإنسان الميت مني إلى الإنسان الحي. رسام واحد لم يبالغ في طول ذقني، غير أنه جملها أكثر مما هي عليه.

خمس دقائق وتأتي بسمة. خمس دقائق فقط. هي في الغالب تأتي في الحادية عشرة. إذا لم تأت ستتصل. يجب أن تتصل. هي تعرف انني أنتظرها، لكنها لا تعرف أنها لم تغب عن بالي طوال اسبوع. منذ آخر مرة التقيتها، وكان لقاءً فاتراً للغاية، جاءت بصحبة موله بها، في الوقت الذي أمضيت الليل في انتظارها، واغتسلت وتعطرت في الصباح، وهيأت نفسي للقاء ممتع مع الحياة. ومنذ ذلك اليوم لم تغب من مخيلتي. هي في الحقيقة نادرا ما تغيب من... وكلما انقلبت على السرير خلتها بين ذراعي، ورحت أضمها وأشد الغطاء إلى جسدها لأقيها نسمة برد قد تأتي على حين غرة...

ثلاث دقائق وتأتي. هي لا بد في الطريق الآن. سأطل من النافذة، ولأنزع هذه السدادات من أذني:

تلك فتاة قادمة من أول الشارع. إنها هي حتما. يتبدد كل الصمت المحيط بي، لن أعود إلى الوحدة الموحشة إلى الأبد. يقترب شبح الفتاة.. رباه! يا يسوع المعذب، إنها ليست هي.

لا بأس، ثمة سيارة قادمة ستكون فيها. إذا توقفت السيارة تحت نافذتي فهي فيها حتما.

المح طرف رداء امرأة ترتدي ثوباً أصفر، تجلس في المقعد الخلفي، (إنه أحد أثوابها). أرى رأس الفتاة. شعر أسود كحلكة الليل. إنه شعرها. ثم إن الفتاة سمراء مثلها تماماً. يهبط قلبي فرحا. تقترب السيارة وتمر من تحت النافذة وتنعطف متابعة طريقها. (أف أف أف) وأبتعد عن النافذة لأغرق في صمت البيت.

دقيقة واحدة وتصبح الحادية عشرة. ستأتي الآن أو يرن جرس الهاتف على الأقل. لأعود إلى النافذة ولأنتظرها. أريد أن أرى إطلالتها، هي في

العادة تلقي نظرة نحو النافذة، قبل أن تنعطف إلى البناية، وتشرع في صعود الدرج المتعب.، وعندما تنظر ألمح طيف ابتسامتها. هي لا تستطيع أن تفعل أكثر من هذا، نظرا للعيون الكثيرة التي ترقبها .

ثمة فتاتان قادمتان، لا بد أن تكون إحداهما هي. ربما أتت مع صديقة لها. لالا، الفتاتان ممتلئتان، وهي ليست ممتلئة إلى هذا الحد. تمر الفتاتان من تحت النافذة وتنعطفان، أرقبهما وهما تبتعدان، إلى أن يلفهما زقاق فرعي.

أوه.. إنها الحادية عشرة ودقيقتان.. إذن بدأ العد التصاعدي.. سيقتلني العد التصاعدي.. والصمت الثقيل يطبق على الغرفة كوحش كاسر. يرن جرس الهاتف. أهرع، إنها هي حتماً:

- (هلو استاذ محمود أتريد لحمة هذا اليوم)

اوه يا رب! أيوه أبو رياض ابعث لي كيلوين شرحه. وأقفلت الخط. لكن لماذا كيلوين بحق السماء؟ لنأكل انا وبسمة اليوم وغداً.. لنأكل كثيراً ولنشبع لحمة طازجة طرية، فلن أجد في المستقبل لحاماً مثل هذا اللحام. شاهدته بالأمس خلال تشييع جنازة جارنا، ترك محله وجاء يشارك في تشييع جنازة جارنا. الذي دهمته سيارة وهو يسير على الرصيف، نعم على الرصيف! فقد كان اثنان يتسابقان بسيارتيهما، وجنح أحدهما نحو الآخر إلى أن ضيق عليه، فلم يكن أمام الآخر إلا الهروب إلى الرصيف ليدهم جارنا.. جارنا الطيب البسيط الهادىء. جارنا الكردي ذا الأطفال الثمانية فقط!!

مرت عشر دقائق.. عشرون دقيقة.. نصف ساعة.. لم تمر دقيقة دون أن أقف على النافذة، ودون أن أعود إلى الصمت. وكلما شاهدت شبح امرأة (وأنا على النافذة) خيل إلي أنها بسمة، وكلما شاهدت سيارة

قادمة، انتابني إحساس أن بسمة فيها، وكلما رن جرس الهاتف أيقنت أن بسمة هي الهاتفة... إلى أن أصبحت الساعة الواحدة بعد الظهر، فقررت (وتبين أنني لم ألتزم بقراري) أن ألقي نظرة أخيرة عبر النافذة.

شاهدت فتاة ترتدي لباس الفتوة تقدم عبر الشارع، كنت مقتنعاً تماماً أنها ليست هي، فهي إذا شاءت أن تأتي إلي بلباس رسمي، فستأتي بزي الجامعة، ومع ذلك لم أقطعٍ الأمل، ورحت ألتمس عذراً مقنعا لها، لترتدي لباس الفتوة. لم أجد عذراً.. غير أنني لم أقطع الشك في أنها قد تكون هي.

مرت الفتاة من تحت نافذتي وهي تجمح كمهرة، وضفيرة شعرها تلوح على ظهرها كلما نقلت خطاها.

أرهقت.. تعبت.. لا أستطيع أن أقرأ أو أكتب، أو حتى أستمع إلى الموسيقى، وليس في مقدوري مغادرة البيت، فربما لديها محاضرة مهمة في الجامعة، لماذا ألح عليها أن تأتي في أوقات محددة، ثم إنها لم تقل لي أنها ستأتي في الحادية عشرة. ذات مرة جاءت في الواحدة والنصف، ومرات كثيرة بين الثانية عشرة والواحدة.

وبعض المرات بين الرابعة والسادسة.. إذن ستأتي..

عدت إلى النافذة. لم استطع إلا أن أعود إلى....

ثمة ساقان يلفهما بنطلون جينز، تقدمان تحت أشجار الرصيف. لم أميز النصف العلوي للقادم، ومع ذلك قد تكون هي، سأنتظر إلى أن يبزغ من تحت الشجيرات.. يا للجحيم إنه شاب.

عدت إلى الداخل. ليس لدي إلا ثلاث زجاجات ممتلئة من البيرة، سأذهب لاستبدال الزجاجات الفارغة. لكن ربما تأتي خلال غيابي، سأترك الباب مفتوحا، لا سأترك لها ورقة على الباب، لكن ماذا لو

اتصلت هاتفيا. أوه! لتتصل ولتعرف أنني لا أنتظرها! ماذا تظن نفسها هي؟

نزلت.. لم أستطع إلا أن أنظر إلى الإتجاه الذي ستأتي منه.. وظللت أنظر إلى أن طواني الزقاق المؤدي إلى حانة الخمور. لم أجد بيرة كالعادة. أبقيت الزجاجات في الحانة وعدت. ألقيت نظرة نحو الطابق العلوي في البناية. ربما جاءت ووجدت الملاحظة على الباب، ووقفت تنتظر على نافذة الدرج. لم أر أحداً. إذن لأذهب إلى البقال وأبتاع بعض الخضار، ولأمر على اللحام.

هذا البقال يقتلني ببطئه وبرودة دمه ومحاولته اليائسة في أن يدخلني الإسلام منذ أن قلت له كاذبا ذات يوم أنني مسيحي!! لا بد من استراق بعض النظرات نحو الشارع بين شراء حاجة وأخرى. لا أريدها أن تمر دون أن تراني، فربما تفهم الملاحظة التي على الباب حسب التوقيت العربي، حيث لا يحس أحد بالزمن على الإطلاق. فتغدو اللحظات ساعات والساعات لحظات!

إلقاء نظرة نحو الشارع يضطرني إلى الخروج من البقالة والسير لبضعة أمتار كي أشرف.. ألقيت النظرة الأولى بعد شراء كيلو خيار، والثانية بعد شراء كيلو بصل، والثالثة.. بعد كيلو بندورة.. والرابعة.. جرزة بقدونس، وفي الخامسة كنت قد حاسبت البقال وحملت الخضار وعدت بسرعة إلى الشارع. رأيتها في كل الفتيات اللواتي كن يجبن الشارع.. لماذا أراها في كل الفتيات......؟!

وتنبهت إلى أنني نسيت أن أمر على اللحام.. عدت. لم يرسل اللحمة بعد. دفعت ثمنها وهرعت نحو البيت.. لا بد أنها جاءت دون أن أراها. لقد أمضيت من الوقت في انتقاء الخضار أكثر مما أمضيته في ترقب

الشارع. إذن سأجدها تنتظرني أمام الباب، طالما لم أرها تطل من نافذة الدرج، بقي أمامي الطابق الأخير لأراها واقفة، سأرى الآن إطلالة عينيها ـ إشراقتهما، والإبتسامة العذبة تطوف على شفتيها.

لم تكن أمام الباب.. لكن ثمة جدار إلى جانب الباب... ربما اختبأت خلفه لتباغتني.. (أه يا عكروته عرفت ألاعيبك) وينتصب الباب أمامي كجدار سجن، والملاحظة تصفعني على وجهي (سأعود بعد لحظات)

أللعنة يجب أن أنسى هذه البسمة. لكن كيف أنساها، إنها تأسرني؟ دفعت الباب وأنا أهز رأسي بشدة في محاولة يائسة لطرد بسمة منه.

ألقيت أكياس الخضار على أرضية المطبخ وطرحت جثتي المشروخة على الأريكة. أحجار الشطرنج تنتصب أمامي على رقعتها كتماثيل صماء، لو أن أحدهم يأتي لأغلبه، فأنا لا أتصور نفسي إلا غالباً دائماً، والحق إنني نادراً ما غلبت، وأنجح دائماً في الإجهاز على خصومي. الشطرنج يسلب مخيلتي، يستولي علي، ينسيني الدم، الصمت، الموت، الضجيج، العطالة، حتى بسمة. لكن لا أظن انني قادر على اللعب الآن، فدماغي معطل، معطل تماما، ولا يشغله إلا الموت وبسمه، بل بسمة وحدها، ما يعنيني الآن هو بسمة ... ترمم شروخي، تعيد إلي توازني، توقف نزيف الدم الهاطل من شراييني.

إنها الثانية والنصف. لم تأت بسمة، ومع ذلك تركت الباب مفتوحاً، لا أحتمل إلى أن أفتح لها، ثم إنني أريدها أن تجد بابي وصدري مشرعين لها. بابي المغبر القذر العتيق المسوّس.، وصدري المنخور المشروخ المتصدع. طز! ماذا يعنيان أمام صدرها المتدفق بخصب الحياة؟ سألتني ذات يوم بهمس (لماذا تتأوه إلى هذا الحد وأنت تلقي رأسك على صدري؟) فهمست (كلما ألقيت رأسي على صدرك أحسست بالحياة تدب في جسدي الميت،

إنني أتلذذ بطعم الحياة ونعمة الله)!! فكت ما بقي مشبوكاً من أزرار قميصها وألقمتني نهدها وطوقت رأسي بذراعيها وراحت تضمني إليها، فرحت أغرق أغرق... ، أو لأقل رحت أحيا أحيا بعد موتي.

سمعت وقع خطوات تصعد الدرج. أرهفت السمع. هي حتما! اقتربت الخطوات من مدخل البيت، توقفت أنفاسي وعيناي تحملقان نحو الباب. امتدت يد سمراء لتجتاز العتبة وتطرق الباب المفتوح. (تفضلي) !!

وشاهدت طبقا من اللحم يسبق حامله. (اللعنة، إنه ابن اللحام)!

(يقول لك بابا إنه لم يستطع تأمين أكثر من كيلو لحمه هذا اليوم، غداً سيبعث لك بالكيلو الآخر.)

(طيب عمو طيب. شكراً)

ثمة خطوات أخرى تصعد الدرج. تحفزت ثانية. تجاوزت الخطوات المدخل نحو السطوح. لا شك أنها إحدى الجارات، وقد صعدت لتنشر غسيلها. غرقت في حالة من الهذيان الصامت. ما أسميه (هاجس فنائي) يدفعني نحو صبرا، وما أسميه (هاجس بقائي) يدفعني نحو بسمة، ولم أشعر إلا ويد تمتد لتطرق الباب.. هزم هاجس فنائي شر هزيمة. فقد غابت صبرا تماماً من مخيلتي وحلت بسمة بكل عنفوان شبابها وخصب الحياة فيها. (أدخل) !! وشاهدت طبقاً ثانياً من اللحم يجتاز الباب (يا رب هل سأجن هذا اليوم)؟

(يقول لك أبي أنه دبر لك كيلو من لحمة البيت)

(طيب طيب طيب عمو شكراً)

كم هو حقير هاجس فنائي هذا.. أحس بنشوة النصر فراح يطبق على روحي ويضغط على جسدي.. لم يكن أمامي إلا أن أسترخي وأستحث هاجس بقائي على المقاومة...

تجاوزت الساعة الثالثة وأنا أحدق إلى كومتي اللحم أمامي، وعبثاً أحاول أن أعيد إلى جسدي شيئا من توازنه، وإلى روحي الميته دفقة من حياة، وإلى أعصابي المتلفة قليلا من التماسك.

لا بد لي من تناول الطعام.. لأنهض.. أوقفت جسدي المتهالك.. دخلت المطبخ وأنا مشتت الذهن.. لم أعد أعرف مكان الأشياء. ولم أعد قادرا على جمع أفكاري للتمييز بينها.. أفتح البراد ولا أعرف لماذا فتحته.

آمد يدي إلى رف المطبخ وأنسى لماذا مددتها، فتظل معلقة في الهواء.

ارتكبت حماقات كثيرة.. وضعت سكراً على الشرحات بدلا من الملح.. بينما وضعت كمية هائلة من الملح على السلطة والبطاطا.. أضفت إلى السلطة تشكيلة من البهارات لم أضفها إليها في حياتي. شطة، فلفل أسود، بهارات مشكلة، نعنع ناشف، قرفة مطحونة، كمون، سماك، كاري!! كانت سلطة فانتازية. غسلت الشرحات بالماء وأعدت تمليحها.

تنبهت إلى أنني حضرت طعاماً لي ولبسمة. ولماذا لا.؟ ستأتي حتما! حضرت لها صحنا وشوكة، وملأت كأسها بالبيرة. وخلتها تجلس معي، حتى أنني قرعت كأسي بكأسها!!

لأنتظر قليلا. لا. لآكل على مهل. (بصحتك) نسيت أن أملأ صحنك. أللعنة على أبي، أبي الذي كان يمتص الذبابة حين تقع في صحن اللبن أو كأس الشاي، حتى لا يذهب ما علق بها سدى. أبي الذي قتل أحد إخوتي، أبي الذي حاول قتلي أكثر من مرة، لكن غريزة بقائي كانت تدفعني دائماً إلى الإفلات من هراوة فأسه المشرعة، أو تجعلها تقع على كتفي، أو أي موضع آخر في جسدي.. أبي الذي جعلني أنزح من الضفة قبل أن ينزح منها أي فلسطيني آخر!!

(كلي يا بسمة، كلي يا حياتي، آسف لكمية الملح المرعبة، للسلطة

الفانتازية العجيبة) يبدو أنني شبعت. تنبهت إلى أن صحن بسمة ما يزال على حاله.، وكأسها تطفح بالبيرة.

أللعنة! إذن هي لم تأت، والساعة تجاوزت الخامسة، رباه لقد بات الأمل في قدومها ضئيلاً جداً. آه يا أمي التي كان أبي يضربها أربع مرات في اليوم! آه يا أمي التي لم أرها منذ ستة عشر عاما، يا أمي التي ماتت دون أن أراها، ودون أن تراني.. آه يا قطيعنا الذي كنت أرعاك.. آه يا جبال القدس التي عشت على بطاحك أول فرحي وشقائي.. آه يا حياة يا أول حب في الكبر!! يا أول بسمة في حياتي!! لماذا تقفزين إلى مخيلتي الآن وفي هذه اللحظات التعسة بالذات؟! أين أنت الآن؟ في القدس؟ آه يا حياة، هل ثمة ما هو أجمل من أن يكون الإنسان في القدس؟ لا بد أنك احببت غيري.. شيء طبيعي أن تحبي غيري.. وحتماً تزوجت وأنجبت أطفالا كثيرين، مثلما أحببت وتزوجت، لكنني لم أنجب إلا طفلين لقصر يدي، أو لعوزي، أنت لا تعرفين ما معنى أن يعيل المرء طفلين وأمهما في الشتات، يعتقد في كل لحظة أنهما سيموتان جوعاً ذات يوم، أو يتحولان إلى متسكعين، أو يقتلان في صبرا، وما أكثر صبرا في حياتنا يا حياة.

حياة؟! لن أنساك ما حييت، سأتذكرك وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة. أعرف أنك غاضبة مني، وأعرف أنك انتظرتني لأيام وشهور وسنين.. لكن لم يكن الأمر بيدي.. والله لم يكن... وهذا البيت الذي كنت أقذف لك بقبلاتي منٍ شرفته، كان مخبأ أو بيت أمن كما نسميه في التنظيم. لقد كنت فدائياً يا حياة، لا أحمل هوية الكيان، عدا أنني مطارد من عسكر الإحتلال، وعسس الإحتلال ومخابرات وجواسيس... فكيف أقول لك ذلك، ثم كيف ألقاك، وإلى أين سأتبعك؟! أعرف أنك سئمت قذف القبل عبر الشرفات، وأنت تحتارين في أمري، لا تدرين ماذا

أعمل، وتظنين أنني تخليت عن كل شيء في حياتي، إلا عن الجلوس في الشرفة، لأرقبك، وأختلس إليك قذف القبل... وجن جنونك.. أذكر عندما جن جنونك... فارتديت ملابسك وحملت حقيبة يدك، وأومأت لي من الشرفة أن أتبعك، فأومأت لك بكل خلجة في جسدي أن لا تنزلي، لأنني لا أستطيع أن أتبعك، ليس في مقدوري النزول إلى القدس حتى من جبل الزيتون! لكنك لم تصدقيني، ونزلت لتقفي أمام البناية وتحدجيني بنظرات كلها إصرار، وتومئي لي أن أتبعك، وأنه ينبغي علي أن أتبعك... فتبعتك!! قلت لعلني أستطيع الإقتراب منها لأقول لها شيئاً من الحقيقة، لكني لم أستطع الإقتراب منك، فكل عيون أبناء جبل الزيتون كانت ترقب سواد عينيك الواسعتين، جمال قوامك الصاخب بالعنفوان، وأنت تحثين خطاك نحو موقف الباص، دون أن تلتفتي خلفك.

تبعتك إلى موقف الباص... وشاهدتك تصعدين إلى الباص من الباب الأمامي، وعندما أيقنت أنني لم أصعد، هرعت نحو الزجاج الخلفي، شاهدت وجهك وهو ينضغط خلف الزجاج، انكسار أنفك، جحوظ عينيك، ومئات التساؤلات الحائرة.. وأنا أحتضن رأسي براحتي يدي وأحاول أن أعبر لك، أن أفهمك، بعيني، بشفتي، باختلاجات وجهي، أنني لا أستطيع أن أتبعك إلى القدس، لنضيع في زحمة الناس، ونهرب من أعين الفضوليين والعسكر المدججين بالسلاح، ونختلي بنفسينا في زاوية ما، ركن ما..

أعرف أنك لم تفهمي التعابير التي كانت منطبعة على وجهي.. وانطلق الباص يا حياة، ووجهك ما يزال منضغطاً خلف الزجاج، وعيناك تحدقان بدهشة وحيرة ورجاء. وظللت أرقب انضغاط وجهك... إلى أن ابتعد الباص، ولم أعد قادراً على رؤية وجهك.. وانعطف الباص واختفى

لينحدر إلى القدس...

غادرت المخبأ ذلك المساء لأسباب أمنية يا حياة، وبعد قرابة شهرين غادرت الأرض المحتلة كلها.. وظل انضغاط وجهك خلف الزجاج، انكسار أنفك، آخر ذكرى لي فيها، أجمل ذكرى لي فيها.. سامحيني يا حياة. يا من شاءت الظروف أن يظل حبها عذرياً، مع أنني أكره الحب العذري.. سامحيني، ربما انتظرتني طويلا، لستة عشر عاماً.. لا غير معقول أن تفعليها.. جنون أن تفعليها...

آه أين كنت؟ أين أنا؟ أين بسمة؟ كم الساعة الآن؟ جرس الهاتف يرن.. آن لها أن تتصل.. غير ممكن أن لا ....!!

(هلو نعم... رباه! إنها كلير... كليرالقادمة من بلاد بلفور! قاتلي بلفور..! المتخرجة حديثاً من كامبريدج..

كلير التي ما زالت بلادها بكراً أمامي،وأرضها صخرية، عصية، عذراء، يباس.. نعم! تحدثي إلي بالعربية لأنني في حال لا تسمح لي باستيعاب كل ما ستتفوهين به بالإنكليزية)

- أنا مشتاقة لك.. متى سأراك؟

- تشتاق لك العافية! الآن إذا تشائين.

- لا الآن لا أستطيع، فيما بعد، أردت أن أطمئن عليك وأشكرك على العشاء الجميل!

- كلير إنني أشعر بوحدة قاتلة، ألا تأتين لتنقذيني منها، لن أطلب إليك سوى أن نجلس ونتحدث.

- آسفة يا محمود، أنا مشغولة الآن ولدي موعد، ربما في المساء إذا تمكنت، باي!

- كما تشائين يا كلير، باي.

تركت المائدة كما هي ونهضت أجرجر جسدي التالف... التالف إلى حد لم يبلغه من قبل إلا ما ندر.

دخلت غرفة النوم. طرحت نفسي بطناً على السرير. لم أكن قادراً على أن استلقي بالعكس، فقد كان هاجس فنائي يستفحل بي، يضيق على روحي الهشة الخناق، ويصرخ في دخيلتي بصوت مرعب:

(ليس في حياتك إلا حقيقة واحدة ثابتة لا تتغير، إنها صبرا، وكل ما تبقى عابر، كذب ضلال هروب، صبرا اختصار زمانك، صبرا اختصار حياتك، صبرا اختصار شقائك، فاركن إليها، اغرق في خضم حمئها الدموي، كل الأشياء تجيء وتروح، وتروح وتجيء إلا حقيقتك الثابته صبرا! صبرا التي ترزح في أعماقك، صبرا المعلقة في شرايين قلبك، السارية في دماء جسدك، الجاثمة في صلب دماغك.. صبرا اختصار موتك، رمز مسافات العذابات فيك، ليالي الحزن الطويلة في عينيك، تكثيف لحجم القتل في روحك المتعبة، فاركن إليها، وانشر حزنك على الملأ، واجعل دماءك تخضب حمأ البوادي، وافقأ باصبعيك عيون القيادات القميئة، واهتك بجرحك أستار التقدم الزائف، والنضال الكاذب، واشهر موتك راية للعصر الزنيم، عصر البساطير السراويل العباءات، عصر القمامات، عصر التيجان الجمهورية، عصر الحماقات الشعبية، والأحزاب الخنفسائية، الثورات المتخمة، ثورات الخيبة، عصر ادعاء الإنتصارات البطولات الفروسية، عصر الهزائم، عصر الشعوب الذبيحة والأرواح القتيلة...)

(لا لا !!) كان هذا هاجس بقائي وقد راح يصارع خصمه صارخاً، وأنا أعتصر بقبضتي يدي المخدة التي ألقيت رأسي عليها في محاولة لمساعدة جسدي على تحمل آثار الصراع بين هذين النقيضين اللدودين اللذين

راحا يتقاذفان الشتائم والصراخ في دخيلتي المتصدعة:

(لا بسمة ليست عابرة أيها الوغد القاتل، وليست أكذوبة، بسمة فيض الينابيع التي لا تنضب، خصب دائم التدفق في مواجهة موتك، بلسم الجراح التي تثخننا بها، بسمة اختصار فرحنا، سر بقائنا، أمل المستقبل فينا، النور الذي يضيء متاهات دروبنا، أعماق نفوسنا، بسمة نبض الحياة فينا، ربيع أرواحنا الوردي، غيث دائم الهطول، ندى يحط على روابينا، بسمة الحقيقة الأزلية الراسخة وليس موتك، لكنها مكبلة بحظر التجول خارج البيت، بالقوانين بالمحرمات، محكومة بالإقامة الجبرية، مشدودة إلى عذريتها وفارس الأوهام!!

بألف قيد وقيد كبلوها، بألف حجر حجروها، لكنها ستجد منفذاً عبر حجورها وتأتي، ستحطم كل قيودها يوما وتأتي، ستهدم كل أسوار سجونها يوما وتأتي.. ستاتي في ظل السحاب، مع المطر، ستاتي في الندى، مع الصدى، من المدى، مع أسراب اليمامات، برفقة الطالبات، في الإبتسامات، في أريج الزهور، مع الطيور، من الحقول، على أجنحة النسور، مع الصباحات، في المساءات، عند قيلولة الجميلات، في فرح العشاق،، ستأتي ستأتي في كل الكائنات)

(لا لا !! إنني أصرخ بكل هزيم الرعود، ليست المسألة في أن تأتي بسمة أو لا تأتي، المسألة في حقيقتك، حقيقتي، حقيقتنا الوحيدة الراسخة: صبرا!! صبرا صبرا!! وليس أمامك ولا مفر لك إلا أن تركن إليها!!)

(لا ! لا !! جسدي لم يعد يحتمل. أنت أيها الفناء القاتل، لو أنّ في مقدوري أن أنتزعك من أعماقي، لأقذف بك إلى الجحيم، لو أستطيع أن أحطم سكاكينك التي تطعن في أحشائي.. ابتعد عني، ابتعد، اخرج

من بطينتي، إنك تقتلني أيها القاتل... رباه يا يسوع، يا ابن مريم، إنني أموت، وجسدي المتصدع المشروخ عاجز عن المقاومة.. أين الحبوب المنومة؟ أحتاج إلى كمية كبيرة من الحبوب.... ثم أين سدادات الأذن؟ أحتاج إلى ثلاث سدادات لكل أذن! لا أريد أن أسمع شيئاً من خارجي، ولا أريد أن أسمع شيئا من داخلي، ولأدفن جسدي في السرير، لأدفن نفسي، لأدفن.. لأدفن...)

١٩٨٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

مسك وعنبر وفيض مقدس !

من المسائل غير المعقدة (وربما المعقدة، فأنا وللحق أشعر أنني بدأت أفقد المقدرة على التمييز بين المعقد وغير المعقد) فالشيخ صابر لم يشم في حياته لا رائحة المسك ولا رائحة العنبر، لندرة هذين النوعين من الطيب، وصعوبة الحصول على مادتيهما الأساسيتين، فالأول (أي المسك) وحسب ما يعرفه لنا المعجم الوسيط: (ضرب من الطيب يتخذ من ضرب من الغزلان والثاني مادة صلبة لا طعم لها ولا ريح إلا إذا سحقت أو أحرقت) ويقال أنه روث دابة بحرية، قد تكون الحوت! فمن أين تسنى للشيخ صابر أن يعرف أو يميز رائحتيهما؟

على أية حال سنتجاوز مصاعب الحصول على هذين النوعين من الطيب، ونفترض قسراً أن الشيخ صابر ممن تضمخوا ذات يوم بالمسك أو العنبر، أو الإثنين معاً، إذ أن المشكلة الكبيرة والمعقدة للغاية، ليست في أن يعرف الشيخ أو لا يعرف، أو أن يميز أو لا يميز، المشكلة في أن يشبه الشيخ رائحة ضراط الأعجف برائحة المسك والعنبر!! لاحظوا رائحة المسك والعنبر معا، ولو أنه اكتفى برائحة واحدة لما عقد المسألة إلى هذا الحد.. وربما لما كانت معقدة إطلاقا، غير أنه وبإطلاق هذا التشبيه على الضراط الأعجفي فتح باباً لم يكن من السهل على الحضور إغلاقه، أو حتى العبور منه ...

لنطرق الواقعة من أولها :

كان الشيخ والساعد الأول وبعض (السواعد) المقربين جداً يجلسون في حضرة الأعجف بكل مهابته. ومهابته هذه تعني أن الجلسة لم تكن جلسة عادية، فهي أقرب إلى المكوث بين يدي أكبر وأعظم الآلهة طراً، لكن ليس كما صوره علم الكلام المعتزلي، أو محي الدين بن عربي، أو حتى الأشعري والغزالي، بل كما تتصوره مخيلة الأعجف.. ومخيلة الشيخ صابر، وكان في المستطاع أن تفض الجلسة دون أن تخرج عن حدود الطقس أو البروتوكول، فوق العادي، لو لم يضرط الأعجف، فتحول ضرطته تلك الجلسة إلى الطور الخارق، أو فوق فوق العادي، إذ من التجني السافر والإجحاف المطلق بحق المتصوفة، القول بأنها تحولت إلى نوع من التصوف الروحي في حضرة تجل إلهي!! كان كل شيء اقرب إلى الطقس العادي، عندما مد الأعجف يده ليأخذ سيجارة من علبة السيجار التي أمامه على طاولة المكتب، فامتدت عشر أيد بعشر ولاعات لتشعل له سيجاره، عشر أيد وعشر ولاعات مع أن الموجودين كانوا تسعة فقط .وهذا يعني أن أحد الموجودين (وهو الشيخ صابر قطعا) مد يديه الإثنتين وبولاعتين!! وهو في الحقيقة كان يحرص على أن يحمل ولاعتين كلما ارتبط بموعد مع أحد قيادات القبائل الكثيرة والمتعددة! يضع إحداها في جيبه اليمنى ويضع الأخرى في الجيب اليسرى، وما أن يشاهد القائد يهم بإخراج سيجارة، حتى يدخل يديه في جيبيه ويخرج الولاعتين، ويمد يديه وهو يشعلهما معا، فإذا ما عاكسته واحدة تقدم بالأخرى، وإذا ما أشعلت الإثنتان، فإنه يطفىء التي باليد اليسرى ويعيدها إلى جيبه .. لم يكن الأعجف قد أخذ سيجاره بعد عندما امتدت إليه الأيدي العشر بولاعاتها المشتعلة (فقد حرص الشيخ على غير عادته أن يبقي على الولاعتين

مشتعلتين، لعله يحظى بشرف إشعال سيجار الأعجف)

وحقا حظي، فقد أخذ السواعد الآخرون يعودون إلى مقاعدهم حين أدركوا أن ولاعتي الشيخ كانتا الأسرع إلى المبادرة والإقتراب من وجه الأعجف، ثم إنهم أكدوا ولاءهم المطلق، ورغبتهم العارمة في نيل شرف إشعال السيجار الأعجفي، بنهوضهم وتقدمهم وإشعال ولا عاتهم!! ابتسم الأعجف حين تنبه إلى الشيخ يمد يديه بولاعتين. هتف، قبل أن يضع السيجار في فمه:

(أنت داهية يا شيخ ، بوجودك لا يمكن لأحد أن يسبق للإشعال لي)

هتف الشيخ وقد نفد صبره من إبقاء الولاعتين مشتعلتين:

(إنه لأكبر شرف لي أن أكون دائما السباق إلى إشعال سيجاركم انطاهر، وإنه لشرف أعظم لو أنكم تتيحون لي أن أبقى دائماً في حضرة عظمتكم لأشعل لكم)

وضع الأعجف السيجار في فمه، فيما كان الشيخ يطفىء الولاعة التي بيده اليسرى ويتقدم بالتي بيده اليمنى. وهنا بالضبط حدث الضرط التاريخي المهول، فقد ارتأى الأعجف أن يرفع مؤخرته مليمترات عن الكرسي ليقرب رأسه من ولاعة الشيخ، وليتيح للضراط الذي كان يضغط على بطنه- بعد تناول كميات متنوعة ومرعبة من الطعام- أن يتسرب من دبره. وهو وللحق كان يظن أن الضراط سيخرج عالهدى (أي دون صوت) ودون أن يثير رائحة كريهة للغاية. لكن ما جرى كان تاريخياً حقا، ففي اللحظة التي رفع فيها الأعجف مؤخرته وهو يتكىء بمرفقه الأيسر فوق طاولة المكتب، ويأخذ نفساً لإشعال السيجار، انفلت صمام دبره مرة واحدة ليندفع منه ضرط مهول دوى في أرجاء حجرة المكتب! نقز الأعجف وأطبق بمؤخرته على الكرسي في محاولة للحد من اندفاع

أي انفجار آخر. ونظراً لأنه لم يكن يعرف أن ضراطه (فيض مقدس) حتى حينه، فقد أحس بالخجل وسارع إلى الإعتذار، فيما كان الصمت المطبق يلف وجوه السواعد، والشيخ صابر الذي بقي واقفاً دون حراك منتظرا مرور الفيض المقدس الذي قطع إشعال السيجار قبل أن يكتمل.:

(آسف يا جماعة.. أشعر بمغص في معدتي)!!

وهنا انبرى الشيخ صابر إلى القول، بعد أن دار بوجهه بسرعة على الحضور: تتأسفون عظمتكم وأنتم تغمروننا بفيض بركتكم المقدس وقد حل علينا ؟

وكانت الرائحة الكريهة للغاية قد أخذت تنتشر في فناء الحجرة، رائحة ثوم وفجل وما شابه وقد تخمرت في معدة الأعجف ومرت عبر أمعائه، فغدت لا تطاق.

استدرك الشيخ قائلا. :

(إنني اشتم فيه رائحة المسك والعنبر أيها الأخ الأكبر والقائد الأعظم)

وهنا ثنّى الساعد الأول على ما قاله الشيخ:

(فعلا أيها العليم البصير إن لفيض بركتكم المقدس رائحة المسك والعنبر)

وانفتح الباب الذي لم يعرف السواعد الآخرون كيف سيدخلون منه أو يغلقونه، لا لجهلهم بالأطايب والعطور فحسب، بل لاعتقادهم أن أي نعت لن يرقى إلى ما تفوه به الشيخ، ومع ذلك لم يجدوا إلا أن يضيفوا ما هب ودب على السنتهم في وصف الضرط التاريخي:

أضاف الساعد الثاني مكملا :

(بل والياسمين والنسرين، المسك والعنبر والياسمين والنسرين)

وأضاف الثالث :

(والفل والنرجس والزنبق والقرنفل)

وراح الآخرون يعتصرون أدمغتهم ليخرجوا بأي تشبيه، وحين وصل الدور

إلى السابع كان ابن الكلب قد فطن إلى أطايب عجيبة، فهتف: :
(بل والند والنردن والنارنج) وبهذا قطع الطريق تماماً على الساعد الثامن، فلم يجد إلا أن يقول (بل روائع الأطايب والعطور كلها، كلها مجتمعة أيها الثائر الأكبر)

ولحظتئذ فقط، أدرك الأعجف أن ضرطه كان مقدساً وتاريخياً وجامعاً لكل أنواع الأطايب والعطور، فأطلق العنان لمؤخرته! .

والحمد للذي يمكن أن يستحق الحمد، أن الشيخ صابر لم يسمع بابن عربي والشيرازي والمتصوفة أجمعين، ولم يعرف عن فلسفتهم شيئاً، وإلا لرأى في الضرط أحد أشكال التجليات الآلهية الأعجفيه باعتباره (الضرط) خاضعاً لوحدة الوجود الإلهي الأعجفي، ومع ذلك فإن رؤيته للضرط وتفسيره له، لم يبتعدا كثيراً عن هذه النظرة. .

المشكلة أن المسالة لم تتوقف عند حدود تشبيه رائحة ضراط الأعجف برائحة المسك والعنبر، فقد تجاوزت ذلك إلى اعتبار برازه لؤلؤا منثورا، ليغدو الضراط والبراز الأعجفيان – فيما بعد – حقيقة مقدسة ثابته لا يرقى إليها الشك الجماهيري!!

الذي لا يصدق (وربما يصدق باعتبار الصدق اختلط بالكذب إلى حد يستحيل معه الفصل بينهما) هو أن الأعجف نفسه – وهذا ليس غريباً عليه – بات بعد الواقعة وما دار حولها من تقولات ومبالغات وخرافات غير معقولة، يشتم في ضراطه رائحة الطيب ويرى في برازه اللؤلؤ المنثور!!

١٩٨٧

* * * * * * * * * * * * * * * * *

لقاء الحبيب

نهضت مبكراً لتذهب للقائه... استحمت. سرحت تسريحة الشعر التي كان يحبها بأن أطلقت شعرها لينسدل على ظهرها وكتفيها.. وضعت القليل من أحمر الشفاه. كحلت عينيها.. ورّدت خديها بلمسات من الحمرة.. طلت أظافر يديها وقدميها بالقليل من البنفسجي الذي يعشقه. ارتدت ثياباً محتشمة حسبما يحب أن يراها، الفستان البنفسجي (الكلوش) الذي يعانق قدميها. تركت طوق الفستان مفتوحاً ليبدو عنقها وبعض صدرها حسب رغبته، وارتدت الطوق الذهبي الذي ابتاعه لها في حفل الزفاف والذي يسترسل على صدرها إلى أن يلامس منبع نهديها. وضعت في أصابعها ذبلة الخطوبة وخاتمي الزفاف.. ارتدت الحذاء البنفسجي.. مدت يدها إلى الحقيبة البنفسجية أيضاً. أخرجت زجاجة العطر المضوع بروح الياسمين.

رشت على شعرها وعنقها وصدرها وكتفيها..

خرجت من البيت.. كانت تمطر رهاماً.. لم تكترث، بل أحست أن الرذاذ فأل حسن.

قصدت بائع الزهور. ابتاعت باقة من البنفسج والفل والجوري الأحمر وسارت بخطوات متئدة إلى حيث ستلتقيه وهي تسترجع بعض لقاءاتهما وهو يضم رأسها إلى عنقه ويملس بيده على شعرها، ويغمرها بحب

مفعم بالحنان، ويهمس لها (أنت روحي التي تمدني بعشق الحياة يا أمل) فتهمس له: حبيبي، هذه سلطات لا ترحم وأنت تصر على التصدي العنيد لها، أنا خائفة عليك يا ثائر. فيهمس: لا تخافي يا حبيبتي! حولونا إلى أرقام، مجردة من المشاعر والعقول والحقوق .

توقف الرهام. اجتازت بوابة السور الذي يلف المكان. أحست برهبة هائلة اجتاحت جسدها من رأسها حتى أخمصي قدميها، حاولت تجاوز الحالة بأن رسمت ابتسامة طفيفة على شفتيها لتبدد السكون الذي راح يلف وجهها، والذي قد لا يبهج ثائر .

أبطأت من خطوها وهي تقترب من جدثه. كانوا قد اعتقلوه ليلة الزفاف، وسلموه جثة هامدة بعد قرابة شهر مدعين أنه مات بالسكتة القلبية، لكن آثار التعذيب على جسده كشفت كذبهم وساديتهم.

وقفت إلى جانب الجدث. جثت على ركبتيها عند رأسه، وضعت باقة الورد بهدوء. ملست بيديها على التراب الرطب. أبت دمعتان إلا أن تنزلقا على وجنتيها لتعانقا ابتسامتها الطفيفة، فيما كان عطرها الياسميني يتضوع في أرجاء المقبرة..

٠١١

* * * * * * * * * * * * * * * *

أحباب الله ! *

حين دخلت صالحة إلى المستشفى لإجراء عملية قلب مفتوح لم تعرف كيف يمكن أن تتدبر ثمن العملية الباهظ، وهي أمام خيارين لا ثالث لهما، إما إجراء العملية وإما الموت.

وكل ما تملكه لا يكفي حتى لسداد عشر الأجرة.

أوكلت أمرها إلى ألله.

دخلت إلى غرفة العمليات وبدأ أطباء التخدير عملهم فيما شرعت الممرضات بوضع كمامات على الأنف والفم للتنفس.. وما أن أصبحت .شبه جاهزة لإجراء العملية حتى دخل طاقم الأطباء.. يقوده شاب في أواسط الثلاثينات من عمره.

نظر الشاب إلى وجهها ثم خاطبها ليتأكد من أن التخدير قد أخذ مفعولة:

- كيفك يا خالة؟

وأسبلت جفنيها لتشير إلى أنها ما تزال تسمعه.

أحس الطبيب أن هاتين العينين قد مرتا عليه في حياته، وحاول أن يتذكر أين رآهما ومتى وكيف؟ دون جدوى، فقد كان عقله منصباً على إجراء العملية بنجاح.

- كوني مطمئنة ياخالة فأنت بمثابة أمي، وسأجري العملية لك وكأنني أجريها لأمي.

وبالكاد حتى حركت جفنيها. شرع الطبيب في إجراء العملية بمساعدة كادره الطبي. استمر إجراء العملية تسع ساعات وكانت ناجحة تماماً. لكن لا بد من التأكد وهذا لن يتم دون مرور يومين على الأقل.

بعد يومين جاء الطبيب لمعايدتها. كانوا قد رفعوا لها الكمامات.. وبدت وهي في حال جيدة في السرير.

- الحمد لله على سلامتك خاله..

- ألله يسلمك يا بني.

- كيف حاسة؟

- أحس أنني بخير. أشكرك يا بني.

- هذا واجبي يا خالتي، فلا شكر على واجب، وسعادتي هي أن أراك تعودين إلى الحياة بقلب سليم.

- يكثر أمثالك يا بني.

وفيما كان يتأمل وجهها أدرك تماماً أنه عرف ماضي هذا الوجه يوماً ما. لكن كيف وأين ومتى؟ لا يذكر.

غير أن ما تأكد منه، أن لهذا الوجه دوراً ما في حياته، وما أكثر الوجوه التي لعبت دوراً في حياته، والتي عطفت عليه في طفولته، حين كان مشرداً بعد أن فقد أبويه في مجزرة دير ياسين في فلسطين عام ١٩٤٨. كان يبيع العلكة في شوارع دمشق بعد أن لجأ إليها مع آلاف الفلسطينيين. في الصباح يذهب إلى مدرسة وكالة الغوث وفي المساء والعطل يبيع العلكة ليعيل نفسه وأخته. وفجأة حدق الطبيب إلى وجه المرأة وهو يتساءل في نفسه: هل يعقل أن تكون هذه هي المرأة التي ابتاعت لي ساندوتش فلافل

وآوتني إلى بيتها وحممتني وأعطتني مصروف جيب وأرسلتني إلى رجل صالح ميسور ليساعدني على إكمال تعليمي. رباه هل يعقل أن تكون هذه هي المرأة التي لولا فضلها علي لما كنت طبيباً الآن؟! لم أبع ولا قطعة علكة ذلك اليوم، وكدت أموت من الجوع. وما كنت أملكه أعطيته لأختي لتشتري لنفسها شيئا حين تجوع، إذا لم تتمكن من بيع شيء من العلكة هي الأخرى. كنت جالسا أبكي على الرصيف حين جاءت امرأة وراحت تربت على ظهري ثم قادتني إلى مطعم فلافل وابتاعت لي ساندويتش فلافل، ثم اصطحبتني إلى بيتها وحممتني كابن لها. وحين عرفت أنني فلسطيني ولا أحد لدي. أعطتني مصروف جيب واصطحبتني إلى أبي حسن الذي ساعدني أنا وأختي بقدر ما يستطيع إلى أن أصبحنا قادرين على العمل ومتابعة الدراسة إلى أن أنهينا دراستنا العليا، ورحل أبو حسن رحمه الله عن الدنيا منذ زمن، دون أن يترك خلفه أي شيئ على الإطلاق.. فكل ما كان يملكه تقدم به لأعمال الخير.

لم يتمكن الدكتور نبيل من الجزم بالأمر، ثم إن المرأة لم تبد ما يشير إلى أن وجهه يذكرها بشيء . لكنه قرر أن يبقيها في المستشفى إلى أن تشفى تماما. وكانت المرأة تفكر بالفاتورة الباهظة وكيف تتدبر أمرها، وهل سيسمحون لها بمغادرة المستشفى قبل دفع الفاتورة؟ وكلما حاولت أن تقصر أيام بقائها في المستشفى، كانوا يقولون لها أن الطبيب لم يسمح بمغادرتها بعد. إلى أن مضى شهر، زارها الدكتور نبيل وسألها عن صحتها فأجابت أنها في أحسن حال. وسمح لها بالخروج.

ترددت قليلاً قبل أن تنصرف، أحست أن شيئا ما يدفعها لأن تبقي يدها في يده، لكنها لا تعرف ما هو.

ثم هناك فاتورة المستشفى الباهظة، هل تسأله أن يكفلها إلى أن تجمع

مبلغ الفاتورة كله؟ لم تجد لديها الجرأة للكلام. هتفت ومشاعر أمومة تجتاحها تجاهه؟

- عاجزة عن شكرك يا ولدي. إلهي يحفظ شبابك ويبقيك لمحبيك؟

- العفو يا خالة هذا واجبي.

وأطلقت يده. وانصرفت إلى إدارة المستشفى لتبحث أمر الفاتورة وكيفية دفعها.

جلست على كرسي في الإدارة فيما فتاة تقوم بنسخ الفاتورة على جهاز كومبيوتر.

وما لبثت الفتاة أن طبعت ورقة وناولتها لها. أخذتها المرأة بيدها. رفعتها أمام وجهها لضعف في بصرها.

ثمة ما يبدو رسالة وليس فاتورة حساب.

- نظرت إلى الفتاة متسائلة وهي تمد بالورقة نحوها دون أن تقرأ ما فيها:

- هذه تبدو رسالة يا آنسة وليست فاتورة حساب.

- أيه اقرأيها يا خالة.

وأعادت المرأة الورقة أمام وجهها لتتأ ملها جيدا وتقرأ:

الحساب مدفوع:

ساندوتش فلافل، وحمام، ومصروف جيب!

مع أطيب تمنياتي بدوام الصحة والعافية.

الدكتور نبيل الفلسطيني

ظلت في حالة ذهول للحظات وما لبثت أن تذكرت ذاك الطفل الفلسطيني نبيل الذي ابتاعت له ساندويتش فلافل وحممته وأعطته

مصروف جيب وعرفته على رجل محسن ميسور الحال.
انزلقت دمعتان على وجهها ونهضت خارجة من الإدارة وهي تهتف: نبيل نبيل حبيبي.

وكان الدكتور نبيل واقفاً في الخارج ينتظر ليتأكد من أنها المرأة التي توقعها أم لا.

تلقاها بأحضانه وهو يهتف: فرقتنا الأيام يا أماه ولم أعرف كيف ألقاك.

١٤-٩-٢٠١١

* من وحي قصة عالمية.

****

هذه العاهرة !!

لكثرة ما أشتاق إلى وصالها قررت أن أبقيها بعيدة عني في غرفة النوم، حين أكون جالساً في الصالون أو في المكتبة أمام الكومبيوتر، حتى أريح نفسي من وصالها لبعض الوقت، نظرا لبعده القاتل الذي قد يودي بحتفي.

طلقتها مرات كثيرة لكن ولعي بها كان يدفعني دائماً لأن أعيدها إلى رحاب بيتي.

هذا الصباح وصلتها ثلاث مرات بحرارة شديدة إلى أن ملأ رحيقها جوانحي. كنت في كل وصال أمتص شفتها مرات عدة فيما هي تفعل المثل.

تجتاحني الرغبة إليها على غفلة، لأجد نفسي أنظر نحو يميني تارة ونحو يساري تارة، بحثاً عنها، وحين أتذكر أنني أرغمتها على البقاء في غرفة النوم، أقتل الرغبة فيها وأعود لمزاولة عملي متجاهلا شبقي الجارف نحوها.

لا أعمل لأكثر من دقائق لأجد نفسي ناهضاً دون أن أعرف لماذا. أمسح بيدي على فخذي ثم على رأسي في محاولة للتذكر. أوه! إنها هي العاهرة! حتى في لا وعيي تلاحقني.

أعود لأجلس أمام الكومبيوتر، لأنهي القصة التي أكتبها. حاولت

التركيز بشكل جيد علني أنسى عاهرتي التي تناديني لوصالها بين فترة وأخرى دون أن تمل.

استغرقت في الكتابة. نسيتها لبعض الوقت. لكن ما أن أنهيت فقرة رضيت عنها، حتى رحت أتلمس ما حولي بحثاً عنها. أدركت أنني أبقيتها في غرفة النوم. هرعت إليها وشبق جارف يدفعني نحوها. سحبتها من مخدعها.. وأطبقت شفتي على شفتيها، لكن أين الولاعة؟ أين وضعت الولاعة، وصالنا لا يكتمل إلا إذا اشتعل بالنار. آه ها هي.. اشتعلي يا حبيبتي. فجري كل شبقك، أعرف أنك ستقتلينني وأدرك أن وصالك شر لا بد منه لي.

دمشق ٢٤-٩-٠١١

* * * * * * * * * * * * * * * *

يوم مولدي

حين تذكر أبي بعد قرابة ستة أعوام من ولادتي، أنني في حاجة إلى شهادة ولادة ليتمكن من إدخالي المدرسة، راح يسأل أمي عن العام الذي ولدت فيه. فأجابت أمي على الفور:

«في عام النكبة، لن أنسى ذلك اليوم حين وضعته في حقل الحصاد، وما أن لفعته وأرضعته حتى تابعت الحصاد، وحين عدت لأطمئن عليه وجدت أفعى في فراشه! تعوذت من الشيطان واستعنت بالله، وإذا بالأفعى تغادر فراشه! يا حبيبي كان نائماً مطمئناً لم يدرك أن أفعى تسللت إلى فراشه»

وهنا احتد أبي وهتف بثقة كبيرة:

« أنت مخرفنة يا ولية! الذي وضعته في حقل الحصاد كان محمداً وليس محمود. محمود ولدته سنة الثلج التي سبقت النكبة بعامين »

احتدت أمي بدورها وهتفت:

«أنا مخرفنه؟! بدك أنسى متى ولدت ابني الذي حملته في بطني تسعة أشهر؟»

ولم يأبه أبي لكلام أمي وذهب إلى المختار ليخرج تعريفاً بي! ونظرا لأن المختار كان أميّاً، ولا يجيد إلا اللغة الهندية حسب قوله، فقد استدعى ابنه ليكتب العريضة.

شرع المختار في تلقين ابنه بعد أن نبهه أنه لا يجيد إلا اللغة الهندية:
« أنا المختار أحمد مهناوي أحد مخاتير عرب السواحرة أشهد أن محمود شاهين بن أحمد علي وابن حلوة أبو حديد مولود من أبويين عثمانيين!

وهنا اعترض الإبن:
« لقد ألغوا هذه يا أبي واستبدلوها ب أبوين أردنيين!»
وهنا اعترض أبي هاتفا:
« بل أبوين ساحوريين من بني عقبة، أتباع عقبة بن نافع رضي الله عنه! »
غير أن المختار اعترض على رأي أبي مذكراً إياه أنه ليس في مقدوره أن يعمل دولة على هواه!

- إذن فلسطينيين!
هكذا هتف أبي، غير أن المختار ذكره بأن الضفة الغربية قد ضمت إلى المملكة الأردنية!

ولم يجد أبي غير الموافقة.
ما أن ختم المختار الوثيقة بخاتم المخترة وألصق إبهامه الأيمن فوقها حتى حملها أبي وعاد غاضباً إلى البيت، لأن تثبيت بني عقبة لم يتم في الوثيقة!

في صباح اليوم التالي كان أبي يقف أمام موظف دائرة النفوس المختص بإخراج شهادات الولادة.
هتف الموظف بعد أن قرأ عريضة المختار:
- متى ولد ابنك؟
- في سنة الثلج!!
- أي ثلج؟
- الثلج الكبير الذي جاء قبل النكسة بعامين!

راح الموظف يهز رأسه بسخرية! ولو أنه سألني لقلت له: يوم أن قطعوا زبرتي فلا يمكن أن أنسى ذلك اليوم بسهولة! فقد ضحك عمي علَي حين وضعني في حضنه ليهديني عروسة! غير أن أيدي راحت ترفع ثوبي وتتشبث بساقي وشيء كالمسلة يدخل في قلفة زبرتي، وسكين حادة يسلها رجل غريب، وأنا أصرخ وأصرخ والسكين يحز قلفتي.. وحين انتهت العملية وأطلق صراحي، أفلت نفسي من حضن أمي وصعدت أعلى السفح الذي ينتصب فيه بيت الشعر، ورحت أرجم الموجودين بالحجارة لأنهم خدعوني وقطعوا زبرتي!

تابع الموظف استفساراته:

- في أي شهر؟

وراح أبي يفكر بصوت مسموع:

« .. في صفر؟ لا شعبان؟ لا رمضان! .. »

ولم يعد الموظف قادراً على الإحتمال. فطلب إلى أبي أن يعود في اليوم التالي لأخذ شهادة ولادتي.

وحين كبرت. عرفت أن الموظف قد حدد يوم ولادتي افتراضياً، في الثلاثين من تشرين الأول ١٩٤٦!! ربما زدت عاماً وربما نقصت عاماً، وما إلى ذلك.

وأنا قررت أن أتعامل مع هذا اليوم الإفتراضي كيوم مولدي! فحياتنا كلها افتراضية - حسب رأي ابن عربي- (وحين يتوقف الله عن خياله الإفتراضي، سينتفي وجودنا!

٢٠١٠

* * * * * * * * * * * * * * * * *

رسائل حب إلى ميلينا

١ - وداع

ميلينا.. ثلاثون ساعة مرت وصورتك لا تفارق خيالي.. لم يعد هناك ميلينا تتنفس في الغرفة المجاورة لغرفتي.. لم يعد هناك ميلينا تجلس في مواجهتي أو إلى جانبي في الصالون.. لم يعد هناك ميلينا تصعد معي الجبال في معلولا ونتسابق في الجري.. ونسبح.. وأبدأ معها مشروع مساج لم يكتمل!!

يدا ميلينا لم يعودا إلى جانبي لأقبلهما.. عيناها غابتا عن عيني، وطعم شعرها لم يعد يداعب شفتي في الصباح!

أين أنت الآن؟ في طرطوس؟ أين؟! هل قابلت الدكتور؟ هل قام بواجبه تجاه صديقة صديق، أم أنه خذلني؟

شاهدت حسان في الطريق. كان معه فتاة عربية أحسست أنها عاهرة! لم يقف معي ولو لدقيقة.. لم يعطني نقوداً.. وعدني أنه سيأتي في المساء لكنه لم يأت، ولن يأتي.. ابتعت طعاماً للبيت ، ولم يعد معي إلا القليل من النقود، ولا أرغب في الذهاب إليه للمطالبة بحقي!! أشعر أنني متسول!

أزعجتني الفتاة التي شاهدتها في الكراج، فقد شغلتني عن النظر إليك حتى لحظة الفراق الأخيرة.. إنها كاتبة بائسة!

أخذت هذا اليوم لوحتين إلى المتحف بناء على طلب مديرته، لم أجد المديرة، ولا أعرف فيما إذا سيدفعون لي شيئاً أم لا، فقد قدمت اللوحتين كهدية للمتحف بعد أن خجلت من وضع سعرهما الباهظ عليهما.

ذهبت أيضاً إلى مقهى النوفرة وجلست مع صديق.. انضمت إلينا فتاتان نمساويتان إحداهما تدرس العربية هنا، والأخرى سائحة..

البيت موحش.. جدرانه تسأل عنك.. وكنباته تتوق إلى جلوسك عليها، وأسرته تسألني فيما إذا لم تعودي للنوم عليها.. أما لوحاتي المجنونة، فكم تبدو حزينة لأنك لم تعودي تنظرين إليها..

كلنا نشعر بالوحشة لغيابك.. وكلنا في شوق إليك.. أنا والبيت والجدران والأسرة واللوحات والشرفة والكنبات والبلاط والمطبخ والحمام والصالون والأبواب....

بالأمس أنهيت الفيلم على بعض اللوحات، ولا أعرف متى سيصبح معي نقود لآخذه إلى استوديو..

أقبلك على شعرك وخديك وعينيك ويديك وشفتيك!!

لا أظن أنني سأنسى طعم أصابع يديك!!

أحبك حتى لو لم تحبيني !!!

نامي جيّداً .. تصبحين على خير..

ملاحظة : أعدت رسم لوحة ميلينا لتصبح أجمل!

محمود

٣١-٧-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٢- عشق

ميلينا

حوالي تسعين ساعة مرت على الرحيل.. أنت الآن تستلقين على شاطيء البحر بمايوهك الأسود...

هكذا أراك الآن حتى لو لم تكوني كذلك...

طعم القهوة مر، والأغنية التي تبث من المذياع لا تبعث اية مشاعر في نفسي... مخيلتي لا ترسم ملامح وجهك بشكل واضح.. نظاراتك تحتل الوضوح الأكثر.. أنا قلق عليك بعض الشيء..... قد يحدث لك ما هو سيء، كيف ستقطعين كل هذه الأميال وحدك؟!

الأريكة في مواجهتي تسألني عنك وتتساءل: لماذا لم تعودي تجلسين عليها في الصباح؟ والبيت بشكل عام ما يزال حزيناً بقدر ما أنا حزين.. أتمنى لو أستطيع البكاء لعلني أخفف من وطأة الحزن على نفسي...

كم شعرت بالفرح لتعرفي إليك، وكم شعرت بالحزن لفراقك؟ لماذا شاء القدر أن يعرفني إلى فتاة أحبها، وتغادرني ليبقى قلبي معلقاً بها؟ راحلاً في المسافات.. مسافراً في الصحاري.. هائماً في البلاد الواسعة، وغارقاً في لجة الأمواج، ضائعاً في الظلام؟!

ترى لو أنني ضممت جيدك إلى صدري طويلاً، هل كانت خفقات قلبي ستردد اسمك بصورة غير التي هي عليها الآن؟

ميلينا أنا عاشق فخذيني إلى بحر هواك، ودعيني أغرق في خلايا جسدك، ولا تنقذيني إلا إذا لفظت أنفاسي الأخيرة..

مدّي لي يدك من أي مكان في هذا الكوكب الملعون، وستجدين يدي

تمتد لتعانقها، وشفتي تتأهبان لتمطراها بالقبل..

ميلينا.. دعيني أهمس في أذنك << أحبك>> وأطبع عليها قبلة خفيفة وأقول لك إلى اللقاء في الرسالة القادمة.

محمود

٢-٨-١٩٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٣- حب !!

ميلينا.. ها أنا أعود إليك بعد الظهر بعد أن كنت معك قبله..

البيت دونك ممل.. مع أنه لم يكن كذلك قبل تعرفه إليك ودخولك إليه..

وقلبي الذي تأقلم مع الحزن لكثرة ما اعتاده، لم يعد قادراً على احتمال أحزان فراقك..

لو أنني نسر لحلقت الآن إلى حيث أنت وحملتك بين جناحي ودرت بك العالم..

لو أنني الله حقا لأمرتك أن تظهري أمامي حالا.. أو أمرت نفسي أن أكون إلى جانبك.

عاجز عن الكتابة إلا لك. عاجز عن التفكير إلا فيك.. عاجز عن الهيام إلا بك، عاجز عن الحب إلا عن حبك!!

خذيني إلى دنيا أنت فيها، أو تعالي إلى جحيم دنياي.. ضميني إلى صدرك ودعيني أغفو إلى الأبد وأنت تملسين على رأسي بأصابعك النحيلة.

خذيني بذراعيك واحتويني بين نهديك لعلي أصير الله.. لعلي أعود إلى الصبا وأطوي سني الخريف وأودعها إلى غير رجعة.

خذيني إلى حيثما كنت، وإلى حيثما تكونين، إذ يبدو لي أنني سأعجز رغم كل قوتي وجبروتي عن الحياة دونك ، فأنت منذ اليوم حياتي، وأيام فرحي وشقائي وسني عمري، ما مضى منه وما سيأتي...

محمود

٢-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٤- التاجر!!

ميلينا .. بعد ثلاث دقائق سيبدأ يوم جديد.. إنها المرة الثالثة التي آخذ قلمي لأكتب لك هذا اليوم..

ترى ما جدوى الكتابة؟ هل ستخفف من حزني؟ هل ستخفف من وحشتي دونك؟ هل ستطفيء نارشوقي إليك ؟

أعدت رسم لوحة ميلينا هذا اليوم للمرة الرابعة.. رسمت لوحة أخرى.. وجاء تاجر لشراء مكتبتي وأشياء أخرى من البيت!! لم يشتر شيئا. وعدني أن يعود.

لا بد أنك نائمة الآن.. فأنت تنامين مبكرًا.. وأنا أعد الساعات على فراقك.. ست وتسعون ساعة مضت... يا إلهي هذا زمن طويل كما يبدو.. كيف سأحتمل الزمن القادم ..؟ هل سأنتحر إذا لم أحتمل؟ ربما!!

لكنك ستأتين في اللحظة المناسبة كما يحدث في الأفلام وتنقذيني من موت محتم!!

ذهبت إلى حسان بالأمس رغم قراري بعدم الذهاب.. لن أبيع لوحات بالدين بعد اليوم.. لكن ماذا أفعل حين أكون محتاجاً .. يا إلهي كم أضعت من لوحاتي بين مستدين وبين مسوّق لطش اللوحات التي أخذها ليبيعها!!

آه يا ميلينا .. أحياناً أشعر أنه لا يوجد أسخف من هذه الحياة .. وأنه لا يوجد شيء يستحق أن نحيا من أجله بعد تعدد الخيبات في حياتنا..

حسان وعدني أنه سيأتي في المساء.. لكنه لم يأت كما في اليوم السابق.. كنت أعرف أنه يكذب، ومع ذلك انتظرته في البيت! على أية حال ما معي من نقود لا يكفي لأن أنتحر.. فإلى أين سأخرج؟

تعرفين أن المرة الوحيدة التي دعاني فيها حسان على الغداء هي المرة التي كنت فيها معي.. كنت أعرف أنه وضع عينه عليك!! لا أعرف

لماذا خطر في بالي الآن الأخوة الثلاثة الذين حاولوا مضاجعتك معا في البتراء..!! تعرفين لماذا لم أسألك ماذا فعلت معهم؟ لأنني لم أكن راغباً في سماع الإجابة حتى لو لم تضاجعي إلا واحداً منهم!!

لا أعرف لماذا لا أستطيع أن أغير نفسي يا ميلينا.. دائماً أنسى أن حسان تاجر وأنا أديب وفنان ولا يمكن أن نكون أصدقاء حقيقيين.. فالتاجر تاجر والفنان فنان حتى لو كانا إنسانيين!!

بالتأكيد هذه واحدة من أسوأ الرسائل.. لم أغازلك فيها، وربما فتحت جروحاً تحاولين نسيانها..

سأغازلك الآن:

أشعر بالنعاس فيا ليتك تضميني إلى صدرك وتدعوني إلى النوم وتربتي على ظهري كما لو كنت طفلاً...

أسوأ غزل خطه قلمي..

أقبلك ..

محمود

٣-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٥- غزل!

ميلينا.. دعيني أضم رأسك إلى صدري وأملس بيدي على شعرك، وأهمس في أذنك كل آهاتي:

أحبك كلما غنى الحب

أحبك بقدر همسات العاشقين

أحبك كلما تبادل حبيبان القبل

أحبك بقدر قبلات العشق

وقبلات الأمومة

وقبلات الأخوة

وقبلات الطفولة

أحبك بقدر القبل كلها

أحبك حتى لو لم يكن هناك حب!

أحبك حتى لو أفني الحب من قلوب البشر

أحبك حتى لو أصبح الحب لعنة!

أحبك حتى لو أصبح الحب طعنة!!

أحبك رغم تحريم الحب!!

أحبك رغم منع الحب في بلادي!!

أحبك حتى لو كان في حبك موتي

أحبك ..... حتى يبح صوتي!!

أحبك حتى لو غضبت

أحبك حتى لو زعلت

أحبك حتى لو جننت!

أحبك حتى لو كان ثمن حبك أن أكره الناس!!

أحبك.. أحبك.. أحبك.. وسأحبك كل حياتي!

وسأحبك بعد وفاتي!!

وسأحبك بعد قيام الساعة

سأحبك يوم القيامة

سأحبك حتى لو كنت في جهنم!

سأطلب إلى هذا الإله أن يحرقني معك!!

سأحبك إن كنت في الجنة!

وسأختارك دون حوريات الله الإثنتين والسبعين!!

ولن أقبل أن ترجعي إلي عذراء بعد مواقعتك!..

سأبقيك ثيباً..

أحبك يا حبيبتي.. أحبك.. وآمل أن لا يطول فراقنا الذي لم يبدأ إلا منذ أيام.

أقبلك...

محمود

٤-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٦- غرام!!

ميلينا.. لهذا الصباح طعم مر، لأن ابتسامتك لم تشرق عليه.. لا لون لهذا الصباح لأني لم أر وجهك.. لم أملأ عيني بمرأى عينيك، ولم تعبق في أنفي رائحة شعرك ولم تذق شفتاي طعم خديك، ولم تعانق يداي يديك.. ولم ترقص أصابعي للمس نهديك!!

ميلينا.. ضائع أنا هذا الصباح بين وجهك وبعد المسافات.. غارق في وحشتي وغياب عينيك، موغل في السراب وفضاءات النهار، راحل في السديم، وهائم في متاهات الظلام..

حزينتان عيناي هذا الصباح، وشفتاي كسيرتان.. أبحث عن وجهك في خيالي، وفي ذاكرة الوعي... واللاوعي.. في سراب الصحاري القاحلة.. على شطآن الفرات..

في أزقة حلب القديمة.. على أسوار قلعتها.. دون جدوى!!

أفتش عن كلمات تسليني، وتهرب مني الألوان.. وتبحر في ذاكرتي سنون من القلق والخوف، وشتات القوافي، وبحور الشعر، ورنين الإيقاعات، وعجز الأوزان، وزخم الهواجس!

تلوح القدس من أعماق أعماق اللاوعي.. أجوب جبالها وأوديتها وبراريها، وأهيم في صحاريها الصغيرة! أقف على قمة جبل المنطار حيث أرض أبي، وحيث كنت أرعى قطيع أغنامنا في الصغر!! هناك على قمة المنطارأبني بيتا نقطنه، وأحفر قبرين!! قبر لي وقبر لك!! وحشتك تكلل فضاء هذا الصباح، وفضاءات كل الصباحات..

أشتاق لصوتك.. أشتاق لخطاك.. أشتاق لامتناعك! أشتاق لإذعانك! أشتاق لإقبالك! أشتاق لإدبارك! أشتاق لصمتك، أشتاق لهدوئك.

أشتاق إليك، لأنني حقا أعشقك، لأنني حقا أحبك، وأتوق إلى عناقك، وطيب طيب وصالك!!

أقبلك ....

محمود

٥-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٧- وحشة !

ميلينا.. يترنح اللون الأسود في غيهب المسافات.. يملأ فضاءات الفراغ.. لا فرح هناك!! وطيف وجهك يلوح في السحاب، تحاصره الغيوم السود، وذئاب من ضباب!!

أتأرجح بين لا فرحي وحزني كسعفة نخيل تذروها الرياح.. وليس ثمة أمل إلا بلقياك وإن طال الغياب!!

مثلم قلبي من نزيف الأيام

وجراحي تأبى الإلتئام!

في مواجهتي تغلق نافذة دفتها

ويمتطي السديم متن الأفق

يمد السراب فراشه على سعة الصحاري

وطعم القهوة يغدو بلا طعم

وجلسة الشرفة لا تنبىء ببهجة القابع فيها..

* * * * * * * * * * * *

صعب كلامي عليك!!

وصندلك يقفز إلى ذاكرة الجنون.. وقدماك تستسلمان إلى الجلد الذي كان يوما لكائن حي!! تخزني شوكة في ابهام القدم الأيسر.. أقلعها.. وجلستك في مواجهتي في الكهف الصغير بين الصخور، في سفح الجبل المعلولي، تنسيني نز الدم!

لم عاكسني قدرك، ولم يتح لي أن أعريك في ظلال الكهوف؟!

تمتد يدي مرتعشة لتمسد على فخذيك بحنان رباني.. يحل الله في ثنايا صدري، ويتأبى جسدك على اللمسات الربانية!

فرح يأبى الإكتمال

وصال لا يبلغ الذروة!

رعشة تقتلها البدايات المترددة

رايات عشق تأبى أن تخفق مع الريح!

xxxxxxxxxx

للألوان طعم اللا معنى مهما حاولت أن تكون فرحة!

عدم يفرض وجوده على الوجود!!

زيف يكلل كل الكائنات

تشوهات تأبى إلا أن تملأ النفوس

وحده الدخان يأخذ حريته في الدخول إلى الرئات

وامتطاء متن الهواء!

رغبة عارمة تحدوني لأن أبكي على صدرك.. طويلا.. طويلا..

أقبلك.. قبليني..

محمود

٦-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٨- وحشة أيضا!

ميلينا.. لا رغبة لي في الخروج من البيت، وليس ثمة متعة في البقاء، وتحاصرني رغبة في البكاء!!

لا رغبة لي في الجنون، ولا حلم يلوح في جنة الله!!

تلح علي أبيات شعر كتبتها منذ أعوام.. سأنقلها لك:

يحن إلى الحنين الحنان

ويحن إلى الريح النسيم

ويحن إلى الطين التراب

ويحن إلى الحروف الكلام

ويحن إلى السديم الضباب

ويحن إلى الشجر الحطب

ويحن إلى الليل الظلام

ويحن إلى الفل الأقحوان

فلم لا يحن إلى الآباء البنون

ولا تحن إلى الأيام السنون

ولا يحن إلى الوقت المكان

ولا تحن إلى القلوب الجفون

ولا يحن إلى الحب السلام

ولا يحن الحنان إلى الحنان

ولا يحن جورج إلى اسحق

ولا يحن اسحق إلى كنعان

ولا يحن كنعان إلى كنعان

فهل ثمة من يشمر عن ساعديه

لينصب معي مشنقة لهذا الزمان!!؟

* * * * * * * * * * * *

ميلينا..

كان يجب أن أخرج هذا اليوم لأبحث عمن يشتري لوحات بأي سعر كان.. أو يشتري أثاث بيتي، أو يشتري بيتي نفسه، أو يشتريني أنا!! لا أعرف فيما إذا هناك من يدفع سعراً لروائي ورسام وشاعر وناقد وصحافي!! ترى كم أساوي؟! ألف دولار مثلاً؟!

على أية حال لم أخرج، لا في الصباح ولا في المساء، وأظن أنني سأدخل في رحلة مع الألوان بعد أن أملأ هذه الصفحة لك بأشواقي وأحزاني وقبلاتي..

كتب أحدهم ذات يوم في دفتر معرضي:

<<.. شاهين.. يا من تحيا بأدبك وفنك فيما نحن نموت بشقائنا>>

لا تتصوري كم بحثت في أرشيفي لأجد هذه العبارة. قرابة ساعة من البحث في الكم الهائل من المخطوطات والمجلات والملفات دون جدوى.. ولا يمكن أن تتصوري مدى دهشتي حين وجدتها في الدفتر الذي أكتب لك فيه!! إذ لم يكن ممتلئاً.. وكنت قد طويت الصفحات الممتلئة واستأنفت الكتابة لأملأ الدفتر!!

ترى ماذا لو عرف كاتب العبارة أننا نتقيأ الدم الأزرق كي نحيا بالحد الأدنى من الكرامة!! صحيح أننا نجد بعض السلوى في ما نكتبه أو نرسمه لكن ذلك يأخذ منا الكثير من السهر والجلد والمعاناة التي لا حدود لها.. ولنحيا بعد ذلك في شقاء وليس في رفاهية..

ما الذي يفيدني من مئات كلمات الإعجاب والإطراء وحتى الغزل من بعض الصبايا سوى العزاء؟! وحتى هذه الكلمات قد ينسفها أحدهم حين

يكتب في الدفتر:

<< طز عليك وعلى فنك لو كانت دجاجة لخربشت أحسن منك >>

هذه حالنا.. يا ميلينا..

أقبلك وأدعو إلهي أن يحميك أينما كنت.

محمود

٦-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٩- فرحي الأخير!

ميلينا.. يبدو أن شوقي إليك أكبر من شوقي إلى الألوان.. كنت جالساً في الشرفة ، وما أن أنهيت الرسالة حتى دخلت إلى الصالون كي أرسم شيئاً ما، لكن، تبين لي أن عقلي ما يزال معك وليس في رأسي، فهل تردين إلي عقلي أيتها الخاطفة؟!

للمرة الثالثة أكتب لك هذا اليوم، ولا أعرف كم سأكتب لك، وإلى متى سأظل أكتب لك، والألوان تندهني كلما نظرت إلى سحرها، لأستلقي بين أحضانها، وأسكب دموعي وآهاتي، وأطرح عني ركام الأحزان والآلام، ونغص الحياة الشرقية، وأتوحد قليلا مع الله!!

ألله يا ألله، لا تقسو على قلب صنعته للمحبة، وبثثت فيه رؤية مغايرة للحق!!

الله يا ألله، لم حرمتني عيني ميلينا؟! لم لم تتح لي حتى أن أجوب معها فضاء الأمكنة وبعد المسافات وأفول الحضارات؟!

ألله يا ألله.. هل أسقطتني من حسابك من بين كل مخلوقاتك؟ هل زاغت عيناك عني واستحالتا إلى عدم الإكتراث؟!

ألله يا ألله لا تدعني أغضب منك، رغم قناعتي أن غضبي لن يضيرك شيئا، ولن يخفف من آلامي شيئا..

ألله يا ألله، إن كنت قد قسوت علي فلا تقسو على قلب ميلينا، فهي أملي الأخير، وحبي الأخير، وبسمتي الأخيرة، وفرحي الأخير، وبصري الذي أرى به أيام شقائي الأخيرة، وأجمل الأحلام التي راودت مخيلتي..

فكن رحيماً بها يا إلهي، وكن عطوفاً معها، واغدق عليها نعمتك، واشملها برعايتك، واكلأها بعنايتك، وإلا فلن أغفر لك يا إلهي، لن أغفر

لك في حياتي، ولن أغفر لك بعد وفاتي، ولن أغفر لك حين تبعثني من رفاتي !!!

محمود

****

١٠- صراخ !!

ميلينا... ميلينا... إنني أنادي بأعلى صوتي.. إنني أصرخ.. ميلينـــا.. م ي ل ي ن ا..

لماذا لا تتركيني لأحزاني؟ لماذا لا تغيبين من مخيلتي؟ لماذا لا تختفين من أمام عيني؟ لماذا لا تنهضين من جانبي؟ لماذا لا ترفعين رأسك عن صدري؟

للمرة الرابعة أعود إليك هذا اليوم.. رسمت مساء ثلاث لوحات، وأجريت تعديلا على لوحتين رسمتهما منذ أول أمس.. وألّفت عشاءً وتعشيت وشربت العرق، ولم أجد نفسي إلا وهي تتوق للقياك!

عقارب الساعة تدخل الآن إلى اليوم السابع من آب.. إلى يوم الأربعاء.. يوم لن أراك فيه بالتأكيد.. يوم لا تعرفين فيه أنني أتعذب لفراقك.. يوم لا تعرفين فيه أنني لا أنام إلا إذا تخيلتك إلى جانبي.. ولا آكل إلا إذا رأيتك تأكلين معي.. ولا أشرب إلا إذا شربت معي.. ولا أرسم إلا إذا شاركتني رسم لوحاتي.. حين أحببت بيرجت وسافرت عشت حالة مشابهة، لكن بيرجت عادت وعشقنا بعضنا قرابة عام ثم تزوجنا لنشرع معا في قتل الحب الذي عشناه دون أن ندري.. ولم تكد بيرجت تنهي رسالة الدكتوراة إلا وكنا قد نحرنا حبنا تماماً وأجهزنا عليه.. فتطلقنا.. يوم الطلاق خرجنا من القصر العدلي معا.. قلت لها إلى أين ستذهبين؟ قالت لا أعرف. فدعوتها إلى الغداء خارج دمشق. وافقت. قبل أن نأخذ سيارة مر بنا صديق وأصر أن يوصلنا بسيارته إلى أي مطعم.. سألنا عما كنا نفعله في القصر العدلي فأجبته. نظر إلي بدهشة من خلف المقود غير مصدق لما سمعه!! أوصلنا إلى متنزه وأبى أن يشاركنا الغداء.. وفيما كنت انظر نحو جبل قاسيون ومخيلتي تمر بسرعة على تسع سنين من

الحياة الزوجية مع بيرجت، أبت عيناي إلا أن تذرفا الدموع!!
هتفت بيرجت:
• لماذا تبكي؟
قلت بصوت متحشرج من جراء البكاء:
• أظن أن تسع سنين من الحياة المشتركة تستحق أن نذرف من أجلها بعض الدموع.. ثم إن هذه الحياة التي تخذلنا دائماً ولا نستطيع أن نسيرها حسبما نريد تدفعني إلى البكاء أيضاً..
علقت بيرجت بثلاث كلمات دون أن يبدو عليها أي تأثر:
•طيب. خلص، خلص!
قاصدة أن أتوقف عن البكاء.. وتوقفت، ليس لأنها طلبت ذلك، بل لأن الدميعات التي ذرفتها عيناي كانت كافية للتعبير عما كان يجول في نفسي!
حين طلقت سميرة بعد زواج دام اثني عشر عاماً، لم أذرف ولا دمعة، ولم أكن نادما على الحياة الزوجية التي حفرت قبرها!! ولو أنني استطعت أن أحيا مع بيرجت في هذا المجتمع دون زواج لفعلت..
أنا مقتنع تماما أن المؤسسة الزوجية مؤسسة فاشلة للغاية، وأن الزواج مقبرة الحب!! أليس كذلك يا ميلينا؟! إذا ما التقينا ثانية سأعمل على أن يظل حبنا حاراً كالعشق.. ثم إنني بدأت ألج خريف العمر وليس من المعقول أن أمضي العمر عشق فزواج فطلاق.. ومن ثم عشق فزواج فطلاق، إلى ما لا نهاية.
أظن أن ما تزوجته وما عاشرته من نساء يكفي لهذا السن من العمر!!!!!
لا أعرف لماذا أشعر أن أجمل المواقعات في حياتي هي التي لم تتكرر

بعد ليلة واحدة.. وتظل نكهتها مدى الحياة!! أما المواقعات المتكررة مع أي أنثى تقتل متعة المعاشرة الأولى، فما بالك بالثانية والثالثة والرابعة والخامسة والألف؟ فكلما ازداد اللاحق كلما قتل جمال السابق!!

ميـــلـــيـــنـــا.. سأعود إلى صراخي.. أين أنت؟ أين أنت؟ أحتاج إليك أكثر مما أحتاج إلى قلبي.. متى سألقاك ثانية؟ متى تعيدين عقلي إلي؟ متى يسترجع قلبي نبضه العادي؟ متى أحيا فرحي الذي قد يكون الأخير!!

محمود

دمشق. الثلاثاء ٧-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

١١- صدق الله!

ميلينا.. أنا وطيف وجهك وصوت فيروز والميجنا والصباح وذاكرتي والصمت، والله، ولا شيء غير ذلك يؤانس جلستي!

سألت عنك الألوان فلم تجب، سألت الأشعار والحكايات، سألت الشرفة، سألت

النباتات والورود المحيطة بي، سألت الكراسي والمقاعد، سألت الأواني والطاولات،

سألت فيروز، سألت الصمت، وسألت ابنة الجيران حين قرعت بابي راجية رأيي في موضوع إنشاء، فهتفت بدهشة:

- من ميلينا هذه؟!
- حبيبتي! كانت هنا منذ أيام، ألم تريها؟
- هل هي هذه الأجنبية التي كانت دائماً تحمل حقيبة على ظهرها؟
- أجل أجل إنها هي!
- للأسف يا استاذ لم أرها، لكن أين ذهبت؟
- سافرت !!

وصمتت الفتاة حين أدركت أنني جننت.. فكيف أسألها عن فتاة سافرت؟ ويبدو أنها تخلت عن موضوع الإنشاء، فقد ارتأت تأجيل الأمر واستأذنت بالإنصراف..

سألت كل شي عنك يا ميلينا.. لم أتلق أية إجابة مهما كانت.

قال لون للون آخر:

غادرت محبوبته وأخذت قلبه معها!

وقالت وردة جورية لياسمينه:

سافرت من يعشقها وأخذت عقله معها.. يا رب رد له عقله، أو رد إليه

محبوبته.

وقال الصمت للريح:

قلبه كسير، ونفسه محطمة، وليس ثمة فرح يخرجه من عزلته، ليس ثمة فرح يلوح في الأفق..

سألت عنك الله لعله يجيب. صمت في البداية، لكنه أجاب بعد طول رجاء:

- لا تيأس فالأيام القادمة أجمل!!

سألته ثانية :

- ماذا تقصد يا إلهي، هل سأرى ميلينا ثانية؟
- أجل وستحيا معها بقية عمرك!!

لم أصدق الله، فغضب مني ولاذ بالصمت!!

ميلينا.. هل كان الله صادقاً حقا؟ أنت وحدك من يستطيع أن يصدق كلام الله...

وإذا ما كان ذلك صحيحا سأزرع السماء ورداً، وأحيل الغيوم إلى ثياب زفاف لك، وأعمل من الضباب وسائداً، ومن السديم فراشاً يعانق الورود، ومن الكواكب والنجوم قلائد لك!!

أحبك.. دعيني أقبلك على عينيك.

محمود . الأربعاء. ٨-٨-٩٦

****

١٢- زعل !!

ميلينا مرحبا ومساء الخير.

حاولت هذا اليوم ترك فيروز والميجنا والأعمار غير المنسية ومنجيرة الراعي والألوان، والخروج من البيت.. ذهبت إلى مقهى النوفرة حيث التقينا أول مرة.. لم أجلس في أي من المقهيين. صعدت الدرج وجلست على الرصيف أمام جدار المسجد الأموي.. أشعلت سيجارة وانتظرت إلى أن دخنتها ونهضت. لم أستطع الجلوس لأكثر من ذلك.

سرت شرقا في الطريق الذي سلكته معك ليلاً إلى باب شرقي. شربت زجاجة بيرة في الكافتيريا التي جلسنا فيها معا. ثم أخذت تكسي وعدت إلى البيت.

أحضرت الألوان ورحت أرسم رغم أن هاجس الكتابة كان يضغط على روحي والكلمات تندهني متوسلة، لأنني هجرتها منذ زمن يبدو أنه سيغدو طويلا.

ما أن أبحرت في الألوان حتى راح هاجس الكتابة ينهزم أمام السحر الأخاذ الذي راح يتدرج على صفحة الكرتون!

رسمت أربع لوحات كبيرة بسرعة جنونية (أقل من ساعتين)

زعلان منك!! أنا أفكر فيك دائماً ولا أستطيع أن أنساك، مع أنك لم تفعلي لي شيئاً

يدفعني لأن أحبك! وجمالك ليس باهراً، بل أقرب إلى العادي، فلماذا أنا مولع بك إلى هذا الحد؟

إنه قلبي الحزين، سليه، فقد يكون الجواب عنده!!

كنت أبحث عن روحك قبل جسدك، أما أنت فربما لم تكوني في حاجة إلا إلى جسدي، كأي جسد آخر كنت تمتطينه أو يمتطيك!!

حين شرعت جينيا في التعري في أول ليلة غرام في موسكو، رحت أرتجف من قمة رأسي حتى آخمصي قدمي، لهول الجمال الذي راح يهتك كل أستار الحياء أمامي!!

هتفت:

أحبك.. أعبدك.. دعيني أسجد أمام جسدك قربانا مني على مذبح حبك!!

راحت جينيا تضحك وتضحك وتضحك وكأنني أدليت بطرفة!!

لم يكن كل هذا الكلام يعنيها.. جسدي المنتفض كان غايتها.. ليكن!

طوال أربع وعشرين ساعة لم أتوقف عن الحب..

وحين كنت أعلن استسلامي في أصيل اليوم التالي وأقف في مواجهتها مستأذناً

للذهاب إلى الحمام، فوجئت بها تنهض وتنحني أمامي! هتفت:

ماذا تفعلين يا مجنونه؟

فقالت:

إني أنحني لجسدك لأنه يستحق التقديس!!!!

الجسد الجسد الجسد ولا شيء غير الجسد. ألم يعد هناك روح يا ميلينا؟

أجيبيني بحق المسيح!

سأقبلك قبلة واحدة فقط على خدك الآيمن قبل أن أقول لك وداعاً.

محمود ..

٧-٨-٩٦

الأربعاء .

* * * * * * * * * * * * * * * * *

١٣- تشاؤم

ميلينا.. أنا متعب وحزين!! ليس في جعبتي الآن سوى بعض الكلمات التي سطرتها على عجل.

لا تلمني يا صديق

راحل في متاهات الظلام

غارق في لجة الطوفان

عابر في الحريق

* * * * * * * * * * * *

لا تقل كنا

لا تقل شئنا

لا تقل للآتي آت

كم مضينا في السبات

كم هجرتنا المنافي

وكم لفظنا الشتات

* * * * * * * * * * * *

عيون لا تنام

قلوب لا تضام

رغم شح الهوى

رغم طول النوى

كفَ ثقل السقام

* * * * * * * * * * * *

راحل في ذكريات الطفولة

موغل في أحلام الصبا

عائد من متاهات العدا

نورس يشدو للسلام!!

في ظلام مدلهم

في ليال من زؤام

xxx xxx

لا تلمني يا رفيق

لا تلمني يا صديق

لم يعد ثمة أمل

ينقذ حلما غريق!!!

معذرة ميلينا..

أقبلك.

محمود

٨-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

١٤ - هيام!

ميلينا.. يأخذني سحر عينيك بعيدا عن سحر الألوان.. أهرب من إعادة النظر في اللوحات التي رسمتها مساء أمس، رغم أن الألوان ألحت علي أن أعطيها حريتها..

أعطيتها..!! جن جنونها وراحت ترسم عوالم مجنونة، عوالم عجيبة، يمتزج فيها حلمي بك، بإلهي الذي ابتدعته لي وحدي، والذي أشعر أنه دائما معي! وكثيراً ما تساءلت بيني وبين نفسي، هل يعقل أن يكون الله كما أردته أنا؟ كما تخيلته؟!

ما لي وما لإلهي الآن، دعيني أحدثك عما مزجته الألوان من طبيعة مغرقة في جمال أخاذ. جمال لم أر مثله من قبل في أي مكان، لم أره حتى في الأحلام، طالما حلمت كثيرا بالألوان..

كم هو جميل عشق الألوان يا ميلينا، وكم هي جميلة الألوان بحد ذاتها، حين تأخذني إلى عوالمها وتغمرني بكل أحاسيسها، وتدعني أغرق وأغرق بين أحضان الوجود ومحبة إلهي بعيدا عن خبث ومكر وكيد ولؤم ونفاق وكذب بعض الناس..

تأبى الألوان إلا أن تكون معي حتى وأنا أكتب إليك.. هاهو الكلام يغضب مني ويدخل على الخط صارخاً بي:

(الألوان الألوان.. دائما الألوان، ونسيت أنني من عملك كائنا لك مكانة مرموقة بين الناس بعد أن كنت نكرة لم يسمع بك أحد.. وتنسى أنك لولاي لما كتبت كلمة مما تكتبه لميلينتك هذه التي دوختنا بها)

كان علي أن أصمت قليلا لأستمع إلى ما يقوله الكلام ولأرد عليه قبل أن يتدخل اللون مدافعاً عن نفسه:

(حسنا أيها الكلام.. أشكرك لكل ما فعلته لي رغم كل الرقابات العربية

التي كنت تحرجني أمامها، فتضطر إلى شطب فقرات كثيرة منك أومنعك من أن ترى النور. وأعدك أنني سأتيح لك حرية الدفاع عن نفسك أمامي وأمام اللون لكن ليس الآن أرجوك..)

وحاول الكلام أن يرد علي فقمعته بغضب:

(انصرف من وجهي حل عن ربي !! قلت لك بعدين!)

يبدو أن غضبي على الكلام جعلني أبتعد عن الألوان الآن فقد أراد ت الآخرى أن تتدخل وترد على الكلام، فغضبت منها هي الأخرى وأمرتها أن تنصرف بعيدا عني وعنك، فانصرفت حزينة كئيبة دون أن تبدي انزعاجها!!

ميلينا.. أين عيناك الآن؟ أي نسيم يداعب شعرك؟ أي شعاع شمس ينعكس من وجنتيك؟ أي مكان يحظى بنظراتك إليه؟ أي حضن يضمك؟ أي شفتين تطبقان على شفتيك؟

آه ... حزين أنا، وفراقك لا تحتمله شروخ نفسي الدائمة، حزني الأبدي، إنهما أثقل من أن يحتملهما قلبي الكسير. مدي يدك يا حبيبتي حيث أنت وخذيني إليك.

دعيني أمطر خديك بقبلاتي.. دعيني أقبل الشامات التي تنتشر في أنحاء جسدك.

دعيني أسكر برحيق شفتيك حتى الثمالة. دعيني آهيم بحبك حتى الموت!!

محمود .

٨-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * * *

١٥ - طلب يد !!

ميلينا.. حبيبتي، روحي، عقلي، قلبي، عيني...

كم هي فظيعة هذه الألوان، حقيرة!! يبدو أنها تريد أن تنتقم مني لإزعاجي لها بالأمس!! فقد ألقيت نظرة على اللوحة التي انتهيت منها منذ لحظات، فتبين لي أن هناك حركة في حاجة إلى إعادة نظر.. عدت إلى اللوحة وأمضيت معها قرابة ساعة وها أنا أعود إليك.

ميلينا.. لقد اتخذت قراراً يمكن أن يريحني قليلاً، وهو أنني سأتقدم إلى طلب يدك!

فهل تسمحين يا حبيبتي؟ هل توافقين؟ هل تقبلين أن تكوني زوجة لي على سنة إلهي وسنتي!!

سأقدم لك مهراً مائة لوحة مختلفة الأحجام، وخمس روايات عشق، ومائة رسالة حب (تحسب الرسائل التي كتبتها لك حتى الآن منها) ومائة دولار أمريكي، ومائة من العملة النمساوية، لا أعرف اسمها! ومائة مارك ألماني، ومائة دولار كندي! ومائة دينار أردني، ومائة دينار كويتي، ومائة جنيه استرليني، ومائة فرنك فرنسي، ومائة روبل روسي، ومائة ين ياباني، ومائة ليرة سورية!

وعشرة بناطيل جنز! وعشرة قمصان حرير، وعشر شلحات حرير،وعشر تنانير أطلس!! وعشر كيلوتات حرير حمر وسود، وعشرة صنادل من جلد الأفعى!

وعشرة من جلد الغزال، وعشرة من جلد الحوت، وعشرة من جلد الكركدن!!

أكثرت من الصنادل لأنني أعرف أنك تعشقين تسلق الجبال وتحتاجين إلى المزيد من الأحذية؛

وإسوارة ذهبية، وإسوارة فضية، وإسوارة نحاسية، وثلاثة خواتم من الذهب والألماس والفضة، وعقد من اللؤلؤ، وعشر زجاجات من المسك، وعشر من العنبر تتعطرين بها في ليالي شهر العسل الحمراء!!

نسيت.. وعشر قمصان نوم حمر من الحرير لليالي السرير في شهر عسلنا!!

ميلينا.. أنا في انتظار ردك في أسرع وقت ممكن. وإياك أن تظني أنني أمزح، فالمسألة جدية جدا جدا جدا ..... جدا.!!!!

وهذه قبلة خفيفة على شفتيك.. أريد أن أوفر القبل لشهر العسل.. سأجعلك تكرهين القبل!!

محمود ٩-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

١٦- مائة حمامة !!

ميلينا.. صباح الخير.. هذا الصباح ليس ككل الصباحات، فلقد طلبت يدك بالأمس لأنهض منتعشاً هذا الصباح، وأغني مع فيروز، وأهجر عشيقتي قبلك! أقصد الألوان، ولو لبعض الوقت.. ثم إنني اكتشفت تقنية جديدة في الرسم منذ يومين، وتنقصني بعض المواد، ولا يوجد نقود، وحسان اختفى تماماً.. ثمة ضيف في الغرفة المجاورة، وأنا الآن أغني مع فيروز:

(راعي بكي ومنجيرتو متلو بكيت تيتسلى... شو أولكن عالسكت آلتلو... شو أولكن ألا!!

خليك حدي تايروء الجو، ورندح وسمعني.. ولمن بيطلعلك يا راعي الضو تبئى تودعني!)

لا أعرف كيف ستفهمين اللهجة اللبنانية! ولا أعرف أين سأذهب بكل هذه الأشياءإذا ما قررت الهجرة إلى النمسا؟! ربما اشتري بيتاً صغيراً، أترك فيه كل الأشياء وبعض اللوحات التي لن آخذها معي.

ترى أين أنت الآن، في تركيا؟ هل أرسلت لي بطاقة قبل مغادرة سوريا؟ هل اتصلت بحسان من حلب؟ هل ذهب إليك ؟أتمنى ألا تكوني قد هاتفت، وألا يكون قد رآك ثانية.. فيروز:

(بعدها هاليمامة عالسطح بتجي.. بحملها سلامي وبئلها اكرجي)

وأنا أيضا في حاجة إلى مائة حمامة (يمامة) وليس إلى حمامة واحدة، لأحملها لك رسالة كل يوم. كل يوم حمامة جديدة ورسالة جديدة، وإلى أي مكان يحظى بلقياك، إلى أن أنتهي من مهرك، المائة رسالة!

ميلينا.. دائماً الحياة تجري عكس ما نريد، ولا أعرف متى سألوي عنقها بنت الكلب هذه، وأجعلها تسير حسبما أريد!!

أقبلك قبلتين على عينيك، وقبلتين على وجنتيك، وقبلة على خدك، مثل تلك التي قطفتها منه ونحن نغادر فندق سفير معلولا.

محمود..

٩-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

١٧- ألفن والحب والكذب !!

ميلينا.. مرحبا..

كلماتي هذا المساء تتعثر،، لا تود أن تلقي نفسها على صفحة الورق..

فرغت لتوي من صراع مع الألوان.. لم أستطع إلا أن أرسم.. رسمت بالأمس أربع لوحات أعدت النظر فيها هذا الصباح، إلى أن رضيت عنها.. خرجت لأبحث مشكلة الهاتف المعطل.. التقيت حسان وأعطاني جزءاً من ثمن اللوحة.. ابتعت أنواع كثيرة من الخضار واللحوم.. سأطهو أكلتي المجنونة بعد أن أفرغ من الكتابة إليك.. فليه العجل مع أفخاذ الدجاج مع قرابة عشرة أنواع من الخضار، إضافة إلى البصل والثوم والأرز طبعا.. سآكل عني وعنك!

متعب وحزين كالعادة، مع أنني أحب فني وأدبي وأعتبرهما الأهم في حياتي، لكن، وفي بعض الأحيان أشعر ألا جدوى من أي شيْء، وأن عشق إمرأة قد يساوي أجمل لوحات العالم وأعظم الروايات، وأروع القصائد.

أجمل كذبة يمكن أن أكذبها الآن هي أن أعتقد أنك تهيمين بي حباً وغراماً، أكثر مما أهيم بك ولها وعشقاً!! والأجمل من هذه الكذبة هو أن أصدقها، وأتعايش معها، وأحلم بأن هناك امرأة في هذا العالم تحبني وتنتظر لقياي!!

لأحلم إذن:

أنتظرك كل صباح إلى أن تنهضي من النوم.. وأنتظرك كل مساء إلى أن تغرقي في سبات عميق.. أرقب عينيك المطبقتين إلى جانبي، وجفنيك المسبلين، ورموشك السارحة على وجنتيك.. تنتظم دقات قلبي مع دقات قلبك، وأنفاسي مع أنفاسك، ويستقيم طولي إلى قوامك.. وألثم وجنتك بقبلة كالنسيم كي لا أعكر صفو نومك، وأحتضنك بكل ما يكتنز قلبي من

حنان، لأغفو في أجمل نوم، وعيون الله تحرس طيب سباتنا!!

محمود.

١٠-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * * *

١٨- شعاع رباني !!

ميلينا..أخذتني الألوان في رحلة مجنونة طوال خمس ساعات.. تشاجرت معها وخاصة مع اللون الأسود ألذي راح يفرض حضوره علي في كل اللوحات! وما أن فرغت من اللوحة الخامسة حتى سجنت اللوحات في المرحاض العربي..! إنها تصرخ الآن وتدق على الباب من الداخل راجية أن أفتح لها.. لن أفتح لها إلا بعد أسبوع، أي بعد انتهاء فترة السجن!!

عدت إلى التفكير فيك.. دائماً كنت أتخيل نفسي مع بيرجت.. الآن لا أتخيل نفسي إلا معك، وفي الغالب على قمة المنطار وليس في النمسا.. هناك بنيت بيتاً ومتحفاً وقبرين أيضاً، كما أخبرتك من قبل. هذا اليوم رأيتك معي هناك، كنا نقف في منتصف قاعة كبيرة علقت على جدرانها مئات اللوحات، وتوزعت المنحوتات في كافة أرجائها..

يبدو أنك أصبحت جزءاً من واقعي وخيالي وأحلامي، ويبدو لي أنه من المستحيل أن تأتي واحدة وتستطيع أن تحتل مكانك. حتى لو كانت المجنونة التي حدثتك عنها.

لن ينسيني إياك أي كائن في الوجود، ولا أظن أنني قادر على نسيانك ولو للحظات!

صحيح أنني طوال حياتي وفي معظم الأحيان، أصنع قدري بنفسي، لكن في هذه المرة يبدو لي أن ثمة قدراً ما شرع في رسم باقي خطوط حياتي!

سألت إلهي فأجابني من الأعالي:

- ماذا تريد؟
- أريد أن تأخذني إلى ميلينا حيثما تكون وخلال ثانية واحدة فقط!

وراح الله يضحك، وظل يضحك إلى أن أثار أعصابي، فصرخت به:

- ماذا يضحكك؟

- أنت مجنون!!
- لأكن ألف مجنون، ما الذي يمنعك من نقلي أو حملي، هل ستحملني على ظهرك؟
- لا أحد ولا شيء!!
- إذن خذني إلى ميلينا!
- ستتحول إلى شعاع من نور إذا أرسلتك بهذه السرعة!!
- لأتحول إلى عدم، المهم أن أصل إليها!
- سأحاول!
- حيرتني يا إلهي، ألن تأخذني إلى ميلينا؟
- سآخذك بعد أن تجيبني!!
- على ماذا يا إلهي!!
- متى ستستأنف بحثك عني؟
- هل كنت تعرف أنني كنت أبحث عنك؟

* * * * * * * * * * * *

- أجل! ألم أحيي لك الموتى في جهنم داجون يا لقمان!!؟؟؟؟؟!!!!!!!

(لا... لا... لا... لا... لا... لا.. لا.. هل هذا أنت؟ آه يا إلهي الحبيب .. أنا متعب يا إلهي .. أرجوك أرجوك أرجوك خذني إليك.. لا أريد ميلينا.. لا أريد أية أمرأة في الكون!! خذني إليك يا إلهي، بل خذني معك !!)

واختفى إلهي واختفى صوته وأنا ما زلت أصرخ يا ميلينا.. ولا أعرف كيف وجدت نفسي أتحول إلى شعاع راح ينعكس من جبينك، حيث كنت تجلسين على أريكة في فندق كما يبدو..

أغشي على عينيك للحظات من شدة الشعاع الذي بهر عينيك، فوضعت

يديك عليهما دون أن تدري ما هذا الذي حدث، ومن أين جاء الشعاع المباغت..

حاولت أن أتكلم لأقول لك لا تخافي يا حبيبتي، هذا أنا، فلم أستطع، كما لم أستطع أن أطلب من الله أن يعيدني أو يحيلني إلى إنسان كما كنت.

ويبدو أنني سأبقى شعاعاً يرافقك أينما حللت، دون أن تعرفي، أو ربما إلى أن تعرفي أنني أنا!!

الشعاع (محمود أولقمان)

١١-٨-٩٦

× لقمان: إشارة إلى ملحمة أدبية للمؤلف تحمل عنوان (الملك لقمان) صدرت في دمشق عام ٢٠٠٩ عن دار نينوى.

* * * * * * * * * * * * * * * *

١٩- تعب نفسي !!

ميلينا..

هذا المساء لا رغبة لي في الجنون، ولا رغبة لي في الكذب أيضا، ولا في التحدث إلى الله، ولا حتى في مغازلتك، وهذا أمر مؤسف.. أشعر بتعب نفسي فظيع لا يجدي معه أي توهم للفرح، وأي أمل في الحب، ومع ذلك لا بد من الإعتقاد أن الأيام القادمة أجمل، وأن حبك في انتظاري، وأن نشر أعمالي الأدبية الممنوعة من النشر سيتم يوماً ما. وأن بيع وانتشار لوحاتي سيتم أيضاً. وما يحدث معي ليس إلا مشاكل عابرة لن تدوم.

ذهبت هذا اليوم إلى البريد لعلني أجد بطاقة منك، للأسف لم أجد شيئاً من أحد. كان الصندوق فارغا. لا يتذكرني أحد في هذا العالم حتى أولادي ومطلقاتي وعشيقاتي السابقات وعشرات الأصدقاء، لا أحد يتذكرني.. هل أصبحت نسياً منسياً؟! يبدو أن الأمر كذلك.

ثمة مشكلة عجيبة لا أعرف كيف أحلها. أشعر في هذه الأيامِ برغبة شديدة في البكاء. لكنني لا أستطيع أن أبكي، ثمة شخص قوي جدا وقاس يمنعني من البكاء، هذا الشخص في داخلي طبعاً، وثمة شخص آخر في داخلي أيضاً، ضعيف جداً يدفعني نحو البكاء، لكن ذاك القوي لا يتيح له تحقيق هذه الرغبة البسيطة في البكاء والبكاء والبكاء!!

ميلينا أنت فرحي الأخير، وآخر أمل لي.. لا تدعيني أفقد هذا الأمل.. أرجوك..

حتى لو اضطررت إلى أن تكذبي علي!!

أقبلك على ظهر يدك اليمنى أولا ثم على جبينك.

محمود ١٢-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * * *

٢٠- أحبك.

أحبك حتى لو طال البعاد

أنوء بين اللحظة وغدر الزمن

وأقطف من السراب ورداً

أعلقه على صدرك

وأشكله ـ في شعرك

وأحلم بيوم يضمنا ولا ينتهي

لعلي أنزع ثوب الحداد

* * * * * * * * * * * *

هائم بين عينيك وطول المسافات

بقلب أثلمه جور الأحبة

والأبناء الخائبون

والزوجات التعسات

و(المناضلون) الأوغاد!!

والأصدقاء الناكرون

ورفاق الحماقات!

* * * * * * * * * * * *

سأحبك كما لم أحب أحد

وكما لم يحبك أحد

وكما لن يحبك أحد

سأحبك أكثر مما أحب الناس

وأكثر مما أحب الله

سأحبك حتى لو لم يحبك أحد

سأحبك إلى الأبد
وإلى أبد الأبد!!

محمود

مساء الإثنين ١٢-٩-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٢١- مكانك دوما في العيون!

ميلينا

سأحبك حتى لو كان في ذلك جنوني

سأحبك كل الحب

سأحبك من القلب

وأضعك في عيوني

* * * * * * * * * * * *

حبك فاق حب كل الحبيبات

وبعادك موحش أكثر من فراق البلاد

وطيفك حاضر في ظلمة الليالي وطول السهاد

وعشقك أنساني وصل العشيقات!

* * * * * * * * * * * *

لا تقتليني بوردة

لا ترجميني بفلة

لا تمنحيني قبلة

إن لم تكن أجمل من كل القبلات!!

* * * * * * * * * * * *

لتكن قبلة في الهواء

لتكن قبلة في السديم

لتكن قبلة عبر الأثير

لتكن قبلة بطول المسافات!!

* * * * * * * * * * * *

حاضرة أنت بين الجفون

تعبرين بين الآهة والضلوع

وتمرحين بين هواجسي والظنون

ومكانك دوما في العيون!

محمود ١٤ -٨- ٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٢٢- لا تتركيني لوحدتي!!

ميليـــــــــــــنا!!

ساكنة أنت في تألق الخيال

تعبرين تلافيف الذاكرة

ويمر طيفك بين الحنين والحنين

ولا تغيبين عن البال!

* * * * * * * * * * * *

تقيسين بنطالاً أسود

وشورتا ملوناً

وقميصاً لا يخلو من نا يلون

وسترة ملوكية!!

ويظل قوامك هو المحال!

* * * * * * * * * * * *

((أقلعت يا محمود عن المخدرات

وهجرت سهر الليالي

ووصال المارقين

وتناول المسكرات!!))

* * * * * * * * * * * *

عذري أني لست مارقاً

ولا قدرة لي على اللهو

بقلوب الفاتنات

فأنا عاشق يهيم بالجمال

ويموت شغفا بالهوى

وحنو النهود الكاعبات!!

* * * * * * * * * * * *

لا تتركيني لوحدتي

لا تهجريني لوحشة الليل

ولا تنسي أني دونك

لا أشعر بأي طعم للحياة!!

محمود ١٤ -٨ -٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٢٣- طيف !

ميلينا..

حين تحضرين يكثر الأصدقاء

وتأتي سيارات البيجو والهوندا واللادا

وتهطل دعوات التنزه والعشاء

وحين تغيبين

يتحول الجميع إلى أعداء!!

* * * * * * * * * * * *

زمن لم أجد من يعلق معي مشنقة له

لعل شيئا من براءتنا المستلبة

يعود

لعل الحب يطل علينا

من شقوق النوافذ

وترجمنا ابنة الجيران بفلة

من خلف الفناء

ونعود حقا أصدقاء!

* * * * * * * * * * * *

يمر طيفك بعد كل نغمة فيروزية وآهة

يصحب طول المواويل وعمق الخيال

وتغدو الألحانٍ حالمة

والمسار واسعاً

والزمن غدار!

* * * * * * * * * * * *

تهرب مني الكلمات

وتضيع الألحان

وتغدو الألوان بلا ألوان

والأيام بلا طعم

والزهور بلا رائحة

والليل بلا عشق

ويجثم هول الزمان.

محمود

١٤ — ٨ — ٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٢٤- قبلة !!

ميلينا...

كانت قبلة سريعة وعابرة

وكانت الشمس تلقي حرارتهاعلى جبال القلمون

وكنا ننحدر مع الشارع بخطوات متئدة

خاصرتك فجأة

وفجأة ضممت شفتي ومددت رأسي نحوك

أملت رأسك نحوي وأشرعت خدك

قبلتك ونحن نسير

وأنا أضم خصرك

ومعلولا تجثم تحتنا

والشمس تجثم فوقنا

والله يرقبنا عن كثب

والحب يحرس ظلالنا

وقلبي يرفرف بجناحين وكأنه سنونو

ويدك تطوق خصري

ولحظك يحيي ما مر

وما سيأتي من سني عمري

* * * * * * * * * * * *

قبلتك قبلة كالنسيم

كالندى

كرائحة الياسمين

كالفرح

وكحلم حب قديم

* * * * * * * * * * * *

قبلتك على غفلة

قبلة سهلة

قبلتك كما لو كنت طفلة

قبلتك على سهوة

قبلة ولا أحلى

قبلتك كما لو كنت مهرة

قبلة حلوة

قبلتك كما لو كنت فلة

أو كما لو كنت زهرة

قبلتك كما أهوى

قبلة عذبة

قبلتك كما لو كنت إيل!!×

أو كما لو كنت يهوه!!!!!!×

محمود ١٥—٨—٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

× إيل. إله كنعاني.

× يهوه . الإله اليهودي.

٢٥- ظلام!!

مدلهم هذا الليل يا ميلينا

لا ضوء يخبو هناك

ولا شمعة تنوس في الطرقات

ولا وميض على مدى البعد

ولا سنا لبرق يلوح في الأفق

ولا بصيص نجم في السماء

ولا حياة!!

****

ألمح أشباح بشر خلف الجدران

وأسمع وقع حوافر خيول تعدو في الظلام

وصليل سيوف

وقرع طبول

وصراخاً وكلام!

وصوتاً يهتف باكياً:

لا سلام !!

****

كلام في كلام في كلام

كلام يأخذني إليك

وكلام يبعدني عنك

كلام يقربني

وكلام يشردني

وكلام يبددني

وكلام يهمس في أذني كلاماً

لا سلام!!

محمود .

١٦ - ٨- ٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٢٦- صباح الخير!

ميلينا.. صباح الخير

صباح الخير لابتسامتك أمامي

صباح الخير لشعرك المعقوص

صباح الخير لعينيك تنظران إلي

صباح الخير لشفتيك تفتران عن بسمه

صباح الخير لأسنانك

صباح الخير لخديك

صباح الخير للقرط في أذنك

صباح الخير لنظارتك

صباح الخير ليديك

صباح الخير للخاتم في اصبعك

صباح الخير للبلوز الأزرق كلوحاتي

صباح الخير لعنقك

صباح الخير لردفيك بالبكيني

صباح الخير لفخذيك اللذين عزفت عليهما بيدي لحن قلبي وأنا أعمل لك مساجا على المسبح، وأنت تستسلمين للمسات أصابعي تداعب مسامات جسدك!!

صباح الخير للإله الذي خلقك

صباح الخير للأبوين اللذين أنجباك

صباح الخير لأختيك

صباح الخير لأخيك

صباح الخير لكل من عشقك!

وصباح الله علينا جميعا.

****

ثلاث صور لك أمامي الآن، يسار ما كنت تجلسين. بالأمس أحضرت الصور من الأستوديو.. فرحت بها كطفل.. وضعت واحدة أمامي في المكتبة وواحدة أمامي فوق التلفزيون، وواحدة أمامي إلى يسار المكان الذي كنت تجلسين فيه صباحاً.. أريد أن أراك أمامي دائماً..

هذا الصباح أحضرت الصور ووضعتها أمامي، لهذا أنا فرح.

تلك الصورة وأنت تستلقين على بطنك بالبكيني إلى جانب المسبح بعد أن عملت لك المساج تثير شهوتي وأنا أتأمل جمال ردفيك.. قد لا تصدقين أن هذه الصورة إلى جانب الصور الأخرى ستغدو شريكة حياتي الروحية إلى أن تفرج علي بأنثى ما من هذا العالم، أو إلى أن التقيك ثانية وأنت في بعض حال مما أشعر به نحوك!!!!!

بدأت أستعيد هدوئي قليلاً بعد غيابك، فلم أكتب لك منذ أسبوع، رغم أنك تعيشين دائما معي وفي خيالي..

لم أرسم أيضا منذ أسبوع وأشعر أنني متعب وينقصني أشياء كثيرة وأهم شيء هو حبك بالتأكيد، وحبك أنت تحديدا لا حب غيرك، إنه أهم عندي من الماء والهواء..

أقبلك كلما خلدت إلى النوم وكلما استيقظت منه.

محمود .

صباح الجمعة .

٢٦ -٨-٩٦

****

٢٧- بطاقة بريدية.

ميلينا..

طار قلبي إلى البريد

باحثاً عن شيء منك

شيء لمسته يداك

بطاقة تحمل كلماتك

ورحيق لسانك

وخطك

ولمسة أصابعك

وشيئا من مشاعرك نحوي

وشيئا عن أسفارك

وكلمة عن صحتك

وخبراً عن ترحالك

وليالي سهدك

وأيام فرحك

ومدن تجوالك.

* * * * * * * * * * * * * * * *

بقلب متوجس ألا يجد شيئا منك

فتحت باب الصندوق

ثمة ثلاث رسائل

الأولى ليست منك

والثانية ليست منك

والثالثة يا إلهي

كانت منك!
ضممتك إلى قلبي
(شكراً يا إلهي
ميلينا بخير)
ميلينا تواصل ترحالها
وهي ما تزال في سورية
تجوب المدن والقرى
والبوادي والسهول
بحثا عن آثارها
مفضلة ذلك
على رتابة ليالي
وصخب ألواني
وجنون أشعاري
وأوهام نثري
وضم خصرها
وتقبيل شعرها
وبوس خدها
ولثم يديها
وحلمي بوصالها!!!!!
* * * * * * * * * * * *
يا ريح الجنوب إليها خذيني
احمليني على متن السديم وطيري
فأنا عاجز عن فراقها

ولحظ بسمتها

وأنس حضورها وعناقها

محمود .

٢٧-٨-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٢٨- خذيني إليك

ميلينا...

لا تتركيني ضائعاً في متاهات الضلال

غارقاً في محيط من نفاق

يؤملني الوهم خيراً

ويعدني الدجى بالأمل

ليمسح نهد دمعتي

ويلجم حضن آهتي

ويحنو قلب على قلبي

وتلثم قبلة شفتي!

ليحيا المحال!!

* * * * * * * * * * * * * * * *

لا تحرميني من فيء جفنيك

لا تغيبيني عن ناظريك

لا تبعديني عن خفقات قلبك

خذيني بيديك

احتويني

ضميني إليك

فأنا ظمىء إلى حضنك والظلال

حدثيني عن الفرح الآتي

وليالي فينا

والرقص

والموسيقى

والبنفسج

والعشق

والحب الحلال.

محمود .

١٠٩٦-٨-٣١

* * * * * * * * * * * * * * * *

٢٩- عيد ميلاد

يا رب ألا أتيت بشموع من جنانك لميلينا

فأنت الكريم يا رب

وأنت المحب يا رب

وأنت من ينير ظلمة ليالينا

ولتصدح الموسيقى يا رب

ولترقص الملائكة

ولتعبق روائح الزهور

ولتفرح قلوب العاشقينا

ولتشعل الحوريات ثلاثا وعشرين شمعة

على قالب جاتو من جنانك

بارتفاع ثلاثة وعشرين طابقا

يعلوها هرم

فمن غيرك يا رب يرأف بالمحبينا

* * * * * * * * * * * * * * * *

ألا قربت يا رب ليلها من ليلك

ونهارها من نهارك

وسماءها من سمائك

وأرضها من عرشك

فأنت يا رب خير المجيبينا!

ويا رب اسبغ عليها بركتك

واضف عليها جمالاً من جمالك

فلتكن مليكة لحور العين

في جنان سمائك

فأنت جميل يا رب وتحب الجميلينا

محمود .

٢-٩-٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * * *

٣٠- موغل في العدم!

أيها السائر في الظلام مهلاً، فقد ادلهم ليلك وتوارت النجوم من سمائك،، وغاب قمرك خلف المحيطات النا ئية، فإلى أين تمضي؟ أمامك وهاد وبحار وسهوب وصحاري، كم ستتعثر قدماك، وكم سينضب مأؤك، وكم سيشح زادك؟ عد أيها الهائم في الجنون عبر دروب المتاهات، عد إلى ظلال لا تفيّء قاطنيها، عد إلى ديار لفظت ساكنيها، عد إلى قلوب خوت من المحبة وفاضت بتضخم الذات، وراحت تنفث سموم العدوانية!!

دعني أيها السائل ألحق بحبيبتي، دعني أقطع الفيافي مخوضا في هذا الظلام،

دعني أواجه قدراً يأبى الهزيمة، لعلي أحظى بالإخلاد إلى صدرها، وأبعث حيا من هذا الزؤام!!

حبيبتك التي تنشد؟ أين هي حبيبتك هذه؟ هل أغدقت عليك وعود السماوات؟

هل قبلت مبسمها ذات صباح؟ هل ألقمتك نهدا ذات مساء، هل أشرعت لك حضنا للأمان؟ هل بايعتك على الوقوف في وجه الطغاة؟ هل نأت بك من غدر الزمان؟!

لم أيها السائل تعترض طريقي؟ لم تفترض أنني ذاهب في الفراغ، وأنني موغل في العدم؟! عيناها أيها السائل هناك، تترقبان طريقي من خلف الجبال البعيدة،

وتحرسان وقع خطاي من أسماع المارقين!! وتنتظران إطلالتي مع نسائم الفجر محملا بالعشق والقبل ونسائم الشرق.

إذهب أيها العاشق، اذهب أيها الحالم، عد خطاك وامض في طريق التهلكة! ابدأ من الخطوة الأخيرة ،فالطريق أمامك طويل، أطول مما

تدري، وأطول من عد الخطا، وأكثر من العدِ .

لا تدر وجهك لريح السموم، ولا تنتظر ظهور الهلال وضوء النجوم، خوفي على قلبك، ومخافتي من حزنك، ألا يحتمل هذا المحال، فيتفجر كل ما اكتنز في بطينتك من عثرات السنين..

امض، امض..

الخميس.

١٩٩٦-٩-٥

* * * * * * * * * * * * * * * *

٣١- وحدي

وحدي أعد ساعات الليل الزنيم

تحملني الألوان إليها هزيعاً

وتصحبني آهات الناي الحزين

محلقّاًعلى أجنحة الموسيقا

وطيفك ينشلني من عهر السنين!!

* * * * * * * * * * * * * * * * *

يا ليل يا ليل يا ليل

يا كأس يا كأس يا كأس

ألا دعوتما ميلينا على كأس من العرق؟!

دعوناها أيها الساهر فلم تجب

لملم آهاتك وامض إلى حضن السرير

فقد ثملت وثمل الليل

واستيقظ الحفاة على الهديل!!

* * * * * * * * * * * * * * * * *

آه آه آه

مثقل بأنين السنين العجاف

متخم من ليال لا تحنُ

ورؤوس لا تهتف إلا

بالسم الزعاف!!

الثلاثاء.

١٠ -٩- ١٩٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * * *

٣٢- تفاؤل!!

صباح مشرق بالتفاؤل
رغم أني لم أشم فيه رائحة الياسمين
ولم أستمع إلى نغمة فيروزية
ولم تعدني امرأة بقبلة
ولم تطل جارتي من النافذة المقابلة
ولم تعمل لي عرضاً لنهديها
ولا حتى لعنقٍها وكتفيها
ولم أسمع نبأ عن تحقيق العدالة في العالم
ولم تسمح سلطات الإحتلال لي بالعودة إلى القدس
ولم ترفرف حمامة على شرفة بلكونتي
ولم تنقل الإذاعات ما يفرحني
ولم يهاتفني أحد لشراء لوحة ما لي
ولم تراسلني دار نشر لنشر رواية ما لي
ولم تتصل صالة معارض لإقامة معرض لي
ولم يحكني باطن يدي لأقول أني سأقبض مالا
لم يحدث أي شيء من كل هذا
حتى أن مجاري المياه في البيت
أصبحت مزطومة!!
وثمة مشرد ينام في الغرفة المجاورة لغرفتي
لا أرتاح لوجوده
والذين وعدوني بشراء أثاث البيت لم يحضروا
وجيبي خال تماما من النقود

حتى الألوان بدت هذا الصباح منزعجة مني!
واللوحات بدت باهتة للغاية
وليس ثمة ما يدعوني إلى التفاؤل
إلا ابتسامتك الماثلة أمامي في الصورة
على مسافة نصف متر مني!!!

محمود . ١٢ -٩- ١٩٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٣٣- وحدي!!

وحدي أرقب الليل البديل

زادي ابتسامتك

وقلمي

وأشعاري

والواني

وأعد الخطا وأسير

دون رفقة

دون سفن

دون قوارب

دون نوارس

وحتى دون هديل

تبدو الأحلام بعيدة بعد عرش الله

بعد جنانه

بعد أبعد سماواته

بعد أن يظهر لي هذه الليلة

ويعدني بحب جميل

أبول على زمن يزني بالزمن!!

ابول على دهر عفن!!

كل الخيول أطلقت أعنتها وجمحت

إلا خيولنا كبت في المحن!!

محمود . ١٦ -٩ - ٩٦

* * * * * * * * * * * * * * * *

٣٤- في انتظار حبك !!

ميلينا..

أحبي شاباً وسيماً

بشاربين نحيلين

وشعر يتهدل على الكتفين

وعينين خضراوين

وبشرة سمراء

وشفتين رقيقتين

وطول فارع

وعقل راجح

أحبي شابين

أحدهما قمحي

والثاني أسمر

أحبي ثلاثة شباب

هندي وعربي وغجري

وأحبي أوروبياً إن شئت

أحبي كل الشباب

أحبي كل الرجال

أحبي ما شاء لك الحب

أحبي من القلب

أحبي ولو من أجل الحب

وحين لا تجدين أحدا يحبك

ستجدينني في انتظارك
كما لو كنت جالساً على نار!!

محمود . ١٨ -٩ -١٩٩٦

****

٣٥- نعي الكلام كلام النعي !!

ألم يئن أوانك؟

بل آن أوانك!!

اطرح عن كاهلك ثقل الحروف!!

والق بالقمامة بيض الأوراق!

واملأ صفحة الإنترنت بالأسود المدلهم

فالزمن خواء والناس خواء

ولا شيء إلا الظلام!

لا تنر ليلك بشمعة

ولا بلمبه

ولا بما بينهما من قنديل زيت!

فالثرثرة سيدة هذا الزمان

تفتح ساقيها للعابرين!!

في ضوء النهار أو

تحت جنح الظلام

دع حروفك للخواء

فلم يعد هناك جدوى للرثاء

فالزمن لرضع النهود

ولعق الفروج

ولثم الشفاه والسرر والخدود

والعقل للقمامة

فإلى أين تمضي في هذا العويل!!

احفر مقبرة للكلام

في عمق الصحراء
وكفنه بكل حروف اللغات
واقرأ (ما أنا بقارىء)
على ضفاف الفرات!!

محمود

٣-٣ ٢٠٠٦

* * * * * * * * * * * * * * * * *

٣٦- لا أمل في اللقاء لا أمل في الحب !!

ميلينا

مرت عشرة أعوام

ولم يعد هناك أمل باللقاء

أحببت عشر نساء

امرأة كل عام

حب دون طعم

لا نكهة ولا رائحة

لم تعبق جدران بيتي برائحة الأنوثة

فقررت الإضراب عن الحب

إلا ما قل من كلام

يدغدغ المشاعر

وقد أجد فيه سلوى ما

لم أعد مؤمنا بحب ما بعدك

ولا أظن انني ساحب بعدك

ربما لن يخلو الأمر من ليلة في سرير موحش

دون همسة حب

دون اختلاج روحين

دون عناق قلبين

سيكون هناك وله بالجسد

هذا ما أرادته جينيا

وكانت على حق

وصال. جسد. وصال. جسد!!

لن أبحث عن حب رومانسي بعد اليوم

بل عن جسد يصهل للوصال

يتوسل رعشة تنقله إلى ذروة الذروات

كتلك الرعشة الكونية التي ابتدأ بها الخلق الخالق

الرعشة ألتي تمخضت عنها إنانا وعشتار

عناة وإيزيس

أثينا وافروديت

وأنا أيضا

سأغرق معه في الصهيل

إلى أن يلفظنا السرير

وننهي جولتنا بالهديل!

محمود

دمشق ٧-٩-٢٠٠٧

* * * * * * * * * * * * * * * *

٣٧- ها أنت تعودين

ميلينا
ها أنت تعودين
إلى ليلي الموحش
ونهاراتي المظلمة
رغم أنني أدرك
أنه لن يكون هناك لقاء
ولن يبزغ أمل
في فجر زحل
أو في درب التبانة
عشتار لم تعد عشتار
لتهبنا شيئا من قدرتها على الخلق
وأفروديت أقلعت عن الحب
كما أقلعت أنا
رغم حنيني إلى حواء
التي تبتعد كلما لاح اقترابها
وكأنها سجينه
تعشق اغترابها

محمود
٢٠٠٨

* * * * * * * * * * * * * * * *

٣٨- مجرد غزل !

ميلينا

خذيني يا حبيبتي باقة ورد

أو اجعليني غمزة في الخد

أوشميني هائما على صدرك

أو خالا على النهد.

محمود

٢٠٠٩

* * * * * * * * * * * * * * * *

أهلا بكم في دمشق

حين أدرك (محمود شاهين) أن العوز قد ينقض عليه مشرعا أنيابه المخيفة بعد أن غادر دمشق هربا إلى عمان من الأهوال الجارية في سوريا، أخذ بعض لوحاته ووقف بها أمام المدرج الروماني لعله يبيع شيئاً.

كان قد قبر الفقر منذ اكثر من عشرة أعوام، بعد أن أصبح له في العالم أكثر من سبعة آلاف لوحة. قرابة عامين من الحرب وهو يصرف مما ادخره دون أن يبيع شيئاً. وأوشكت نقوده على النفاد. راسل بعض الصحف للعمل فلم تجب. وها هو يقف أمام حائط المدرج الروماني فارداً بعض لوحاته .

اقترب سائح منه ليلقي نظرة على اللوحات.. هتف مرحباً به بالإنكليزية كما اعتاد أن يرحب بالسياح في معرضه في دمشق: (أهلا بكم في دمشق)! فوجيء بالسائح يتوقف ويحدجه بدهشة ثم ينصرف متابعاً طريقه بسرعه.

شعر أن السائح ارتاب منه فهرب. (لكن لماذا؟)

جاءت سائحة أخرى. رحب بها (ولكم إن دمسكس)!

فوجيء بالسائحة تفتح فمها وتهتف بدهشة وهي تبتعد متسائلة (إن دمسكس)؟!

(أوه) وأدرك لحظتها السر في دهشة السياح. لا شك أنهم ظنوا أنه مجنون.

أمضى قرابة ساعتين دون أن يبيع شيئاً.. أعاد اللوحات إلى حقيبتها. وانصرف يجر شيخوخته وثقل أحزانه ولوحاته، بخطى متهالكة، وصوت يصرخ في دخيلته:

(متى تدرك أنك مشرد في عمان ولم تعد في دمشق، متى؟ هل ستسكنك دمشق إلى الأبد؟!)

١٥-٣-٢٠١٣

****

صدر للمؤلف:

* نار البراءة – قصص – دار ابن رشد – ٧٩
* الخطار – قصص – دار القدس – بيروت – ٧٩
* الأرض الحرام – رواية – وزارة الثقافة – دمشق – ٨٣ (ترجمت إلى التركية عام ٢٠٠٢)
* الهجرة إلى الجحيم – رواية – المؤسسة الجامعة – بيروت – ٨٤

الأرض المغتصبة – رواية – دار الشيخ – دمشق – ٨٩

* غوايات شيطانية (سهرة مع ابليس) رواية ملحمية (ترجمت إلى الألمانية عام ٩٩) وصدرت عن دار نينوى في دمشق عام ٢٠٠٨
* موتى وقطط لوسيان – قصص – وزارة الثقافة الفلسطينية – رام الله – ٩٨

الملك لقمان. ملحمة روائية. جزءان.. دار نينوى دمشق ٢٠٠٩

منشورات على النت:

* رسائل عشق إلى ميلينا .
* السلام على محمود.

(أشعار عن ديوان محمود درويش، لماذا تركت الحصان وحيدا)

* الخالق الخلق الغاية (بحث في العقائد والأساطير الشرقية)
* أيوب التوراتي وفاوست غوته (دراسة مقارنة)

أعمال صحفية :

* فلسطين أرض وحضارة – الدار الجماهرية – طرابلس – ٨٥
* حرب المواجهة في لبنان – الاعلام الموحد – دمشق – ٨٣

دراسات نقدية في مجلات شهرية وفصلية أهمها :

* التحول من البداوة إلى النفط في مدن الملح
* الحزن الدفين – دراسة في قصص الأديبة الفلسطينية سميرة عزام
* مقالات في الرواية الفلسطينية
* مقالات في الرواية العربية
* مقالات في الرواية العالمية
* مقالات في القصة الفلسطينية

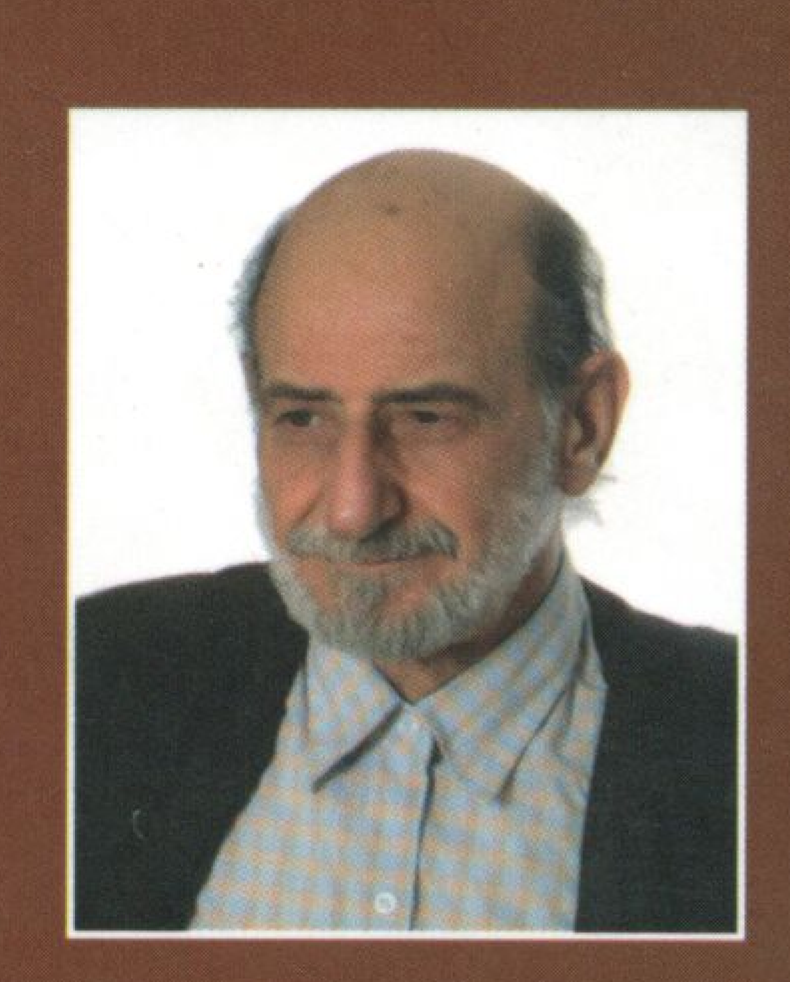
مخطوطات لم تنشر:

* الأرض المغتصبة – جبل المنطار، رواية
* الأحزان المتعانقة – رواية

كما ترجمت بعض قصصه إلى الانكليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية والاسبانية والروسية وغيرها، وبيعت بعض قصصه إلى السينما والتلفزيون .

حولت قصته (نارالبراءة) إلى المسرح وعرضت في عمان عام ١٩٩١

الفهرس



ملينا

خديني يا حبيبتي باقة ورد

أو اجعليني غمزة في الخد

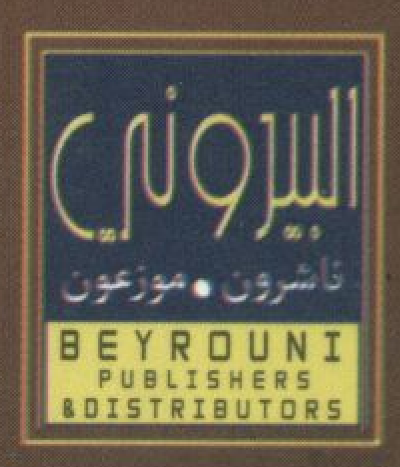
أوشميني هائما على صدرك

أو خالا على النهد

محمود شاهين







شركة دار البيروني للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - وسط البلد - شارع السلط - بناية رقم (٢٣)

ص.ب: ١٨٢٢١٢ عمان ١١١١٨ - تليفاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦٥١٠٠٤+

Email:beyrouni.publisher@gmail.com